رحلتى إلى
عالـــم الجـــن
والعلاج الروحانى

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر

ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكترونى : email: dar@shorouk, com.

د. نادية رضوان
أستاذة علم الاجتماع
جامعة قناة السويس

رحلتى إلى عالم الجن والعلاج الروحانى

دار الشروق

إهـــــداء

إلى كل متمرد على جمر المقدور:

غـيـبـبنـي الألـم وأدخلـتني بـابـا دوارا ظـل يـدور
والدنيـا بالألـم رمت بي إلى أعـمق أعـماق بحـور
والوجـع بـرأسـي يـأبي لـي أن أخـرج من لجج الديجـور

* * *

وخطاي الحيـرى تأخـذني إلى عـبق دخـان وبخـور
إلى لجـة بحـر ألقت بي الموج جـبال فـيه تمور
وكـسـاني سـحق بأمـواج ولهـفت لنشط وجـسـور

* * *

وبصـيص لاح من الظلمـة تحسبه الأعين طاقة نور
وظننت الشمـعة من لهفي روحـا أو جنا أو حـور
وحسبت القشة مركـبة وانسـقت لوعـيي المقهـور

* * *

والشـوق إلى ليلة قـدر مـزقني سنينا ودهـور
ورجعـت أكفي خـاليـة والأمل هـبـاء منثـور
أدبني الـزمن وعـلمـني أن المقـدور هـو المقـدور

المقدمة

عندما تكتحل الدنيا في عين الإنسان بمراود الظلمة ، ويدلهمّ الليل ويستطيل وكأنه الدهر دون أن ينبلج الفجر ويأتي الصباح . . .

وعندما تفترس الأنفس والأجساد أنيابُ الألم الوحشية ، في الوقت الذي يعجز فيه العلم والطب عن وقف نزيف الألم الأخرس . . .

ننزع إلى خلق حيلنا الدفاعية لاختراق المجهول ، ونرتمي في أحضان الغيبيات والكائنات الإعجازية . . .

وسطور كتابي هذا ، تحكي قصة رحلتي مع آلام الصداع ، الذي لم ينقطع ليلا أو نهارا على مدار الستة عشر عاما الماضية ، حيث هاجمني فجأة في خريف ١٩٨٢ ، وأسلمني إلى طرقات وسراديب ودهاليز عالم الخرافة والغيبيات . عندما يئست من الطب ، ويئس الطب مني . وعندما وقف العلم عاجزا عن انتشالي من طوفان الألم الهادر . . .

فعندما نعجز عن مواجهة الواقع ، أو التعايش معه ، وفي لحظات اليأس وغياب الأمل ، يصبح العالم الغيبي وكائناته اللامرئية من الأرواح والجن والعفاريت بمثابة طاقة نور ، يشدنا ، ويجذبنا إليه بصورة وطريقة سحرية مغناطيسية ؛ لنجد أن أقدامنا قد ضلت بنا في وادي التيه ، ولندرك عندما تخور قوانا عجزًا ويأسًا أن ذلك النور لم يكن إلا وهمًا وسرابًا .

فرغم أن المرء في لحظات القهر والعجز عن تفسير المجهول ، لا يجد أمامه من مخرج سوى أن يرتمي في أحضان الغيبيات والكائنات الإعجازية ، إلا أنها بكل أشكالها تكون كالباب الدوار ، يأخذك ؛ ليعيدك مرة أخرى من حيث بدأت .

وأنا واحدة ممن داروا مع ذلك الباب الدوار على مدار كل تلك السنوات ؛ بحثًا عن الخلاص عن طريق الأرواح والجن والعوالم اللامرئية ، وسعيًا لتحقيق الأمل الغائب في الشفاء ، فإذا بي وقد انتهيت إلى نفس نقطة البدء التي بدأت منها .

وما يضمه هذا الكتاب تجربة ذاتية خالصة هى دنيا جديدة اقتحمتها ، وعالم جديد تفتحت عينى على مرآة هى حياة جديدة تنبع من كونى صاحبة التجربة .

وبين أيديكم أضع هذه الدنيا الجديدة وذلك العالم الجديد وتلك الحياة الجديدة ، التى ربما لم تعايشوها أو تدخلوها من قبل .

ولأنها تجربة ذاتية خالصة أقرب ما تكون إلى السيرة الذاتية ؛ فقد راعيت أن أمسك بمفاتيح المنهج الخاص بأدب السيرة ، وحرصت على أن أكون صادقة كل الصدق جملة وتفصيلاً .

ولهذا فقد التزمت بألا أتجمل ؛ لأن التجمل يخرج بالصورة عن حقيقتها إذ إن المصداقية هى الأساس المنهجى فى سبيل رسم وتكوين الصورة الحقيقية بحلوها ومرها .

وعندما بدأت هذا الكتاب كنت أعتقد أن التركيز والحديث عن الجوانب الخاصة بجولاتى وتجاربى مع المعالجين الروحانيين وطاردى الجن ومبطلى السحر لا بد وأن يكون هو جوهر هذا الكتاب .

ولكننى بعد أن بدأت فى استعراض هذه الجولات والتجارب شعرت أننى قد قصرت فى حق القارئ الذى لا يعرفنى ، ووجدت أن من حقه أن ألقى ببعض الضوء ولو بقدر قليل خلال الصفحات الأولى ، والتى أرجو ألا تكون مملة للقارئ على بعض جوانب حياتى الشخصية ؛ خاصة فى فترة الطفولة والصبا ، تلك الفترة التى تتشكل بمقتضاها سمات الشخصية ، حتى تتاح له الفرصة لأن يتمثل شخصيتى ؛ وحتى تتشكل لديه القدرة على تقييمى ؛ والحكم على مدى مصداقيتى خلال سطور ذلك الكتاب ؛ حتى يعيش معى تجربتى .

ولعل البعض قد يتساءل :

لماذا هذا الموضوع بالذات : الأرواح والجن والعفاريت؟ خاصة فى ظل العلاقة القائمة بين التفكير الغيبى والتخلف ، ورغم ما هو مفترض بخصوصى ، من حيث التزامى بالتفكير العلمى من منطلق كونى أستاذة جامعية .

وما الجدوى من وراء مثل هذه الكتابات؟

وهل أنا مؤيدة لوجود مثل هذه الغيبيات واللامرئيات من حيث وجودها والانغماس فى ممارساتها ، أم أننى من المعارضات؟

وعلى هذا فإنني وللحق أقول إن الاعتقاد ببعض الغيبيات ومنها الاتصال بالأرواح وتجسيدها والوساطة الروحية والجن، أي الإيمان بوجود الكائنات اللامرئية، أمر لا ينبغي أن تصفه بالتخلف، حيث تشير كل الأديان السماوية إلى بعض أشكاله وتؤكده. كما أن الجمعيات الروحية المنتشرة فى العالم العربى وفي مصر تضم بين أعضائها خيرة العلماء والفلاسفة والمفكرين، كذلك فإن المكتبة العالمية تضم آلاف المؤلفات حول هذه الغيبيات كواقع غير مرئي؛ لأن قدراتنا وإمكانياتنا العلمية الحالية لا تؤهل الكثيرين منا لاكتشاف هذا العالم المجهول؛ مما يحتم علينا ألا ننفيه لمجرد كونه مجهولاً لنا، إذ لا يعنى كونه مجهولاً أنه بالضرورة لا وجود له، فمنذ عدة عقود وقبل الاكتشافات العلمية الطبية كانت البكتريا والميكروبات والفيروسات مجهولة لجميع البشر رغم وجودها.

واستكمالاً للإجابة فإنني أعود إلى القول بأن الإنسان فى لحظات موت الأمل والرجاء، وعندما يغرق فى طوفان عجزه عن معرفة المجهول، يبحث حوله عن أى قشة يتعلق بها؛ لتأخذه إلى ضفاف الأمل المنشود، بغض النظر عما إذا كانت تلك القشة ترتفع به إلى عالم الأرواح العلوى، أو تهبط به إلى عالم الجن السفلى، فهو لا يلجأ إليها إلا عندما تتوارى الحقيقة وراء الوهم الحالم.

أما بخصوص الجدوى وراء هذا النوع من الكتابات، فإننى كمتخصصة فى علم الاجتماع أزعم أننى أكثر قدرة على فهم الشخصية المصرية والخلفية الثقافية التى توسم المؤمنين بالغيبيات بسمة مميزة، وهى الانصياع الأعمى، والتسليم المطلق لذوى القدرة على تسخير القوى الإعجازية، والعجز عن إعمال العقل وعدم الربط بين الأسباب والنتائج، وعدم القدرة على التحليل العلمى المتعقل للظواهر التى قد تبدو خارقة؛ مما يجعل الكثيرين منها هدفًا سهلاً للنصابين والمشعوذين.

فالبسطاء من الناس ذوى القدر الضئيل من التعليم أو الثقافة يميل إلى التفسيرات الإعجازية والخرافية لكل ما يعجز عنه فهمه أو تفسيره أو مواجهته، حتى بالنسبة لأبسط الظواهر.

ويختلف الوضع بالنسبة لى فى هذا الصدد. فأنا لم ألجأ إلى الغيبيات إلا بعد أن سدت فى وجهى كل السبل العلمية والطبية، وبعد أن نهشنى العجز بأنيابه وتراجعت فلول الأمل أمام جيوش اليأس، وبعد أن تقلصت مساحة الصحة أمام زحف المرض وأنا أتجرع أنات الألم الأخرس.

وبالإضافة إلى ذلك فإن مستوى تعليمي وخبراتي وتجاربي في الحياة أمدتني بقدر ما من القدرة على التمييز بين النصب والتحايل والادعاء، وبين بعض الظواهر الإعجازية التي يعجز العلم والمنطق والشكوك عن إنكارها.

هذا إلى جانب أن تصاريف القدر مضافًا إليها قدراتي الفطرية مشفوعة بتجاربي الكثيرة في العديد من المجالات، أمدتني بالقوة والقدرة على مواجهة المواقف الخطيرة والصعبة التي قد لا ينجو منها شخص آخر؛ مما أتاح لي فرصة النجاة من الفخاخ والشراك الخداعية التي يقع فيها الكثيرون من البسطاء.

وعلى هذا فإن صفحات هذا الكتاب في الواقع بمثابة صفارة تحذير أو جرس إنذار، إلا أن تلك المسالك الغيبية الإعجازية تؤدي إلى طريقين لا ثالث لهما:

الأول: أن هذا الطريق - مثلما أشرت من قبل - أشبه بالباب الدوار الذي لا يحقق المرء من وراء الدوران معه أي نتيجة، إلا في بعض الحالات القليلة الشاذة والتي ربما ترجع إلى الصدفة.

الثاني: أن تلك القوى الغيبية كالأرواح أو الجن على فرض التسليم المطلق بالاستعاذة بها لا تنفع، وإن كان من الوارد احتمالات ضررها.

فالجن على وجه الخصوص من خلال الظواهر الخارقة التي عايشتُها، والتي قد يكون لها بعض التفسيرات العلمية التي لا نعرفها، لا يستفيد منه سوى الشخص الذي يسخره، حيث يحصل من ورائه على الأموال الطائلة في المقسام الأول، إذ إن ذيوع اسم ذلك الشخص وانتشار شهرته في مجال قدرته على الإتيان ببعض الظواهر الخارقة يؤدي إلى تدفق الناس وارتمائهم على أعتابه، والذي يؤدي بدوره إلى مكاسب مادية طائلة.

أما الاستفادة الأخرى المباشرة لمن يستعينون بالجن، أو من يدعون القدرة على تسخيرهم له، فهم من خلال استعراض قدراتهم الإعجازية يصبحون أكثر قدرة فيما يختص بإخضاع النساء لهم؛ لإشباع رغبتهم البهيمية، حيث يستخدمون في ذلك عمليات الإيحاء والإيهام والتنويم المغناطيسي، إلى جانب اللجوء في بعض الأحيان إلى سلاح التهديد بالإيذاء وتسليط الجن، والذي يكون سيفًا مصلتًا على رقاب النساء لإخضاعهن جنسيًا أو تكديس الثروات من ورائهم رجالاً كانوا أو إناثًا.

وإذا سلمنا بأن اقتحام عالم الغيبيات سوف يقف عند حد الدوران مع الباب الدوار، الذى يعود بالمرء إلى نقطة البدء لهان الأمر، فلا ضير أن نستكشف ونتحقق ونحاول اقتحام العالم المجهول اللامرئى.

إلا أن الخطورة تأتى من الاحتمالات القائمة بأن المرء خلال دوران هذا الباب قد يتعثر للحظة؛ فيسقط ويطحنه الباب أو يسحقه.

ولهذا كتبت هذا الكتاب

ولهذا أقول: إياكم وهذا الطريق

د. نادية رضوان

مايو ١٩٩٩

عفاريت بيتنا القديم

لم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري عندما انتقلنا من بيتنا القديم فى أقصى الغرب من مدينة حلوان إلى شقة جديدة فى أقصى الشرق من المدينة نفسها.

كان بيتنا القديم بحجراته الواسعة وأسقفه المرتفعة وحديقته الكبيرة وأسواره العالية وبواباته الحديدية الضخمة نموذجا للعديد من بيوت حلوان فى ذلك العهد البعيد. وكانت الشوارع الواسعة الهادئة التى تظللها أشجار الكافور العملاقة المتسامقة على الجانبين، هى السمة المميزة لتلك المدينة منذ إنشائها وحتى ما بعد ثورة ١٩٥٢، عندما تحولت بعدها إلى مدينة صناعية مزدحمة هجرها الهدوء مع هجرة معظم سكانها من العائلات العريقة.

كان بيتنا القديم يقع على مشارف الصحراء الغربية للمدينة والتى تمتد كثبانها الرملية كيلو مترات قليلة وحتى الشاطئ الشرقى لنهر النيل، والذى انطبعت صورته فى ذاكرتى وحتى الآن عندما كنا نصعد إلى سطح بيتنا فى أثناء الغروب لنراقب الشمس الغاربة وهى ترتمى على البعد فى أحضان النهر العظيم، وقد انعكس على صفحته الفضية ذلك المزيج المبهر من صفرة وحمرة الشفق النارية، حيث تكتمل الصورة البانورامية بعظمة أهرامات الجيزة الثلاثة الشامخة كخلفية لهذه الصورة الخالدة.

كانت حديقة البيت الواسعة وشارعنا الهادئ الساكن ورمال الصحراء التى لا يفصلها عن بيتنا سوى بيتين آخرين هى مرتع طفولتى ومواطئ لهوى ومرحى وزاد خيالاتى ورؤاى وأحلامى، وكذلك منبع مخاوفى الطفولية.

كانت مخاوفى الطفولية تتعملق وتتزايد مع هجمات جيوش الظلام على فلول الشمس الغاربة، عندما يوصد باب البيت الداخلى ذو الدرجات القليلة المفضية إلى الحديقة المظلمة المليئة بالخفايا والأسرار وخاصة فى ليالى الشتاء، حيث تختفى الأشباح والجنيات والغيلان وراء الأشجار المتناثرة، وفى حنايا فروعها التى تلامس السماء وهى

تعربد مع هبوب الرياح متحينة الفرصة للانقضاض على من تسول له نفسه الخروج منفردا إلى الحديقة منتهكا بذلك حرمة هذه الكائنات الخفية التي ترتع في مملكتها الخاصة.

وكنت إذا ما اضطرتنا الظروف في تلك الأحيان إلى تجاوز عتبة الباب المفضى إلى الحديقة لسبب أو لآخر أراعي ألا أكون في مقدمة الخارجين، وإنما أتقهقر إلى الخلف ممسكة بذيل ثوب من يسير أمامي؛ لتقيني بطش هذه الأشباح والكائنات المخيفة، متوقعة في كل خطوة أن تمتد إلى مخالب المجهول المحتمى بعتمة الليل.

ورغم الرعب الذي كان يلفني في طياته من هذه القوى المجهولة مع حلول الظلام، فإن متعتي الكبرى والتي كانت تمتزج بقدر من الرعب الهائل، كانت تتمثل في الالتفاف مع أخوتي حول جدتي لأبي أحيانا، أو حول مربيتنا التي جاءت إلى بيتنا قبل مولدي بسنوات، وذلك بعد رحلة طويلة من المحايلة والتوسل والرجاء؛ لتقص علينا **قصص الجنية أم الشعور، أو جنية البحور، أو أمنا الغولة والأمير المسحور**، حيث أنسى تماما وسط انبهاري واستغراقي في متابعة هذه الحواديت كل ألوان معاناتي في الليالي السابقة.

كنت لا أكاد آوي إلى الفراش وقبل أن تطفىء أمي أو مربيتنا المصباح الكهربائي للحجرة التي يشاركني فيها بعض أخواتي، حتى أسارع بشد الغطاء على رأسي حتى في ليالي الصيف الحارة، لأحول بيني وبين عالم الحجرة الغامض المغرق في السواد والملىء بالأسرار، وتنتابني حالة من الترقب المفزع وأنا أتكور في فراشي؛ خوفا من تلك العفاريت والشياطين التي سوف تتسلل حتما من نافذة الحجرة التي تطل على الحديقة، وأتوقع بين لحظة وأخرى وقد ملأني الرعب أن تمتد الأيدي المجهولة من أستار الظلمة المحيطة بي لتجذب طرف الغطاء عن وجهي.

وبينما تمتلىء أذناي بهمهمات باهتة وهمس غامض يملأ فراغ الغرفة ويختلط بدقات قلبي المتسارعة، تمتد يدي في هلع وترقب بعد برهة لترفع جانبا صغيرا من الغطاء عن وجهي.

وبنظرة سريعة متلصصة تمسح عيناي عتمة الحجرة المخيفة، وأسارع وقد ملأني الفزع بسحب الغطاء على وجهي وأنا أتشبث بأطرافه بكلتا يدي اللتين تجمدتا من الرعب، **قبل أن تمتد إليّ مخالب الكائنات المرعبة التي تضج بها الغرفة**. وعندما تستطيل اللحظات دون أن يحدث ما أخشاه، أعود مرة أخرى لأختلس نظرة سريعة وخاطفة لعالم الحجرة الغامض لأرقب في فزع وتوجس تلك الخيالات والأشباح التي تتراقص وتتواثب على

جدران الغرفة ، والتي لم تكن سوى ظلال فروع الأشجار التي يتلاعب بها الهواء في حركة دائبة وراقصة ، وقد تسللت من خلال خصاص النافذة المطلة على الحديقة ، والتي كانت تشكل لعيني أشكالا مرعبة من الشياطين والمردة والعفاريت .

وأسارع مرة أخرى بجذب الغطاء على رأسي وقد أغمضت عيني بشدة لدرجة تصل إلى حد الألم ، وأحكمت قبضتي على هذا الغطاء بكل ما في يدي من قوة أحتمي به من هذه الكائنات المعربدة الشيطانية المرعبة التي تضج بها الغرفة ، ثم يغالب سلطان النوم مخاوفي وينتشلني فجأة ودون أن أشعر من عالم الليل البغيض .

* * *

ويأتي الصباح ككل صباح جديد ، لا مكان فيه لأرواح أو لأشباح ، ولا مساحة فيه لأية مخاوف أو هواجس ، وإنما مزيد من المطاردة لجدتي ومربيتي من أجل مزيد من الحواديت عن الجن والعفاريت ، ورغبة متجددة في الدخول إلى عالم جديد من تلك العوالم الخرافية الأسطورية المبهرة ، وشوق ليس له حدود لمعرفة أوصاف الجن والعفاريت والشياطين والمردة ، وأقارن بين هذه الأوصاف وأوصاف ذلك المارد الآدمي الذي طالما رأيته وقد انشقت الأرض عنه فجأة من قلب الصحراء القريبة كلما ذهبت مع أصدقائي وأخوتي الصغار لنلعب بجوار الشريط الحديدي لقطار البضاعة المتجه من جنوب حلوان إلى القاهرة ، حيث كنا نقضي الساعات في مباريات محمومة للقفز على الفلنكات المتباعدة دون أن تلمس أقدامنا الأرض .

كان هذا المارد زنجيا عملاقا ذا بشرة سوداء حالكة ، وشفاه كبيرة غليظة يختلط لونها من الداخل بلون لثته الوردي ، وأنف أفطس ذي فتحتين واسعتين نائمتين على خديه المشروطتين بتلك الشروط الغائرة الحالكة السواد ، وعينين ضيقتين قاسيتين شديدتي الاحمرار ، وشعر أبيض كثيف مجعد يضاعف من حجم رأسه ويضيف ارتفاعا مهيبا إلى قامته العملاقة المنتصبة على ظهر جمله الضخم .

وما كنا نكاد نلمح ذلك المارد وهو مقبل علينا ، وقد رفع السوط في يده مهددا إيانا بالعقاب للعبنا على شريط السكة الحديدية ، حتى كنا ندخل جميعا وفي توقيت واحد في سباق ماراثوني محموم مبتعدين بكل ما في سيقاننا من قوة عن رمال صحرائه ، ولا نتوقف عن الجري ولو للحظة واحدة حتى نغلق بإحكام وراءنا باب بيتنا الحديدي ، ثم نقف خلف قضبانه نتطلع في زهو وانتصار إلى الصحراء حيث خلفنا وراءنا ذلك

المارد المخيف، ونحن نرى شبحه على ظهر الجمل وهو يتضاءل ويتوارى مبتعدا فى جوف الصحراء.

كان ذلك المارد الأسود الذى طالما طاردنا وهو يلوح بكرباجه فى الهواء لخروجنا عن النظام هو **عسكرى الهجانة**، الذى كان مرآه فى طفولتى يبث الرعب فى قلبى الصغير والذى ما زال شبحه المهيب ينتصب دوما أمام عينى منبعثا من طيات الماضى الدابر كلما وقعت عيناى على شريط أى سكة حديدية، ذلك الشبح الذى أخذت على يديه أول دروس الحياة.

هذا هو شكل العفريت الذى كنت أعرفه وأنا لم أتجاوز الخامسة من عمرى، إذ إن تفاصيل الحواديت لم تكن تشبع جوانب حب الاستطلاع المتزايد داخلى عن هذا العالم الغامض اللامرئى، ولذلك كانت لى محاولاتى، وكانت لى اجتهاداتى، وكان لى مكانى المفضل الذى ألجأ إليه وأنا أحتمى بضوء النهار انتظارا لظهور العفريت، أى عفريت.

كان فراش أمى المرتفع ذو الأعمدة المعدنية هو الفراش الوحيد فى البيت الذى كان يسمح لى بالجلوس أسفله وأنا منتصبة القامة دون أن يصطدم رأسى بألواحه الخشبية، كان هذا هو صومعتى التى أعتكف فيها بالساعات وقد حجبتنى ملاءته المدلاة على الجانبين عن مجال رؤية الآخرين من سكان البيت، وأظل وقد لف الحجرة الصمت والسكون أهمس فى وجل بين فينة وأخرى مستعينة بإحدى الجمل التى تتكرر فى الحواديت.

ـ أقسمت عليك بحق سليمان أن تظهر وتبان وعليك الأمان.

وتمر الساعات ولا يظهر العفريت.

وتمر الأيام ولا تبان الجان.

وتمر السنوات وتتحول تساؤلاتى الطفولية عن عالم الغيبيات واللامرئيات إلى منحنيات جديدة.

فى انتظار رسالة من الله

كان أبي شديد التقوى، شديد الصرامة في معاملته لنا. وكنت فى نحو السادسة من عمرى عندما بدأت أتسلل مخالفة بذلك أوامره إلى الكنيسة التى كانت تقع خلف منزلنا.

فقد حدث أن أخذتنا أقدامنا فى أثناء لهونا أنا ومجموعة من الأطفال إلى ناصية شارعنا، حيث اختطف كل انتباهنا فجأة وصول عدد من السيارات وعربات الحنطور وقد توقفت أمام الكنيسة، ونزل منها عدد كبير من الأفراد على مختلف أعمارهم فى ملابسهم الأنيقة الزاهية، الذين سرعان ما التفوا حول فتاة جميلة فى ثياب العرس البيضاء متجهين إلى باب الكنيسة الخارجى، بينما تعالت الزغاريد وكلمات التحيات والتهانى.

وأسرعت أقدامنا الصغيرة تتسابق للفرجة على هذا المهرجان أو «المولد» الذى أضاف نوعا جديداً من الإثارة إلى حينا الهادئ، وانحشرنا بين جموع المدعوين نزاحمهم ونسابقهم إلى الداخل، واستغرقتنى مراسم العرس الاحتفالية بطقوسها الساحرة من الموسيقى والشموع التى اختلطت بالورود والملابس الهفهافة. وتسمرت قدماى وأنا أرقب فى خوف وعجب القساوسة فى ملابسهم السوداء والفضفاضة الغريبة ولحاهم الكثيفة الطويلة، وأخذت أتنقل بعينى وقدمى بين أرجاء الكنيسة الواسعة، وأنا أرى لأول مرة صور وتماثيل السيدة العذراء وهى تحمل وليدها وصور القديسين والحواريين.

وأفقت فجأة على يد مربيتى تخطفنى من ذراعى وتجرجرنى إلى البيت، وقد تعالى صراخى لحرمانى من الاستمتاع بهذه الليلة الفريدة التى كسرت حاجز الرتابة والسكون الذى يلف شوارعنا الهادئة.

وجاءنى صوت أبى الغاضب وكأنه يتحدث إلى شخص آخر ـ فقد كانت روحى تحلق بين ألوان الفساتين وبريق الأضواء والموسيقى ـ وهو يصدر فرمانه بعدم تغيبى مرة

أخرى عن البيت دون علم أمي ، ويعدم الذهاب مرة أخرى إلى الكنيسة ، ويهددني بالضرب إذا خالفت هذه الأوامر .

وكان انبهاري وإعجابي بجو الأفراح والاحتفالات أقوى من خوفي من عقاب أبي ، فما من مرة ذهبت لشراء حلوى أو أي شيء لأمي من ذلك الدكان الصغير ، الذي كان عليّ أن أمر بباب الكنيسة لأصل إليه ، وما من مرة مررت أمام الكنيسة في الأيام التي كانت تقام فيها الأفراح وبعد أن أقف لعدة دقائق أراقب جموع المترددين على الكنيسة ، إلا وأجد قدمي المتمردتين تقوداني إلى الداخل ، وأغرق بين طيات الملابس الجميلة ، ونغمات الموسيقى وأضواء الثريات والشموع ، وأقع في شبه غيبوبة تحجب عني مدى قلق أبوي لغيابي الطويل .

وأستفيق فجأة من غيبوبتي ، وقد امتدت يد مربيتي تقبض على ذراعي في عنف تجرجرني وتسحبني وتدفعني .

ويطالعني وجه أبي الغاضب ، وتنسكب كلماته الهادرة الثائرة في ركبتي المرتعشتين ، ويتلقف العصا من يد أحد أخوتي ، ويتعاون الجميع صغاراً وكباراً في طرحي على الفراش أو أحد المقاعد ، ويمسكون بكلتا قدمي ليقيدوا حركتي ، ويرفعانهما في الهواء حتى يكادوا أن «يشقلبوني» ؛ لأتلقى على باطن قدمي واحدة من تلك «العلق الساخنة» ، وأبالغ في الصراخ بأعلى صوتي رغم عدم قسوة الضربات وأنا أردد :

ـ حرمت يا بابا ، آخر مرة يا بابا ، مش حاروح أفراح تاني يا بابا .

* * *

ولم «أحرم» ، ولم تكن آخر مرة ، ورحت أفراح الكنيسة مرة بعد أخرى ونالني الكثير من «العلق الساخنة» واحدة بعد الأخرى ، حتى انتقلنا من بيتنا إلى بيت آخر لا تقع خلفه كنيسة ، ولكن يقع أمامه جامع .

بين كل علقة وأخرى كانت نية التوبة صادقة ، وكنت أقسم بيني وبين نفسي في كل مرة ألا تتجاوز قدماى عتبة الكنيسة مرة أخرى ، ولكن يبدو أن قدمي الصغيرتين كانتا تنسيان «العلق» وتأخذاني إلى العالم المسحور المليء بالألوان والأضواء والموسيقى وفساتين العرائس البيضاء .

وأدخلني الخروج على الأوامر ، وأدخلتني «العلق الساخنة» في حوارات كثيرة مع أبي وانتهت بتساؤلات أكثر أخذت تتعالى داخلي .

ـ لماذا أكون مسلمة وتكون صديقتى إيلين التى تجلس معى فى «تختة» واحدة مسيحية؟

ـ ولماذا أحب إيلين وتحبنى رغم أننى مسلمة ورغم أنها مسيحية؟

وحاول أبى كثيرا أن يشرح لى لماذا نذهب نحن إلى الجامع، وتذهب إيلين إلى الكنيسة، ولم تتسع سنوات عمرى الست لكل ما كان يقوله أبى، ولكنها اتسعت لكراهية اليهود الذين عذبوا المسيح عليه السلام رغم حبى لنبى الله موسى عليه السلام، كما اتسعت لحب السيدة مريم التى فضلها الله فى قرآننا الكريم على نساء العالمين، ولابنها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ولمعجزاته المبهرة، بنفس القدر الذى اتسعت به لحب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأنبياء الله الصالحين عليهم السلام.

ولم يتسع صدر أبى لمحاوراتى وتساؤلاتى التى كانت تنهمر من بين شفتى، ويلفنى الأسى فى طياته وأنا أبتلع أسئلتى عن الميلاد، والموت، والبعث، والثواب والعقاب.

وينشط خيالى الطفولى للإجابة عن تساؤلاتى اللاطفولية؛ فتجرجرنى خيالاتى ووراءها قدماى الصغيرتان بعد كل علقة إلى صومعتى، إلى قوقعتى، فأتسلل أسفل سرير أمى، **وأتربع هناك فى صمت وخشوع، أنتظر رغم عدم قدرتى على فك الخط رسالة** من الله!

كانت خيالاتى تجسد الله فى صورة آدمى كبير الحجم ذى رأس وجذع وأذرع وسيقان، يمتد جسده فى الفضاء اللامرئى من حلوان وحتى مدينة رأس البر وهى أبعد الأماكن التى كنت أعرفها، وأن رأسه الضخم بعينيه الكبيرتين ترتكز أعلى بيتنا فى ذلك الفضاء اللامرئى.

وأسفل سرير أمى كنت أشعر أننى أكثر قربا إلى الله وأتربع وقد وضعت كفى على ركبتى فى خشوع وتتمتم شفتاى بأسئلتى اللاطفولية وأدور بعينى فى كل شبر أسفل السرير وأفتش عن رسالة الله.

وتمضى الدقائق ولا تصل رسالة الله.

ويرتفع صوتى قليلا بنفس الأسئلة وبلهجة أكثر استرحاما وتوسلا.

وتمضى الدقائق ولا تصل رسالة الله.

وتتكرر المحاولات وينتابنى الملل واليأس وتشدنى أصوات أخوتى أو أطفال الجيران

وهم يلعبون فى الحديقة أو الشارع المقابل للبيت ، وأزحف خارجة من أسفل سرير أمى لأشارك باقى الأطفال ألعابهم ، وأنسى مؤقتا الرسالة التى كنت أنتظرها من الله .

وأعود أتذكرها وأترقبها مرة أخرى بعد «العلقة» التالية.

* * *

علمنى نصيبى الكبير من «العلق» التى كنت أعتبرها «علقا ساخنة» لا أستحقها أن أدر حواراتى بينى وبين نفسى ، فحوارى مع الآخرين وأبى على وجه الخصوص ، وتساؤلاتى عن الله والخلق والجنة والنار والكنيسة والجامع ظلت بلا إجابات مقنعة أو مشبعة إلى أن تعلمت القراءة ، وبدأت أقلب فى الصفحات عن إجابات تساؤلاتى التى لم ولن تنتهى .

عفاريت بيتنا الجديد

كان بيتنا الذى انتقلنا إليه فى العام نفسه الذى قامت فيه ثورة ١٩٥٢ يقع فى أقصى شرق حلوان، أمام الحديقة اليابانية مباشرة، وفى مواجهة ذلك المسجد المتواضع الذى كان يعد جزءا من الحديقة، والذى لم يكن يزيد عن كونه مجرد زاوية صغيرة فى ذلك الزمن البعيد، وحيث تمتد الحديقة شرقا حتى مستشفى حلوان العام ومستشفى الأمراض المستعصية بمبانيهما القديمة العملاقة، التى تربض على بعد أمتار من بيتنا الجديد مطلة من فوق هضبة الجبل الشرقية على مدينة حلوان بأكملها.

ولم يكن يفصلنا عن الجبل الشرقى للمدينة إلا بيتان يليهما ذلك القصر القديم الذى كان يسكنه فى ذلك الوقت أسرة المرحوم الشيخ عبد اللطيف دراز، والذى يحد جبهته الشرقية سور حديقته الحجرى المرتفع، الذى تبدأ بعده مباشرة الصحراء الشرقية بجبالها الموحشة التى تمتد حتى البحر الأحمر.

أما المنطقة التى تقع خلف شارعنا، فقد تناثر فيها عدد من البيوت الكبيرة والقصور القديمة ذات الحدائق الواسعة والأسوار الحجرية العالية، ومن بينها ذلك المبنى الشبيه بالقصر الذى كان يسكن فيه الشيخ رافع، أحد أحفاد رفاعة الطهطاوى، والذى يفصله سوره الحجرى المرتفع عن الجبل الشرقى وعن الجبل الشمالى، الذى يستقر أعلاه مرصد حلوان ومستشفى بهمان للأمراض العقلية، والتى كنا نسميها فى ذلك الوقت «مستشفى المجانين».

وكان منزلنا ومنزل آخر هما المنزلان الوحيدان الجديدان فى المنطقة والمكونان من ثلاثة طوابق، يسكن فى كل طابق منها أسرة من الأسر الوافدة على المنطقة، وهما ما كانا يعدان من البنايات الشاهقة فى ذلك العهد.

وعندما تركنا بيتنا القديم ظننت أننى قد تركت ورائى وإلى الأبد العفاريت والجن والشياطين الذين كانوا يسكنون حديقته، ولكننى اكتشفت أننا قد انتقلنا إلى عالم آخر تنوعت مصادر عفاريته وشياطينه.

ففى أمسيات الصيف الحارة وعندما كانت الأسرة جميعا تصعد إلى السطوح الذى يعلو شقتنا مباشرة لتستروح نسمات الليل المنعشة، كنت أراعى دائما وبعد أن يتخذ كل فرد مجلسه، ورغم «زقهم» لى ومحاولة زحزحتى عن مكانى أن «أنحشر» فى المكان الذى يكون فيه واحد منهم عن يمينى وآخر عن يسارى وثالث خلفى وربما رابع أمامى حيث أصنع بذلك منهم ساترا أو حائلا يحول بين الكائنات اللامرئية فى هذه المنطقة السكنية الجديدة وبينى.

وبينما تدور الأحاديث بين الجميع أنصرف أنا عنهم مع خيالاتى ومخاوفى وأوهامى، **وتتجسد لعينى صور الجنيات والعفاريت والشياطين التى تختفى فى طيات الظلمة الحالكة، التى تلف الحديقة اليابانية بمساحتها الشاسعة وتحيلها قطعة من السواد**، وأمرّ بعينى على هياكل البيوت الضخمة والقصور القديمة الغارقة فى الظلام. وتسرى فى جسدى رعدة راجفة وأنا أنكمش فى مكانى، حتى لا تلمحنى عيون الكائنات اللامرئية التى تتربص بى خلف النوافذ العالية المظلمة. وأرمى ببصرى إلى مبنى مستشفى الأمراض المستعصية الضخم الرهيب، وأتخيل أن عفاريت وأرواح من يموتون فيه يوميا تطل علينا من وراء كل نافذة هناك. وأمسح بعينى الجبال المحيطة القريبة وأنسج خيالاتى عن أعداد وأشكال المردة والشياطين التى تسكن كهوف الجبل ومنحنياته. **وترتعد فرائصى عندما تطالعنى على البعد وفوق قمة الجبل الأضواء الخافتة «لمستشفى المجانين»** وأنا أتخيل أن مجنونا أو أكثر قد استطاع أن يفر من المستشفى وينحدر إلينا من الجبل مستهدفا إياى بالذات.

وهكذا كانت ليالى طفولتى إلى أن أجدت القراءة.

* * *

بعد أن أصبحت قادرة إلى حد ما على القراءة لم أعد أتوقف عند حد الفرجة على الصور وقراءة العناوين فى مجلات وكتب الكبار، فقد أصبح لى إلى جانب كتبى المدرسية التى لم تكن تشبع تساؤلاتى وخيالاتى عدد ليس بالكثير من كتب الأطفال ولم أعد ألح أو «أتحايل» على جدتى أو مربيتى من أجل الحواديت، فقد أصبح لدى حواديتى الخاصة التى أقوم أنا بسردها على أطفال الأسرة والجيران، خليط من الحواديت التى سبق أن سمعتها وأجزاء من بعض القصص التى أقرؤها وجانب آخر كبير أقوم أنا باختراعه وتأليفه فورا

ويعفوية وأنا أقوم بسرد الحدوتة ، بل تمثيل مواقفهـا مستخدمـة نبرات صـوتى التى تتغير ارتفاعا وانخفاضا مع تغير تعبيرات وجهى تبعا لكل موقف من مواقـف الحدوتـة وتبلغ سـعـادتى أقـصـاها عندمـا أرى نظرات الأطفـال من حـولـى وهـى تتابعنى فـى شغـف وانبهار وترقب .

إلى أن كبرت فجأة .

فقد دخلت مدام مارى شكيب حياتى ، واقتحمت أنا الطفلة ذات الأعوام التسعة عالم السيدة العجوز التى تجاوزت المائة عام من عمرها .

صديقة طفولتى... الأميرة ذات المائة عام

كان شارعنا الأسفلتي الواسع الهادئ. . . الذى استقرت على جنباته أشجار الكافور السامقة لا تعرف أرضه ملمس السيارات إلا نادرا، فقد كانت عربات الحنطور هي وسيلة الانتقال الرئيسية في تلك الحقبة البعيدة.

وفي واحد من تلك الحناطير وفي شارعنا وعلى بعد بيتين من بيتنا غربا رأيتها لأول مرة.

كنت ألعب مع بعض الأطفال لعبة «الأولى» التي قمنا بتخطيطها بالطباشير في نهر الشارع الأسفلتي الأسود، عندما انتهى إلى سمعنا صوت فرقعة سوط حوذى العربة الحنطور، وقفزنا جميعا نحتمي من العربة بالرصيف ولنخلي الشارع لذلك الوحش القادم، وتعالت أصوات الأطفال في فرحة غامرة:

ـ المدام. . . المدام

واصطففنا جميعا لنشاهد المرأة العجوز وهي تحاول الهبوط في بطء ومشقة وأسرع الجميع إليها فيما عداى، وقد أسلموا أيديهم الصغيرة وأكتافهم الضئيلة لثقل جسدها المتهالك الذى كان عظما أكثر منه لحما، واستقرت قدماها أخيرا على أرض الرصيف.

* * *

كنت أعرف أن ذلك الباب الحديدى الضخم الذى توقفت العربة أمامه هو باب بيتها، فكثيرا ما مررت به في ذهابي إلى المدرسة وعودتي منها، وكثيرا ما وقفت أمام هذه البوابة الحديدية المغلقة، لأرى من خلال قضبانها أطلال قصر قديم قد استقر وسط فضاء واسع هائل ليس فيه سوى شجرة عملاقة وحيدة، وتفصله عن المباني المجاورة أسوار حجرية شديدة الارتفاع من جميع الجهات، وترتفع درجاته العريضة العديدة مفضية إلى شرفة واسعة يقع وسطها ذلك الباب الخشبي الضخم المفضي إلى داخل

القصر المليء بالخفايا والأسرار، والذى حيكت حوله وحول صاحبته الكثير من القصص والحكايات.

وأدارت السيدة العجوز عينيها الكليلتين ولمحتني وقد تجمدت في مكاني، وأشارت لي بإصبعها وهي تقول في لهجة عربية متكسرة.

ـ تعالى إنت يا بنت أنا مش شفتك قبل كده، إنت اسمك إيه؟

وأجبتها وأنا في حالة أقرب إلى الفزع، وأنا أختلس النظر إلى وجهها المليء بالأخاديد:

ـ أنا اسمي نادية، بابا محمد أفندي، وساكنين في الشقة اللي فوق دي وأشرت بإصبعي تجاه شقتنا وأنا أهم بالانصراف.

واستوقفتني السيدة العجوز في لهجة آمرة، وهي تفتح البوابة الحديدية قائلة:

ـ استنى يا بنت، مش تمشي، تعالى مع الأولاد عشان تاخد ملبس.

وتتبعتها وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى وتسابق الأطفال في صخب داخل القصر المظلم المقبض، واصطفوا في أدب داخل الصالة شبه العارية من الأثاث في انتظار دورهم لأخذ الحلوى، بينما انصرفت أنا عنهم وعن حلواهم عندما استلفت نظرى على مائدة في أحد الأركان القريبة كتاب كبير، واقتربت من المائدة وأنا أتطلع إلى غلافه الملون وعنوانه المثير «جاليفر في بلاد العمالقة» وامتدت يدى تقلب صفحاته برسوماته المثيرة، واستغرقتني التفاصيل المصورة الجميلة، عندما أفزعني صوتها وهي تهتف بي قائلة:

ـ إنت يا بنت نادية، إنت تعرف تقرأ كويس؟

وأسرعت أجيبها في تهيب ممزوج بالثقة.

ـ أنا باقرأ كويس قوى، وبأحب القصص قوى.

وأشارت بيدها إلى باقي الأطفال، وقالت وهي تتجه ناحيتي:

ـ يا للا أولاد، روحوا بيت بتاع إنتو. . إنت نادية، خليك عندى سويه أنا عايزك.

ولم أخف من وجودى معها بمفردنا بعد أن انصرف باقي الأطفال. كان إعجابي بالكتاب ذى الصور الملونة الذى أمسكت به بكلتا يدى أقوى من خوفي من مظهرها الذى يبدو أقرب إلى الأشباح والمخلوقات الغريبة بانحناءة ظهرها وبجسدها النحيل الدقيق

الهش، وأخاديد وغضون وجهها الذى ما زال فيه بقايا من جمال غابر، واستوقفنى لون عينيها الخضراوين الشاحبتين، كما استوقفتنى تلك الشعيرات البيضاء الطويلة المتناثرة التي نبتت فى ذقنها بدلا من أن تنبت فى جفنيها الخاليين من أى أثر للرموش. ومسحت بعينى على الآثار الباقية من شعرها الأبيض الثلجى الناعم المندوف الذى علا رأسها وأحاط بوجهها الشاحب.

ومدت يدها إلى وهى تسحبنى وراءها فى عطف ورقة وهى تقول:

ـ تعالى. إنت مس تخاف. إنت تاخد كتب كثير كثير... تعالى ورايا.

وجرجرتنى وراءها فى دهليز طويل مظلم ينتهى بدرجات عديدة تؤدى إلى «البدروم» المعتم ذى النوافذ المغلقة التى تنبعث منه رائحة السنين، ومررنا بعدة أبواب مغلقة إلى أن فتحت أحدها، ودخلت ودخلت وراءها.. دخلت إلى الحجرة السحرية.

ورأيت ما لم أكن قد رأيته من قبل.

أكداسا وأكواما من قصص الأطفال باللغة العربية والفرنسية قد صفت على الأرض فى حزم كبيرة مليئة كلها بألوان زاهية وصور كثيرة جميلة مثيرة.

فى هذه الحجرة عثرت على الكنز المفقود، الكنز الذى أشبع خيالاتى المبكرة وأشبع نهمى للمعرفة، مغامرات جلفر كلها، بينوكيو، دون كيشوت، سندريلا، أليس فى بلاد العجائب... و... و...

* * *

وأحببتها...

أحببت هذه السيدة العجوز.

أصبحت أفضّل صحبتها على صحبة أصدقائى من الأطفال خلال السنتين التاليتين وكلما سمحت لى أمى بالذهاب إليها.

وظللت معها حتى ماتت بعد أن احتفلت بعيد ميلادها الرابع بعد المائة...

* * *

ماتت، ولكنها لم تمت بالنسبة لى.

فقد ظلت تحيا معي وأمامي وفي خيالي ما تلا ذلك من سنوات.

حتى قابلتها مرة أخرى بعد ذلك بحوالى أربعين عاما في لندن.

معذرة، لم تكن التي قابلتها هي مدام «ماري شكيب»، ولكنها صورة أخرى منها تصغرها بنحو عشرين عاما، «مسز ديفني» تلك العجوز الإنجليزية التي استحضر الأرواح لإجراء عملية جراحية لي في المخ، وكانت المرة الثانية في حياتي فيها في حب امرأة.

ولم أنعم بذلك الحب طويلا.

فقد ماتت هي الأخرى، قُتلت!

ويعزيني أنني أعرف مكان قبرها هناك.

وللحديث بقية.

* * *

كانت «مدام ماري شكيب» وهذا هو اسمها، أميرة ألمانية، وقعت في غرام مصري من عائلة شكيب باشا وتزوجته، وعادت لتعيش معه في مصر في أواخر التاسع عشر وحتى وفاته، ولم يترك لها إلا دخلا ضئيلا وذلك القصر الكبير الذي علي ألا تغادره إلا إلى قبرها.

وربطتني بها صداقة غريبة، وحب خالص صاف، ونوع من التفاهم والتقارب الغرابة، تارة تنزل إلى مستوى عمري الذي لم يتعد السنوات التسع، وتارة أسرت عمرها الذي تعدى مائة عام.

وتركتني - وربما أكون الوحيدة - أعبث بأشيائها، وأفتح صناديقها الخشبية المحلاة بأحزمة ومقابض حديدية، وأخرج ما في بطونها من الملابس التي حملت السنين الطويلة، وبهتت ألوانها واهترأ نسيجها وإن كانت لا تزال تحمل آثار وعز غابر.

كانت تجلس على مقعدها الهزاز في غرفة نومها تبتسم لي في تسامح ورضى و وأنا أستعرض محتويات صناديقها: فساتين سهرة من الشيفون والحرير الهندي والمخرمات، قفازات من الحرير والساتان تصل إلى ما بعد الكوع، أوشحة بطرز

مختلفة كانت ترتديها فوق ثيابها في المناسبات الرسمية عندما كانت أميرة، أحذية من القماش الفاخر يناسب كل منها واحدا من فساتينها، أشياء . . . وأشياء . . . وأشياء . . .

أدخلتني عالمها الملكي وشاركتها تصرفاتها وسلوكياتها كأميرة أرستقراطية، وعشت معها ذكريات الأميرة التي فضلت حياة الحب عن حياة القصور الملكية .

* * *

واحتفلنا بعيد ميلادها الرابع بعد المائة، كنا كلنا أطفالا عدا سيدتين جميلتين أنيقتين من أقارب زوجها نظرتا إلينا بقرف وتأفف، وجلستا باستعلاء بعيدا عنا وقد وضعتا سيقانهما الجميلة الواحدة فوق الأخرى، وانصرفتا بعد لحظات قصيرة وكأنهما تنفضان عن كاهلهما واجبا ثقيلا .

وعرفت بعد ذلك أنهما الفنانتان **ميمي شكيب وزوزو شكيب**، وكانت المرة الأولى التي أراهما فيها وكذلك المرة الأخيرة .

* * *

وذهبت إليها بعد يومين وطرقت الباب .

لم يطل عليّ وجهها العزيز من شراعة الباب الخشبي كالعادة، وطالعني الوجه الأسود للمرأة الزنجية العجوز التي كانت تقوم على خدمتها أحيانا .

وترامى لي صوتها واهنا خافتا من حجرة نومها تنادي قائلة في شكوى وأنين :

ـ ادخل نادية، تعالى نادية، إنته فين نادية، أنا عيان، أنا مكسور . . .

ورأيتها . . .

جسمها الضئيل تائه في ذلك الفراش العريض، وجهها ملائكي رغم السنين ورغم الغضون، ولمست لأول مرة وجنتيها المجعدتين بشفتي . ووجدتها تلف حولي ذراعيها وتلصقني بصدرها في قوة لم أعهدها فيها من قبل، وشعرت بارتجاف جسدها . وأدركت أنها تبكي .

وبكيت معها ومن أجلها.

* * *

وتفرغت لها الشهور الثلاثة التالية تقريبا . أمر عليها بعد عودتي من المدرسة ، وما إن تراني وتطمئن إلى أنني استقررت في مقعدها الهزاز بجوار الفراش ، وقد انشغلت بواجباتي المدرسية ، حتى تسروح في سبات عميق ، وما إن تستيقظ وتفتح عينيها وتراني بقربها ، حتى تمنحني ابتسامة حانية مؤثرة ، وتغمض عينيها وتمضي في إغفاءة أخرى عميقة .

وعلمت من أمي أن الكسور لا تلتئم بالنسبة لكبار السن خاصة في منطقة الحوض وأن سجن الفراش لن يعقبه سوى سجن القبر ، وتعودت أن أقرأ لها كل ما كان يصل إلى يدي ، وكانت تصغى إليّ وأنا أقرأ لها ما أحفظه من قرآن رغم أنها مسيحية ، حتى يشفيها الله .

وحملت لها أفضل ما كانت تطبخه أمي ، وتعلمت أن آنس للفئران الصغيرة وهي تدور في أرجاء الغرفة وتمرح فوق قطع الأثاث وأنا في انتظار انتهائها من إغفاءاتها .

ولم أعد أخاف المجهول واللامرئي .

ولم أعد أخاف الجن والعفاريت والشياطين وأنا أتجول في أنحاء القصر المظلم المهجور، فقد علمتني ألا أخاف، كما علمتني الأميرة العجوز أشياء... وأشياء... وأشياء...

* * *

وجاء الصيف ، وسافرت مع أسرتي لمدة أسبوعين إلى قرية أبي وإلى رأس البر . وعدت وكلي لهفة لها ، ولم تكن هناك .

انتقلت من سجن الفراش إلى سجن القبر...

ووقفت أمام البوابة الحديدية للقصر الخالي المهجور... وبكيت.

* * *

والآن ، وبعد مرور كل تلك السنين ، وكلما ذهبت لزيارة أمي في حلوان أتوقف للحظات أمام بوابة قصرها الضخمة ، الأثر الوحيد الباقي أمام زحف السنين ، فقد اختفى القصر ، اغتالته أيد خفية . لم يبق منه سوى تلك الأرض الفضاء الخربة الشاسعة المحاطة بالأسوار الحجرية العالية من كل جانب .

من الذى قام بهدم هذا القصر؟ لست أدرى.

من الذى يمتلك تلك الأرض الآن؟ لا يهمنى من يكون.

فقط يهمنى أن أقول:

رغم أنها ذهبت ولن تعود...

ورغم أنهم هدموا الجدران التى شهدت جانبا عزيزا من رحلة طفولتى، **فلا زالت السيدة العجوز وذكريات قصرها العتيق يعيشان بداخلى.**

خطوة إلى عالم الروح

كان يوم الجمعة هو يومى المفضل لزيارتها .

شدتنى تلك الظاهرة التى كانت تتكرر فى بيتهم أسبوعيا والتى كنت أشاهدها على البعد ، دون أن يسمح لى أحد بالاشتراك فيها أو يتيسر لى من يشرحها ويفسرها لى .

كان بيتها الذى لا يفصله عن الجبل الشرقى والجبل الشمالى فى حلوان سوى ذلك السور الحجرى المرتفع نموذجا للقصور أو البيوت الكبيرة التى كان يسكنها أصحاب الأصول العريقة من الأثرياء والباشوات . وكانت فى مثل سنى ومعى فى نفس المدرسة الابتدائية ، وكان أبوها رحمه الله هو **الشيخ رافع أحد أحفاد رفاعة الطهطاوى** .

كان طويل القامة ، مهيب الطلعة ، لم أره ولو لمرة واحدة إلا فى ملابس الأزهرية التقليدية .

كنت لا أراه إلا يوم الجمعة وبعد صلاة الظهر مباشرة ، يقبل دائما بين ركب من الشيوخ والأفندية يصل أحيانا إلى نحو العشرين رجلا قادمين من المسجد ليقطعوا علينا ألعابنا ولهونا .

كنا نتوقف جميعا عما كنا فيه ، ويصطف جانبا سائر الأطفال الموجودين من أبنائه أو أصدقائهم ؛ ليفسحوا لهم الطريق وهم يشقون طرقات الحديقة فى طريقهم إلى السلم الرئيسى للبيت ، إلا أنا .

فما كانوا يكادون ينتهون من ارتقاء السلم العريض بدرجاته القليلة ، إلا وأكون قد اندسست وسطهم ، وأتوه بقامتى القصيرة وجسدى الصغير بين طوفانهم ، وهم يخترقون الشرفة الرحبة بسورها المنخفض ذى الأعمدة المزخرفة ؛ قاصدين حجرة الضيوف المليئة بالأسرار ذات المدخل المتصل بالشرفة .

وفى كل مرة ، وعندما كنت أوشك أن أنجح فى التسلل إلى داخل الحجرة ، كانت تمتد

إليّ يد الشيخ رافع من حيث لا أدري؛ ليستوقفني في حزم مغلف بالحنان وهو يقول في رقة:

ـ روحي العبي مع الأولاد يا شاطرة.

* * *

قالت لي ابنته في أول مرة رأيتهم يختفون فيها وراء باب الحجرة المغلق، إنهم يحضرون الأرواح.

وقالت لي أمي: بلاش كفر، مافيش حاجة اسمها أرواح، ولا في جن ولا عفاريت.

وقال لي أبي: جاء في القرآن «ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي».

وتاه عقلي الصغير بين الشيخ رافع، وبين أمي وبين أبي.

ومثلما أردت أن أتعرف على عالم الجن والعفاريت وأنا في الخامسة، ازدادت رغبتي في التعرف على عالم الأرواح وأنا في العاشرة.

وحاولت... وحاولت...

كنت أعرف أن خادم الأسرة العجوز يقدم المشروبات للمجتمعين داخل الحجرة، بين وقت وآخر من خلال باب حجرة الضيوف الداخلي المفضي إلى صالة البيت الرئيسية.

وأدخل أعرض عليه خدماتي وأنا أدعي الشهامة وأنا أقول:

ـ يا عم محمد، اقعد إنته استريح، وأنا حأدخل القهوة، ما تخافش، والله العظيم أنا باعرف أشيل الصينية.

ويشير لي بيده رافضا دون أن ينطق، وأظل أحوم حوله، وما إن يفتح الباب؛ حتى تسبقني رأسي وبسرعة البرق داخل الحجرة؛ عسى أن أرى روحا من الأرواح وقد تربعت على أحد المقاعد بين الحاضرين.

ويصفق عم محمد الباب في وجهي بمجرد دخوله الحجرة، وأنجح دائما في الارتداد بسرعة الصاروخ؛ لأنقذ وجهي من هذا الباب اللعين.

ولم أكن أيأس...

كنت أعود مرة أخرى إلى الشرفة الخارجية، وأضع أذني على باب الحجرة المغلق؛ عسى أن تكون أصوات الأرواح أكثر تميزا من أصوات الآدميين؛ فتلتقط أذناي بعضا مما يقولونه، وفشلت.

ولم أكن أيأس...

فما أن يغادر المجتمعون تلك الحجرة الغامضة؛ حتى أتسلل إليها في غفلة من عم محمد؛ أملا أن تكون هناك روح قد «تلكعت» في الانصراف.

وخيبت الأرواح ظني، فلم «تتلكع» أي منها، ولم يسعدني الحظ آنذاك برؤيتها أو التعامل معها، أو التعرف على عالمها.

ولكن كان ذلك إلى حين، فأنا لا أعرف اليأس.

حدث أن تعرفت على بعض جوانب عالمها، بل تعاملت معها.

هل هي أرواح حقا؟

هل هي كائنات أخرى لا مرئية؟

لست أدري.

* * *

كنت في نحو السادسة عشرة من عمري عندما نجحت في تحضير الأرواح بعد قراءتي لواحد من مقالات «أنيس منصور» عن كيفية استحضارها.

نعم، اتصلت بالأرواح، ودارت بيننا حوارات طويلة وشيقة.

كانت لي معهم أيام، وكانت لي معهم صولات وجولات.

وفي يوم أسود، توقفت فجأة عن استحضارها... عندما أصرت الروح أن تقتلني بالسم.

وللحديث بقية...

مكتبتى الصغيرة... حبى الكبير

نعم أرادت الأرواح أن تقتلنى بالسم عندما تمردت على أوامرها .

لم يكن موقفى من الأرواح أول مواقف التمرد فى حياتى ، ولم يكن آخرها .

وكان تمردى على أبى ، ثم على أمى ، وأخى الذى حاول أن يلبس ثياب أبى حلقة من هذه الحلقات . . . حلقات التمرد التى لم تنته ، وحتى كتابة هذه السطور .

* * *

رغم ولعى بالقراءة بكل أشكالها ومناحيها ، والذى بدأته مع بداية قدرتى على فك الخط ، إلا أننى لم أنعم من جانب أفراد أسرتى بوجود من يهتم بما أقرأ أو لمن أقرأ .

ولم يكن يبارينى فى القراءة ممن هم فى مثل سنى سوى شخص واحد استطاع أن يتفوق علىّ فى كم ونوعية الكتب التى نقرؤها ، والتى تتفق مع أعمارنا التى لم تكن تتجاوز الثالثة عشرة .

كان هذا الشخص هو «على» أصغر أبناء الشيخ حسنين مخلوف ، ابن الجيران الذى أصبح مهندسًا فيما بعد .

كنت أحسده ، ففى منزله رأيت أجمل مكتبة وقعت عليها عيناى آنذاك والتى لم أر مثيلاً لها فى أى بيت من البيوت التى سبق أن دخلتها ، حتى بيت الشيخ عبد اللطيف دراز الذى يلى بيت الشيخ مخلوف مباشرة ، والذى كانت مكتبته لا تعطى حيزًا كبيرًا لكتب أمثالنا من الصغار .

وكان «على» «يحن» علىّ أحيانًا ويقرضنى بتأفف «وقرف» بعض الكتب ليتخلص من إلحاحى ومطاردتى له ، فقد كان لا يعجبه انشغالى بالكتب والقراءة التى هى من نصيب واختصاص الصبيان والرجال ، فى الوقت الذى كان علىّ فيه «كبنت» أن أهتم باللعب بالعرائس وشغل البيت .

* * *

شجعني أبي على القراءة في البداية، ثم بدأ يخاف عليّ منها.

لم أكن أترك شيئًا مكتوبًا يمر أمام عيني دون أن أقرأه.

ولم تكن بقع الزيت الداكنة التي تملأ ورق الجرائد أو الكتب الذي كانت تلف به أقراص الطعمية آنذاك تمنعني من اختطافها لقراءتها حتى بعد إلقائها في سلة القمامة.

وتمردت كثيراً على تعليمات أبي، فقد كان يسمح لي بالقراءة فقط أيام إجازة الصيف، أما باقي أيام السنة فقد كانت للكتب المدرسية.

كانت أمي تقوم مع بداية العام الدراسي بتخزين كتبي وقصصي الكثيرة في صناديق كرتونية تحتفظ بها في حجرة نومها. ومع الانتهاء مع آخر امتحان يتم الإفراج عن هذه الكتب؛ لأقوم برصها بعناية وترتيبها حسب موضوعاتها في حجرة البنات، وكانت «**خناقاتي**» مع أخوتي تدور دائمًا حول المساحات الكبيرة التي تحتلها مقتنياتي «**الغالية**» من الكتب، والتي تجور على المساحات المخصصة لأشيائهم. وبلغ ضيق أخوتي بكتبي أن دبروا لي مكيدة تزعمتها إحدى قريباتي، والتي لم تكن راضية عن انكفائي على كتبي ليلاً ونهارًا في أثناء إجازة الصيف.

* * *

فوجئت عند عودتي يومًا إلى البيت بأن الأرفف التي رصصت فيها كتبي بعناية وتأنق وكأنني بائع «شاطر» قد خلت وأن كتبي قد اختفت... تلاشت، وانتابتني حالة من الفزع وأنا أصيح بأمي:

ـ ماما... ماما... كتبي راحت فين؟

وردت قريبتي في هدوء، بينما تجمع أخوتي وقد ارتسمت على وجوههم ابتسامات فشلوا في إخفائها، وهي تمد يدها لي بلفة كبيرة من النقود الورقية قائلة:

ـ بعناها لبتاع الروبابكيا خدي اشتري لك كام فستان.

وانتابتني حالة هستيرية من الهياج، وألقيت بالنقود لأبعد مكان على الأرض، وأنا أصرخ وأشد شعري «واتنطط» على الأرض كطفل صغير انتزعوا منه لعبته المفضلة رغم سنوات عمري الخمس عشرة وأخذت أردد في هياج:

ـ ماليش دعوة أنا عايزة كتبي، هاتوا لي كتبي، فين كتبي.

وجاء أبى على صوت صراخى ، ورأيته يبتسم واحدة من تلك الابتسامات القليلة وقال موجهًا كلامه للآخرين وبلهجة جادة :

ـ خلاص بقى يا جماعة ، يا للا يا أولاد طلعوا لها الكتب من تحت السرير .

اشتركوا جميعًا بما فيهم أبى فى تمثيلية كادت تدفعنى للجنون .

ومسحت دموعى ، ورصصت كتبى ؛ كنزى الغالى .

ولم تظل الكتب مكانها بعد ذلك طويلاً ، فقد تخليت عن كنزى بعد نحو عام .

بعت كتبى ، كل كتبى .

بعتها، واشتريت بثمنها نظرات السعادة التى كانت تقفز من عيون الأطفال المرضى، الذين سجنتهم أقدارهم بين جدران مستشفى الأمراض المستعصية.

وللحديث بقية.

ويبدأ مسلسل التمرد

كانت الأحكام العرفية التى كان يطبقها أبى بصرامة ودقة بالغين. تجتم التفافنا جميعًا أنا وأخوتى للمذاكرة بدءا من الساعة الخامسة بعد الظهر حول مائدة الطعام، المكان الوحيد الذى يتسع لنا ولكتبنا جميعًا لنكون تحت أبصار أبينا الذى كان يتمدد بالقرب منا على إحدى الأرائك، دون أن تشغله عن متابعتنا تلاوته في المصحف أو قراءته للجرائد.

وكان محرمًا على أى منا أن يغادر مكانه لأى سبب كان إلا إلى دورة المياه فقط.

وكنت أتمرد وأتحايل دائمًا على الأحكام العرفية.

ففى الأيام التى كان أبى يتابع فيها عن قرب ما أقوم باستذكاره كانت رحلتى إلى دورة المياه تتم كل خمس دقائق تقريبًا وربما أقل، فقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذى لا يستطيع أبى أو أى أحد آخر الاعتراض عليه أو حرمانى منه.

أما فى الأيام التى كان ينصرف فيها أبى عنى، فقد كنت لا أنصرف إلا إلى واحد من الكتابين المقررين كبيرى الحجم، حيث كنت أمسك بأى منهما وأرفعه بكلتا يدى أمام وجهى وأدس رأسى داخله، وكان أبى كثيراً ما ينظر إلى الكتاب الذى بين يدى وهو مستقر فى مكانه على الأريكة، ويعلق قائلاً:

ـ هوه إنتى ما بتذاكريش إلا التاريخ والجغرافيا؟

وأرد وأنا أتصنع البراءة:

ـ أصل دي مواد طويلة قوى وعايزه مذاكرة جامدة يا بابا.

وينصرف عنى أبى، وأنصرف أنا إلى كتابى، انصرف إلى التهام القصة أو الكتاب غير المدرسى الذى «حشرته» فى كتاب التاريخ أو الجغرافيا.

وعندما كنا نجتمع حول وجبة الغذاء، كنت لا أكاد أتناول لقمتين، حتى أسارع بعمل

ساندوتش، أى ساندوتش، حتى ولو كان ساندوتش «محشى» وآخذه فى يدى وأهرول تجاه حجرة النوم وأنا أقول لأمى فى عجلة وجدية:

ـ أما ألحق أنام شوية علشان أقوم أذاكر.

ولم أكن أملك الحق فى إغلاق باب حجرة النوم التى يشاركنى فيها أخواتى البنات، ولكنى تغلبت على ذلك بأن خلقت لنفسى قوقعتى ومحرابى الخاص، الذى لا يملك أحد الحق فى اقتحامه.

كنت أستلقى على ظهرى فى الفراش، وأثنى ركبتى بينما ترتكز قدماى على الفراش وأسحب الغطاء على جسمى مهما كانت درجة حرارة الجو، وأحشره أسفل رأسى لأصنع ساترًا أشبه بالخيمة، وأمسك الساندوتش بإحدى يدى وأنا ألتهمه فى قضمات كبيرة متعجلة، فليس هناك وقت لأضيعه، بينما أمسك بيدى الأخرى آخر كتاب أو قصة حصلت عليها.

ورغم عدم كفاية الضوء الذى يساعدنى على القراءة، خاصة مع استخدامى للبطانية أو اللحاف فى أيام الشتاء، فقد كنت ولست أدرى كيف، لا أتوقف عن القراءة، لا أغادر الفراش إلا عندما يترامى إلى صوت أبى وهو يعلن كما يعلن القاضى بدء الجلسة، جلسة المذاكرة.

واكتشفت أمى خروجى على الأحكام العرفية، ولم تقل لأبى حتى لا يعطينى «علقة»، فقد كبرت على العلق، ومنعتنى أمى من النوم ظهرًا، وبدأت تفتش حقيبتى المدرسية وأرفف دولابى بحثًا عن أى كتب خارجية.

ونجحت مرة أخرى فى التحايل على قرار حظر القراءة.

لا أذكر يومًا أننى عدت من المدرسة دون أن يكون معى كتابًا أو قصة جديدة من مكتبة المدرسة، من إحدى صديقاتى، من مكتبة حلوان العامة، أو من تحويشة عدة أيام لمصروفى الشخصى.

ووقع كتاب «حياة محمد» لمحمد حسنين هيكل فى يدى ولم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة من عمرى، ولم أفهمه وقتذاك، ولكنى قرأته حتى آخر صفحة منه، رغم أننى لم أفهمه.

لم أكن عند عودتى للبيت بالكتب المحرمة أضع الكتاب فى حقيبتى المدرسية؛ فأمى

«لا تعتقها» من التفتيش. كنت «أحشر» الكتاب في «كمر» الجونلة وأترك بلوزة المدرسة تنسدل عليها في إهمال من الخارج.

وكنت دائمًا أتجاوز باب الشقة متجهة إلى السطوح، حيث أسارع باستخراج الكتاب من تحت ملابسي وأخفيه بين بعض «الكراكيب» الملقاة في ركن منه، ثم أهبط بعد ذلك إلى شقتنا وقد حملت ملامح وجهي كل سمات البراءة.

وكان يحدث كثيرًا عند عودتي من المدرسة وأنا أخفي الكتب المحرمة أن أجد باب الشقة مفتوحًا، أو أسمع صوت أحد أفراد الأسرة فوق السطوح، وكان عليَّ عندئذ أن أدخل الشقة رغم أنفي وأنا أحمل تحت ملابسي جسم الجريمة، وكان عليَّ أن أسارع بحشره مؤقتًا بين أشيائي في الدولاب لحين نقله إلى الوكر فوق السطوح.

وكانت أمي لا تكاد تراني وأنا أدخل من باب الشقة وقد أخرجت البلوزة من الجونلة حتى تصيح قائلة: إنتي لبسك مبهدل كده ليه، كبرتي وبقيتي شحطة، ولسه زي العيال، الناس تقول علينا إيه؟

وأرد عليها في براءة، دائمًا في براءة: ده أنا يا ماما لسه مخرجة البلوزة وأنا على السلم.

وتجاوزت كثيرًا من «المطبات» من هذا النوع.

ولم أستسلم لأمي عندما منعتني من النوم ظهرًا؛ لتجبرني على عدم القراءة، وتمردت عليها وعلى قرارها.

كنت أنتهي من وجبة الغداء في عجلة وبسرعة وأنا أبتلع الطعام ابتلاعًا، أو أحمل الساندوتش المعهود في يد، بينما كتاب المدرسة (أي كتاب أجده أمامي) في يدي الأخرى، وأتوجه إلى باب الشقة وأنا أصيح في لهجة خطيرة قائلة: ماما، أنا عندي مذاكرة جامدة قوي، البيت ظيطة مش عارفة أركز، طالعة أذاكر فوق السطوح.

ولم أكن أنتظر رد أمي، وأنتهي من صعود السلم في بضع قفزات وأستخرج الكنز المخبوء، ولم أكن أجلس بجوار السور المواجه للحديقة اليابانية بأشجارها وزهورها ومياه أحواضها الرقراقة، فهو في مواجهة السلم، بل كنت أجلس خلف عشة الحمام وبجوار «الكراكيب» على أي شيء، صفيحة مقلوبة، أو قفص من أقفاص الحمام الخالية، وبينما

تلتهم عيناى السطور «أطرطق» أذنى لأى حركة مريبة على السلم المؤدى إلى السطوح؛ لأسارع بإخفاء جسم الجريمة بين «الكراكيب».

وكثيرًا ما كانت أمى تتعجب لصعوى إلى السطوح فى أيام الشتاء الباردة، وكان ردى دائمًا جاهزًا:

ـ الشقة برد موت وأنا طالعة أقعد فى الشمس.

وفى أيام الصيف الحارقة، وعندما كانت أمى تعترض على صعودى إلى السطوح قائلة: دى الشمس زى النار، حتسودى وتبقى عبده.

كان ردى أيضًا دائمًا جاهزًا: يا ريت أسمر شوية يا ماما، ده اللون البرونزى بيمشى قوى مع العينين الخضر.

***

كنت قد أصبحت أزهو بلون عينى الخضراوين بعد أن كنت أكرهه كراهية الموت فى طفولتى. فقد حدث أن كنت ألعب يومًا مع قطتى السوداء ذات البقع البيضاء الكبيرة فى حديقة منزلنا القديم، بينما كان يراقبنى عن قرب صبى من أبناء الجيران فى مثل سنى تقريبًا، عندما وجدته ينتقل ببصره بينى وبين القطة، ثم اقترب من وجهى وأمعن النظر فى عينى لبرهة، ثم ارتد عدة خطوات إلى الوراء مبتعدا عنى فى فزع وهو يقول:

ـ يا امه! عينيكى تخوف، دى زى عينين القطط، دى القطط بالليل بتبقى عفاريت.

وصمت الصبى برهة وعاد يقول فى تأكيد واتهام: إنتى عارفة شكلك زى إيه؟ شكلك زى العفاريت.

ولست أذكر تمامًا رد فعل كلمات هذا الصبى آنذاك ولكنى أذكر أننى حرصت بعدها على ألا أدع أحدا يتحقق من لون عينى، ثم حرصت بعدها وأنا فى نهاية المرحلة الابتدائية على ارتداء نظارة سوداء منذ لحظة خروجى من باب البيت وحتى عودتى إليه.

وسألتنى أبلة فتحية مدرسة اللغة العربية يومًا: إنتى لابسة النظارة على طول ليه يا نادية، إنتى عينيكى وجعاكى؟

ورددت عليها قائلة: لأ يا أبلة؛ بس أنا باحب ألبس النظارة.

وعادت أبلة فتحية تقول فى إطراء:

ـ اخلعيها ، خسارة تخبى لون عينيكى الحلوة دى .

وسألتها فى اندهاش وعدم تصديق :

ـ حضرتك بتقولى إن عينيه حلوة؟

وردت أبلة فتحية التى كثيراً ما مدحتنى أمام باقى التلميذات لتفوقى فى اللغة العربية :

ـ ده لون عنيكى يجنن ، دول أجمل عينين فى الفصل .

ومن يومهـا خلعت النظارة السـوداء، ومن يومهـا لم أعد أخجل من لـون عينى، لون عيون القطط.

أحببته بعد الرحيل

ومات أبي.

مات وأنا في السنة الثانية الثانوية.

وورثه أخي الذي يكبرني بعامين فقط.

ورث تجهمه، وورث تحكمه في إرادتنا.

أراد أخي أن يصير رجلاً؛ فحاول أن يلبس ثياب أبي.

تحررت من قيود أبي، وحاول أخي أن يقيدني.

ولم أستسلم، تمردت.

* * *

لم يكن أبي في الحقيقة ظالمًا أو جبارًا، فقط كان بالغ الصرامة والجدية.

كل شيء في حياتنا يجب أن يسير بنظام ودقة بالغين ووفق ما يراه هو، كانت هذه هي طريقته في تربيتنا، وطريقته في التعبير عن حبه لنا.

كنا أنا وأخوتي الخمسة أشبه بكتيبة عسكرية، على كل فرد فيها أن يعمل بالتعاون مع الآخرين ومن خلالهم على تنفيذ أوامر القائد.

وكان خروج أي واحد منا على النظام أو على أوامره ينتهي بالعقاب الجماعي. يوقعه بنا، صغيرنا قبل كبيرنا.

لم يكن يأكل معنا ولا أذكر أننا تناولنا الطعام معه إلا إذا كان لدينا «عزومة» وكان يتناول إفطاره بمفرده، بينما نكون منشغلين بارتداء ثيابنا المدرسية، ثم يجلس في الشرفة المطلة على الحديقة اليابانية ليحتسي كوبًا من الشاي ويدخن سيجارته الصباحية، فلم يكن يدخن سوى سيجارتين يوميًا، إحداهما في الصباح والأخرى قبل النوم ليلاً.

ويقبل علينا قادمًا من الشرفة بعد أن نكون قد انتهينا من إفطارنا ليوزع علينا وبالتساوى مصروفنا اليومى ، وينطلق خارجًا ثم نتبعه جميعًا فى نفس اللحظة كل منا إلى مدرسته .

كان طريقه إلى العمل هو نفس طريقى إلى مدرستى متخذين طريقًا مختصرًا من خلال ممرات الحديقة اليابانية ، ولكننى كنت أسير وراءه بمسافة لا تسمح له برؤيتى ، كنت أخافه .

وفى المرات القليلة التى كان يلمحنى فيها وأنا أسير خلفه كان يتباطأ حتى ألحق به . ويسألنى عن المدرسة والمذاكرة فى كلمات مقتضبة ، وهو يتفحص مدى نظافة زيى المدرسى ، أو ما إذا كنت لم أغسل وجهى ، أو ما إذا كان شعرى «منكوشًا» ، ثم يطبق شفتيه حتى لحظة افتراقنا ، فيضع يده فى جيبه ويعطينى المزيد من النقود ، ويمنحنى واحدة من ابتساماته النادرة .

ومع هذا ، ومع انتظارى ولهفتى لمثل هذه اللحظات التى يضع فيها يده فى جيبه ، فقد كانت كراهيتى لقربى منه أكثر من حبى للنقود ، مصدرى الأساسى لإشباع هوايتى المحرمة ، شراء الكتب .

كنت أخاف أن أكون قريبة منه ، أخاف أن يكتشف أسرارى الصغيرة ، الكبيرة فى الوقت نفسه ، وأخاف عقابه . أخاف أن يكتشف أننى أضع القصص داخل كتابى التاريخ والجغرافيا ، أو أن يكتشف مخبئى السرى بين الكراكيب فوق السطوح . أخاف أن يكتشف أننى سرقت سجائره مرة أو أكثر لأدخنها فى الحمام . أخاف أن يكتشف أننى مددت يدى إلى أطباق طعامه خلسة ، رغم أنه كان نفس الطعام الذى كنا نأكل منه . أخاف أن يكتشف أننى أمر على بيوت بعض صديقاتى قبل المدرسة أو بعد المدرسة . أخاف أن يكتشف أننى أتحدث أحيانًا مع الصبيان من الجيران أو الأقارب . أخاف أن يكتشف جلوسى إلى نساء الجيران أو الأقارب المتزوجات أو المخطوبات . كنت أخاف احتمالات اكتشافاته ، وأخاف . . . وأخاف . . .

ورسم الخوف دائمًا مسافة بينى وبينه .

كنا نعود جميعًا خلال السنة الدراسية فى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ، وكان أبى يعود من العمل قبل أى منا ، ويتناول غداءه أيضًا بمفرده .

وكنا عندما نعود إلى البيت ندخل على أطراف أصابعنا ، فبابا فى البيت ، وبابا نائم فى

فترة ما بعد الظهيرة، وصدور أى صوت منا يحرمه من هذه القيلولة معناه أن نتعرض جميعًا للعقاب الجماعى.

وما كانت أحلى أيام الإجازات المدرسية عندما كان يغيب أبى عن البيت فى الفترات الصباحية وعندما تفتح أبواب السجن. كان البيت يمتلئ منذ الصباح بكم هائل من نسمات ورياح الحرية والانطلاق بلا حدود. **ضجيج، صخب، جرى، لعب، عفرتة وشيطنة، وتسريح للكبت المسجون فى الأعماق.**

وما إن تدق ساعة الراديو معلنة الثانية والنصف ظهراً وبدء نشرة الأخبار، حتى يصيح واحد منا وبصوت تحذيرى مدو قائلاً:

ـ الحقوا بابا جاى، ويستأنف الصوت متابعًا وكأنه يلاحق أحداث مباراة فى كرة القدم قائلاً:

ـ أهه دخل الجنينة، آهه ماشى فى الجنينة، خرج من باب الجنينة، بيعدى الشارع، دخل باب البيت وطالع على السلم.

وما أن تنتهى إلى آذاننا هذه الكلمات السحرية، وبدءا من كلمة «الحقوا» حتى يتحول منزلنا إلى شىء آخر، أشبه بمضمار لسباق الفئران، «فينط» الصغير ليسابق الكبير فى ترتيب وإعادة «شلت» المقاعد التى افترشت الأرض إلى أماكنها، ويسارع الذين كانوا منذ لحظات «يتنطيطون» على المقاعد والأرائك وعلى الموائد بالقفز إلى الأرض فى عجلة وكأنهم رسوم متحركة، وتسوية المفارش التى تكومت تحت أقدامهم، وتختفى اللعب التى كانت تتربع وتتناثر فى كل مكان ليُلقى بها داخل حجرات نومنا بسرعة هستيرية، أو تدس أسفل المقاعد إذا لم يكن هناك فسحة من الوقت . . . وتتلقف الأقدام «الشباشب» والأحذية التى تناثرت بعشوائية وفوضى فى كل مكان فى أثناء الانهماك فى اللعب والجرى «والتنطيط».

ويسأل كل واحد منا الآخر فى قلق وتوتر وهو يسوى ملابسه ويمسح بيده على شعره ليعيد الشعرات المنكوشة المتمردة إلى مكانها قائلاً:

ـ هدومى مبهدلة؟ شعرى منكوش؟ وشى وسخ؟

ويسود البيت صمت مطبق مشبوه غير عادى عندما يجلس بعضنا فى أدب وصمت، على حين يختفى البعض الآخر فى حجرته أو فى أى زاوية من البيت.

وتخرج أمى من المطبخ الذى قضت فيه هى ومربيتنا نصف عمرهما، وأطباق الطعام فى يديها، وتدور بعينها فى أرجاء المكان الأنيق وقد خلا من مظاهر الشغب والفوضى، وتبتسم ابتسامة ذات معنى وهى تضع الأطباق على مائدة الطعام التى تحتل جانبًا من الصالة الكبيرة وتقول :

ـ أظن بابا دلوقتى طالع السلم .

ويدخل أبى، ويحيينا بنظرة رضاء، وننسحب جميعًا إلى حجراتنا .

ويأكل أبى أيضًا بمفرده، ثم يأتى دورنا بعد أن ينتهى .

هكذا كان النظام فى بيتنا وهكذا كان أبى.

* * *

كان منضبطًا كالساعة الأصيلة ذات الماركة العالمية، ولم يكن يسمح لأى منا بأن يخل بقواعد النظام والضبط والربط التى وضعها وإلا تعرضنا جميعًا لعقابه الجماعى المعهود .

كان نادرًا ما يغادر البيت مساء لمقابلة أصدقائه، أو أداء واجب زيارة أو عزاء، وكنا جميعًا ننتظر بترقب وأمل وفروغ صبر هذه المناسبات السعيدة النادرة؛ لنستنشق بل ونعب من نسمات الحرية .

كان أبى يصعد دائمًا إلى السطوح بعد انتهاء فترة قيلولته؛ فقد كانت هوايته المفضلة تربية الأنواع النادرة من الحمام، ثم يهبط عند غروب الشمس ليعلن بدء جلسة المذاكرة، وكأنه قاض يعلن بدء جلسة المحاكمة .

وفى خلال السنة الدراسية كانت دقات الساعة الثامنة والنصف مساء فى الراديو، والمؤذنة ببداية نشرة الأخبار التى كان أبى حريصًا على متابعتها هى أجمل السمفونيات التى كنا نتوق إلى سماعها ونحن متحلقون حول مائدة الطعام للمذاكرة، فقد كانت الإشارة المرتقبة بأن أبى سوف يأوى إلى فراشه بعد انتهاء النشرة مباشرة وأن موعدنا مع الحرية ولمدة ساعة كاملة وهو موعد نومنا قد بات وشيكًا فنرمى الكتب من بين أيدينا وربما نطوحها، وندخل إلى المطبخ ونخرج محملين بالساندوتشات والأطعمة فقد انتهت أخيرًا فترة الحظر .

أما أيام الإجازات الصيفية فقد كان أبى يجلس مع أمى عند الغروب فى الشرفة المطلة على الحديقة اليابانية، وكان أحيانًا وما أندر هذه الأحيان يقول لنا :

ـ يا للا البسوا وانزلوا اتمشوا تحت، أو يا للا البسوا عشان حنروح عين حلوان أو حنروح السينما.

وتكون الفرحة التي تكاد أن تنفجر داخلنا، ونستعد جميعًا «للفسحة» الموعودة في لحظات، خاصة إذا ما تعلق الأمر «بالتمشية» في الشارع.

فقد كان الذهاب إلى عين حلوان أو السينما تعنى مزيدًا من الضبط والربط ومراعاة الأوامر والتعليمات العسكرية؛ فلم يكن أبي ـ وأحيانًا أمي ـ ليتركنا نذهب بمفردنا أو مع مربيتنا إلى هذه الأماكن.

أما بالنسبة «للتمشية» فقد كانت أكثر إثارة بالنسبة لنا، فنحن نخرج بمفردنا ونتحرر من الرقابة ومن الأوامر العسكرية، وربما أسعدنا الحظ بمقابلة أولاد الدكتور مخلوف أو الشيخ دراز وهم «يتمشون» في الشارع، فقد كانوا من أبناء الأسر القليلة التي كان مسموحًا لنا بمخالطتهم.

وكنا نراعي في نظام «التمشية» تنفيذ كل تعليمات أبي العسكرية، وإلا تعرضنا للعقاب الجماعي.

كانت أولى التعليمات تقضي بأن نكون داخل المنزل عند أذان العشاء تمامًا.

أما ثانيها، فهو ألا نتجاوز عمود الإضاءة الذي يقع آخر سور الحديقة اليابانية غربًا ومنزل الشيخ دراز شرقًا، وذلك ذهابًا وإيابًا حتى الموعد المقرر، وهو المدى الذي يستطيع فيه أبي أن يرانا وهو في مجلسه مع أمي في الشرفة.

أما دخول الحديقة اليابانية نفسها رغم الإضاءة المنتشرة في كل مكان فيها ليلاً، فقد كان من الممنوعات حتى في ضوء النهار، ولم يكن مسموحًا لنا بالتنزة في أرجائها إلا إذا كان لدينا بعض الضيوف من خارج حلوان، أو عندما نكون في صحبة أبي؛ فالحديقة مقصد الكثيرين من الغرباء.

وكان أبي يخاف علينا منهم، يخاف علينا من هؤلاء الغرباء.

أما ثالث هذه التعليمات العسكرية، فكانت تقضي بأن تنفصل نحن البنات عن «الصبيان» إذا ما تقابلت كتيبتنا مع بعض أبناء الجيران من «الصبيان»، بحيث نسير في مجموعتين مستقلتين، مجموعة البنات ومجموعة «الصبيان».

وحاولنا مراعاة الأوامر العسكرية مرات كثيرة، وخرجنا عليها وربما بدون قصد مرات كثيرة، وتعرضنا للعقاب الجماعي أيضًا مرات كثيرة.

كان العقاب الجماعي في بيتنا يعني أن نصطف جميعًا بعضنا بجوار البعض الآخر في وضع انتباه عسكري، ويفتح كل منا يديه ويمدها أمامه في استسلام، ويتناول أبي العصا المعهودة من يد مربيتنا التي تتطوع بإحضارها من مكانها وقد ارتسمت على ملامحها آيات السعادة والشماتة فينا ونحن نتعرض لعملية التأديب والتهذيب. ويتلقى كل منا على يديه عددًا من الضربات التي كانت تختلف حدة وعددًا وفقًا لنوع المخالفة، والتي لم تكن تبلغ مطلقًا ولشهادة الحق درجة القسوة، إذ لم تكن تتعدى كونها نوعًا من الإعلان عن عدم رضاء أبي عن خروجنا على تعليماته.

* * *

ولم يخالف أبي ممارسة إيقاع العقاب بنا إلا مرة واحدة، فقد اختفت العصا التي يقوم أبي بتأديبنا بها من مكانها، وكنت أنا وراء اختفائها.

وأراد أبي أن يوقع بنا عقابه المعهود، وطلب من مربيتنا البحث عن عصا أخرى بديلة بين الكراكيب في السطوح، وأوقفتها جدتي لأبي في شهامة كرهتها عليها وقتئذ، وتطوعت هي بإحضار العصا من بين الكراكيب. وغابت ونحن واقفون وقفتنا العسكرية، وقد مددنا أيدينا بأكفنا المفتوحة إلى الأمام، وعادت وناولت أبي العصا وهي تقول في مسكنة:

- ما لقيتش فوق عصيان غير دي.

وتناول أبي العصا من يد جدتي، وقلبها في يديه وهو يغالب ابتسامة لم يستطع إخفاءها وهي تضيء وجهه، وقال وهو يشيح بوجهه الباسم يصرفنا من أمامه:

يا للا امشوا من قدامي.

كانت العصا عبارة عن عود طويل جاف من «زعزوعة» قصب.

وأسرتني جدتي منذ تلك اللحظة، وتغيرت معاملتي لها بزاوية «١٨٠» درجة بعد تلك «الحركة» من الشهامة و«الجدعنة»، فقد كنت أنا وهي مثل «ناقر ونقير».

كـانت تهـددني دائمًا ـ دون أن تنفذ «والشـهادة لله» تهديداتها ولو لمرة واحدة ـ أن تشكوني لأبي عندما تزداد شقاوتي و«عفرتتي»، أو عندما أخرج على أوامره العسكرية وما كان أكثر خروجي عليها.

وكنت في المقابل أنتهز أول فرصة تتاح لي؛ لأكيد لها، جزاء وفاقًا لتهديداتها.

فعندمـا كـان أبي يعـود من عمله في أحد الأيام، ويجدها في الفراش ويسألها في لهفة قائلاً:

ـ مالك يا أمي، نايمة ليه؟

وعندما ما ترد عليه في «استموات» قائلة:

باين عليه عيانة يا ابني، ده أنا حتى ما دقتش الزاد النهاردة.

عندئذ كنت «أنط» من مكاني وأنا أقول في تكذيب واستنكار:

ـ يا نينه، يا نينه، ده أنا شايفاكي بعنيه الاثنين وإنتي بتاكلي.

وإذا قالت جدتي في شكوى:

ـ ده أنا طول الليل عنيه ما غمضتش من الوجع.

يسبقني لساني الطويل وأنا أقول في اتهام واستنكار لكذبها:

ـ يا نينه، يا نينه، أمال مين اللي كان بيشخر طول الليل؟

ورغم ذلك فقد كنت أحبها، ولكن بطريقتي الخاصة، وكانت تحبني، ولكن أيضًا بطريقتها الخاصة.

وأحببت جدتي بصورة أكبر كثيراً بعد أن مات أبي وحيدها، وهو لم يتعد الأربعين. وحرصت بعد زواجي ولسنوات طويلة وحتى وفاتها على أن أتردد عليها في القرية، وأعوضها عن رحيل أبي المبكر وعن عذابها الذي عاشته بعد رحيله لما يزيد عن خمسة عشر عامًا، لم تتوقف طوالها ولو ليوم واحد عن التردد على مقبرته، غير مبالية بالخوض في الطين الذي يغطي حارات القرية في أيام الشتاء المطيرة.

* * *

أحببت أبي بعد أن رحل عنا أكثر كثيراً مما كنت أحبه قبل الرحيل.

فهمت، أدركت، وقدرت، ووعيت بعد أن كبرت شخصية أبى الصارمة. لم تكن صرامة بلا معنى، ولكنها كانت ضربًا من الحب، الحب بلا حدود.

حبا غلفه وشكله الخوف، الخوف علينا وعلى ملكيته لنا.

ظللت ولسنوات طويلة وربما حتى الآن لا أصدق أنه قد رحل.

كان أبى طويلاً عملاقًا وسيمًا أنيقًا، وكنت أراه قويًا، أقوى رجل فى العالم، أقوى من كل شىء، وكان الألم يعتصر قلبى عندما كانت تهاجمه نوبات المغص الكلوى فى أيامه الأخيرة، وعندما أدركت أنه أضعف من أن يقاوم الألم والمرض.

وآمنت بعد أن مات أن الموت أقوى من أى شىء، أقوى حتى من أبى.

* * *

سمعته مرة يتناقش مع أمى فى غضب؛ عندما لاحظ أن أختى الكبرى بدأت ترتدى «السوتيان» الذى أصبح يبرز نهديها.

وسمعته مرة أخرى يحتج على أنها تحدد وسطها بحزام عريض يؤكد نحافة خصرها، **وعرفت فيما بعد ـــ وبعد أن رحل ـــ أنه لم يكن فى الحقيقة غاضبًا، بل كان خائفًا.**

خائفًا على الأنثى الكامنة داخل ابنته الكبرى، والتى تتحين فرصة الخروج من مكمنها ليتلقفها رجل آخر، رجل غريب.

وتغير أبى كثيراً بعد زواج أختى الكبرى، وهى فى السابعة عشرة من عمرها.

كانت قد دخلت الجامعة لتوها عندما بدأت الأحاديث المحرمة تدور بين جنبات بيتنا، أحاديث الحب والزواج؛ فالعريس المتقدم لأختى «لقطة» ابن باشا، ملهوف عليها، متيم بها. وأختى الجميلة، التى ربما كانت من أجمل بنات حلوان فى ذلك الوقت، صامتة، تنتظر قرار أبى ولا تجرؤ على الإعلان عن رأيها فى العريس رغم أنها مشدودة إليه، رغم أنها تريده.

ورضخ أبى أخيراً تحت ضغط الوسطاء، وفى ظل الخوف أن يضيع عليها فرصة عمرها، ووافق على العريس، وأدرك أبى أنه لن يستطيع الاحتفاظ بأى من بناته إلى الأبد.

وتغير أبى، تغير كثيراً.

تركنى ألبس السوتيان، وتركنى أحدد خصرى بالحزام العريض.

أمي... امرأة متمردة

تغير أبي قبل أن يموت، وتغيرت أمي بعد أن مات أبي.

لا تعي ذاكرتي مطلقًا أن خرجت أمي ولو لمرة واحدة دون أن تكون في صحبة أبي ولا تعي ذاكرتي بالمرة أن زارنا أحد رجال العائلة، حتى ولو كان في صحبة أسرته . . . إذا كان أبي غائبًا عن البيت .

حتى عمي لم يكن يدخل بيتنا وأبي غائب عنه، وكان إذا طرق الباب، وقيل له إن أبي غير موجود؛ انصرف لتوه؛ ليجلس على أحد المقاهي أو يتجول في الشوارع حتى عودته .

ولم تكن أمي تزور أي جارة لنا، ولكن عددا قليلاً من الجارات كن يترددن عليها بين الحين والآخر .

استسلمت أمي بكاملها لأبي، ولم تتمرد مطلقًا عليه، بل استمتعت باستسلامها له، واستمتعت بأن تتوارى في ظله.

ومات أبي ولم تكن قد تخطت عامها الخامس والثلاثين . وبموته غاب عنها ظله، وغابت عنها حمايته .

وأجبرتها الظروف ومسئوليات الأبناء الخمسة الباقين تحت جناحها بعد زواج أختي الكبرى على أن تواجه العالم الخارجي المجهول، العالم الذي لم تكن تعرف شيئًا عنه . واصطدمت به وذاقت مرارته . ولكنها لم تقع ولم تنكسر، حملتنا جميعًا على جناحيها، حتى انتهت من كتابة آخر سطر في سجل عطائها .

والآن وقد قاربت الثمانين من عمرها أراها وأكاد لا أعرفها.

عندما خلا البيت منا جميعًا بزواجنا، بدأت أمي تنكب على الاطلاع والقراءة خاصة الدينية منها .

وبدأت تغزل خيوط حياتها من جديد، ويا لها من حياة.

تحولت أمي من خلال التدين الشديد إلى امرأة أخرى متمردة متطرفة أو تكاد.

أصبحت أمي بين أهل الحي المصلحة الاجتماعية والمرشدة الأسرية والموجهة الدينية، تحولت إلى امرأة صاحبة رسالة. لم نعد نحن رسالتها، فقد نفضت يديها منا. أصبحت رسالتها الجديدة هي الدين والوطن وذوو الحاجة. لم تعد ساعات النهار تكفيها رغم أنها تستقيظ مع أذان الفجر.

وقتها أصبح موزعًا بين تزعمها لجلسات الصلح بين الجيران والأقارب، وبين الدروس الدينية في المسجد وبين الرسائل التي تقوم بكتابتها للمسئولين، وكذلك البرقيات والمكالمات التليفونية التي لا تنتهي.

لم يعد لديها شاغل سوى أن تنتقد وتقترح وتوجه. تقترح على الرئيس السادات ومن بعده الرئيس مبارك، وتنتقدهم وتوجههم. وتقترح على مجلس الشعب وتنتقده وتوجهه. وتقترح على وزير الأوقاف وشيخ الأزهر وتنتقدهما وتوجههما.

ولم ينج منها وزير التعليم أو رئيس التلفزيون أو رؤساء تحرير الصحف بل ووزير الداخلية.

وأصبحنا جميعًا أنا وأخوتي نتضاحك معها ونعابثها قائلين:

- يا ماما حتودينا كلنا في داهية.

- يا ماما هنروح معاكي كلنا ورا الشمس.

- يا ماما تلاقي المخابرات ومباحث أمن الدولة بتراقب تليفوناتنا.

- يا ماما إنتي كبرتي ومش حتستحملي السجن لو قبضوا عليكي.

وأتطوع لأقول في شهامة مصطنعة وأنا أقهقه قائلة:

- ولا يهمك يا ماما، السجن للجدعان، حابقى أجيبلك «مارون جلاسيه» و«ستيك» بدل العيش والحلاوة.

وما زالت أمي كلما عابثناها تهز كتفها في استهزاء، وتقول وهي تغالب ابتسامتها:

روحوا كده، هو انتوا عارفين حاجة.

وقد تكون أمي محقة، فربما سنستكمل معارفنا إذا أمد الله في أعمارنا عندما نقترب من الثمانين.

* * *

والآن وبعد أن كشفت أمي عن المرأة المتمردة التي كانت تختبئ بداخلها، أدركت أنني ابنة أمي، حياتي كلها سلسلة طويلة متعاقبة من التمرد... التمرد على المألوف، والتمرد على غير المألوف.

ولم أقف عند حد التمرد.

تمردت على الأرواح والجن والعفاريت.

كيف؟

متى؟

للحديث بقية...

العصمة فى يدى

بعد أن مات أبى وقبل أن أدخل الجامعة أصبح شغل أمى الشاغل أن تتخلص منى، أن تتخلص من لسانى الطويل ومن جدلى الذى لا ينتهى ومن تمردى على كل ما هو معروف لى ولكنى لا أقتنع به.

أصبح شغلها الشاغل أن تزوجنى.

سألتها مرة :

ـ ليه الراجل هوه إلى دايمًا بيخطب البنت ، ليه البنت إذا أعجبها واحد ما تروحش هيه تخطبه؟

وتنظر إلىّ أمى فى استنكار وتردد قائلة :

ـ لأن ده اللى الناس ماشيه عليه ، البنت اللى تعمل كده تبقى سايبه ومش متربية .

وأرد عليها وأنا أحاول إفحامها :

ـ السيدة خديجة هيه اللى طلبت الزواج من سيدنا «محمد» ، وبنت سيدنا «شعيب» لما شافت سيدنا موسى وعجبها؛ طلبت من أبيها أن يستأجره عندهم ، علشان كانت حطة عينها عليه ، حد يقدر يقول إن دول سايبين ومش متربيين؟

وتحاول أمى أن تصغر من شأنى وهى تقول :

إيش جابك إنتى يا مفعوصة لزوجات الأنبياء؟

وتعود أمى تلف وتدور ، وهى تستأنف قائلة :

ثم إن سيدنا «محمد» كان عايز يقول للناس إن الراجل ممكن يتجوز اللى أكبر منه والأصغر منه والمطلقة والمسيحية والأرملة والـ . .

وأقاطعها بسرعة قائلة وأنا أحاول إحراجها :

ـ أيوه، أديكي قلتيها بلسانك. فين الراجل اللي يرضى يتجوز واحدة أكبر منه، وفين الراجل اللي يرضى يتجوز واحدة مطلقة. حتى لو كان متجوز عشر مرات، ما بيتجوزش الست المطلقة إلا راجل وقيع، زى ما تكون الست المطلقة دى مرض واللا وباء.

ـ وتقول أمي وكأنها تردد واقعا :

ـ لأن الراجل راجل والست ست.

ويثيرني ردها ويرتفع صوتي وأنا أقول في اعتراض :

ـ يا ماما، مافيش حاجة اسمها راجل وست، ربنا خلقنا متساويين بجهاز عصبي واحد ومشاعر واحدة. الرجالة همه المفتريين، عايزين باخدوا كل حاجة ويحرموا الست من كل حاجة.

وتحاول أمي أن تضع حدا للمناقشة بقولها :

ـ الدين بتاعنا بيقول إن الرجال قوامون على النساء. . . و . . .

وأرفع يدي أقاطعها، وكأني أشهدها على نفسها وأنا أقول :

ـ أيوه، شفتي بقى؟ اديكي بتقولي الدين، أكملك بقى، والدين بيقول إن من حق الست أنها تتطلق إذا كانت بتكره جوزها، حتى ولو ما كنش فيه ولا عيب واحد. هاتيلي راجل واحد في مصر بقى عنده دين في الحته دى؟ اشمعنى بنقول قال الله وقال الرسول إذا كان ده فيه مصلحة للراجل؟ واشمعنى بننسى اللي قاله الله وقاله الرسول إذا كانت فيه مصلحة وحق للست؟

ولا تجد أمي أي مفر من أن تضع حداً للمناقشة التي تدرك أنها لن تنتهي فتقول وهي تترك لي المكان الذي أجلس فيه :

ـ بطلي غلبة بقى، دوشتيني، ووجعتي دماغي.

❊ ❊ ❊

ولم أبطل غلبة، تماديت في «دوشتها» وفي «وجع» دماغها، بل وتمردت عليها أو على الأقل حاولت كثيراً أن أتمرد عليها.

جاءنى عريس.

لم أكن أعرفه، ولم أكن قد رأيته من قبل ورفضت أن أقابله فى البداية. كنت أرفض تمامًا فكرة الزواج بالطريقة التقليدية.

وضغطت علىَّ أمى، واستسلمت.

قابلته عندما جاء هو وأمه «للمعاينة»، **لم يعجبنى شكله «كله على بعضه» ولا طريقة** حديثه ولا حتى صوته، وأغاظنى أن يجرجر أمه وراءه من أجل هذه المعاينة. وكأنما أنا مجرد سلعة وضعوها فى مقعد وفى بيت من البيوت بدل من أن يضعوها فى إحدى الفاترينات.

ورفضت أن أكون مجرد شيء، مجرد بضاعة رفضت أن أكون «فرجة».

ولم أوجه يومها له أو لسواه مجرد كلمة.

وخرجت على تعليمات أمى، وقهقهت أمامهم بصوت عال مجلجل عندما صدر من أختى الصغيرة قول طريف لم يكن يستدعى منى كل هذه القهقهة.

وخرجت على تعليمات أمى، وجلست وقد وضعت ساقًا فوق أخرى.

وتماديت فى الخروج على التعليمات، وتماديت فى التمرد، وتناولت إحدى المجلات، وانشغلت بها منهم، ورددت ردودًا تلغرافية على كل ما وجهوه لى من أحاديث، وسرقتنى المجلة منهم مرة بعد أخرى.

وخرج العريس ولم يعد.

ولم أسلم يومها من أمى ولم أسلم من أخى.

وجاءنى عريس آخر كان قد لمحنى فى إحدى المناسبات، ولكنى لم أكن قد انتبهت إليه.

ولم أجد فيه عيبًا أرفضه من أجله سوى شعورى بأنه بعيد عن قلبى، وبخوف لا شعورى مما سيحمله المستقبل لى معه.

وجاء مرة ثانية وثالثة وظل بعيدًا عن قلبى. لم أكن أشعر بالسعادة وهو معى، ولم أكن أشعر باللهفة عليه وهو بعيد عنى. وكما كان لدى أمل فى أن يتسلل يومًا إلى قلبى، لأتحمل حياتى معه بحلوها ومرها، كان الخوف يداخلنى من أن يظل خارج قلبى إلى الأبد.

ومع تكرار زياراته شعرت أنه قد أصبح مشدوداً لى، مبهوراً بكل ما يتعلق بشخصى.

وسألته يومًا وهو يحاول أن يتفق على موعد الخطبة:

ـ افرض فرضًا، يعنى فرضًا، أننا ما ارتحناش مع بعض لأى سبب من الأسباب حتعمل إيه؟

ورد العريس يعترض ضاحكًا وهو يقول:

ـ يا شيخة فال الله ولا فالك، هو ده كلام يتقال؟

وعدت ألح وأنا أقول:

ـ باقولك افرض، افرض إن ده حصل، إيه حيكون الحل؟

وقال مطمئنًا وهو يؤكد:

ـ عمرى ما حأفرط فيكى، اطمئنى.

وتماديت فى الإلحاح وأنا أقول:

ـ طيب افرض إنى لقيت نفسى فى يوم من الأيام مش قادرة أعيش معاك وعايزة نسيب بعض، حتعمل إيه؟

ورد العريس بطريقة دبلوماسية قائلاً:

ـ ساعتها مش حأغصبك إنك تعيشى معايا وكل واحد يروح فى حال سبيله. وسألته:

يعنى هيكون لىّ الحق فى طلب الطلاق؟

ورد مؤكداً وهو يبدى الشهامة والفروسية:

ـ طبعًا، أكيد، ده حقك، هيه دى عايزة كلام؟

ورميت آخر سهم وأنا أقول فى لين واستضعاف:

يعنى ما عندكش مانع إننا نكتب كده فى عقد الزواج، أو إنك تخلى العصمة فى إيدى؟

وخرج العريس ولم يعد.

وتوقفت أمى عن عملية استعراضى «كبضاعة».

ولم أعد «فرجة» لأى مزيد من الخطاب.

نقاء الملائكة

لم تمنحني أمي حريتي، وحقي، وإرادتي في الاختيار، ولكني انتزعت ذلك كله منها.

وعندما حاول أخي الذي لبس ثياب أبي أن يقيدني، تمردت على هذه القيود.

* * *

رأيته في مستشفى حلوان للأمراض المستعصية . لم أر منه سوى وجهه الأبيض الشاحب . اختفى جلده الميت بأكمله تحت الأغطية البيضاء . ولم يكن حيًا فيه سوى رأسه بعينيه المليئتين بالحياة ، وشفتيه اللتين لا تكفان عن الابتسام ، وصوته الهامس العميق .

كان طالبًا في السنة النهائية بكلية الطب ، عندما مات جسده قبل أربع سنوات .

كان بطلاً في السباحة والقفز ، وأخذته قفزة خاطئة غادرة إلى قاع حمام السباحة .

وكسر عنقه وتوارت بطولاته بعد أن توارى جسده وإلى الأبد تحت الملاءات البيضاء .

* * *

كنا قد ذهبنا إلى المستشفى في مجموعة من الطالبات . من خلال ممارسة بعض الأنشطة المدرسية للترفيه عن المرضى ، وأنَّ قلبي مع أنين كل المرضى الذين استعصت أمراضهم ، وبخاصة الأطفال .

ولكنه نزف ألمًا لحظة أن رأيته وتعرفت على مأساته . وحكيت لأمي عنه وأنا أبكي . وعدت إليه مرارًا بعد ذلك رغم اعتراض أمي وأخي المتكرر ، ورغم العقوبات التي كانوا يوقعونها عليَّ .

كانت تسبقني لهفتي عليه، وتستقبلني لهفته المرسومة في عينيه، وربطتنا علاقة نقية نقاء الملائكة.

وعدت يومًا إليه ولم يكن في انتظاري، لقد رحل.

* * *

ولم أتوقف عن الذهاب إلى المستشفى بعد ذلك من أجل الأطفال الذين استعصت أمراضهم واغتالت آلامهم طفولتهم، حتى غادرت حلوان بعد زواجي.

فقد قررت أن أكمل رسالتي التي بدأتها مع الراحل العزيز. قررت أن أواصل رسم الابتسامة على شفاه التعساء، وأنا أمسح بيدي المليئتين بالحلوى واللعب، وبقلبي المليء بالحب على آلام المعذبين في الأرض.

وكانت تنقصني النقود في أحيان كثيرة، فقد أصبح حرماني من المصروف شكلاً جديداً من أشكال العقاب الذي كانت توقعه بي أمي بالتحالف مع أخي.

ولهذا فرطت في كنزي ودفنت بيدي حلمي.

لهذا بعت كتبي، كل كتبي.

ولم أندم.

أنا وطشت الغسيل

كان من أقسى العقوبات التى فرضت عليّ والتى توصل إليها التحالف بين أمى وأخى، عندما أتمرد على أوامرهما، وعندما أريد أن أتحلل من قيودهما، أن ترفض أمى وضع ملابسى المتسخة مع ملابس الأسرة؛ لتقوم بغسلها المرأة التى كانت تتردد على بيتنا للقيام بهذه المهمة مرتين أسبوعيًا.

وكنت أشعر أننى أنتصر على أمى وأخى وأنا أنتصر على أوساخ ملابسى وقد انكببت على «طشت الغسيل»، بعد أن يخلو دولابى تمامًا من أى ملابس نظيفة للخروج.

ورغم الآلام الحادة التى كانت تهاجم ذراعى مع كل هجمة من يدى الضعيفتين على ملابسى المتسخة، فقد كنت أبتلع آلامى وأدفنها، فملابسى النظيفة هى عصاى التى أتوكأ عليها للانطلاق إلى رحلتى المحببة، رحلة المستشفى.

وأصبحت الآلام لا تطاق سواء كنت أمام «طشت الغسيل»، أو ممسكة بفرشاة الرسم رغم إيمانى بالافتقار إلى الموهبة، فقد كنت أهوى نقل وتقليد اللوحات الزيتية وأتقن مزج الألوان. وأصبح الإمساك بالقلم وأنا أخط خواطرى أو أكتب واحدة من قصصى القصيرة كواحدة من أحب هواياتى، يسبب لى نوعًا من الألم الذى لم أعد أقدر على تحمله.

وجرجرتنى الآلام فى رحلة طويلة تنقلت فيها بين الأطباء والفحوصات الطبية واتضح أننى أعانى من وجود ضلعين زائدين عند الرقبة، وأنهما يضغطان على الأعصاب المتصلة بالذراعين، وقرر الأطباء أن الحل هو إجراء عملية جراحية خطيرة ونادرة لاستئصال هذه الضلوع. ولم توافق أمى على إجراء العملية ولم يوافق أخى، وتمردت عليهما. رفضا أن يوقعا إقرارا بالموافقة على العملية، وتمردت على رفضهما. ولجأت إلى عمى وناقشته، واقنعته، وجرجرته معى إلى الأطباء والمستشفى وجرجرته إلى التوقيع على الاقرار.

ودخلت حجرة العمليات، وخرجت، ولم تكن أمى فى انتظارى. ولم يكن أخى فى انتظارى؛ عقابا لى على تمردى. كان فى انتظارى وحدة ووحشة وآلام ما بعد العملية التى

لا تطاق وكان فى انتظارى بعد ذلك الشفاء بحمد الله . وتخلصت من الألم عندما تمردت عليه وعندما تمردت على أمى وأخى .

* * *

ولم تكــن هذه هــى المرة الأخيرة التى تتغلب فيهـا إرادتى لقهر المرض والألم على إرادة الآخرين .

فقــد تكررت نفس القصة بعــد سنوات عديدة وإن كان بشكل آخر ، عندما قررت بملء إرادتى ـ ورغم اعتراض زوجى وأفراد أسرتى ـ إجراء عملية جراحية دقيقة فى المخ ، أجريت العملية دون علم أمى ، أو زوجى ، أو ابنى الذى كان قد تخرج حديثا من كلية الهندسة .

كيف؟

متى..؟

للحديث بقية...

وتحركت الأنثى داخلى

واستمرت سلسلة التمرد، وتماديت فيه خاصة بعد دخولى الجامعة.

أصدر أخى وهو يتنكر فى ثياب أبى فرماناته الرجولية .

ممنوع لبس الكعب العالى . ممنوع تكحيل العينين ، أو تلوين الشفتين . ممنوع استبدال الضفيرتين بأى تسريحة أخرى . ممنوع السير «بمياصة» فى الشارع ، فيجب أن أسير كالعسكرى أو كالرجل . سلسلة من الممنوعات ، وسلسلة من التمرد على هذه الممنوعات .

* * *

تعودت بعد أن أنتهى من ارتداء ملابسى ووضع قدمى فى الحذاء ذى الكعب المنخفض ، تاركة ضفيرتى تستقران على كتفى أن أصيح بالموجودين وقد علقت حقيبتى إلى كتفى واحتضنت كتبى وأنا أقول :

ـ بايباى بقى يا جماعة ، أنا خارجة ، حاتأخر على الكلية .

وأعود لأستدرك قائلة بتلقائية وبراءة :

ـ أما أبص فى المراية أشوف لبسى شكله إيه .

وأتوجه إلى حجرة الصالون ذات الباب الآخر الذى يفضى إلى سلم البيت مباشرة ، والذى يقع على جانب منها الكونصول ذو المرآة الضخمة ، وأغلق خلفى باب الحجرة وأبدأ أول خطوة من خطوات التمرد . أرفع طرف السجادة حيث مخبئى السرى الجديد الذى لا يعرفه أحد ، فقد كانت السجادة من الكبر بحيث تمتد إلى ما تحت المقاعد والأرائك ، والتى لم تكن تتعرض للتنظيف الشامل إلا على فترات متباعدة . كنت أخفى **أسفل هذه السجادة أشيائى الثمينة وكنوزى الغالية، قلم أحمر الشفاة، وقلم الكحل،**

فما كنت آمن على دولابى وحقيبة يدى من عبث أيدى أمى. وفى لحظات أتحول من البنت ذات الوجه البرىء المغسول والضفيرتين المعقودتين. **وبفضل لمسات أدوات التجميل السحرية إلى شىء آخر، إلى «فتاة» أكثر جمالاً وأكثر أنوثة، ينسدل شعرها على كتفيها، وتتراقص قصتها على جبينها.**

وأعيد بسرعة مقتنياتى الثمينة إلى مكانها، وأغادر الغرفة من بابها المؤدى إلى سلم البيت وأغلقه خلفى بحرص وهدوء، ولكنى لا أتوجه للدرجات التى تؤدى إلى الشارع، بل أتسلل إلى السطوح؛ فرحلة التمرد الصباحية ما زال لها بقية. ففى السطوح وفى مخبئى السرى العتيق بين «الكراكيب» كانت تقبع آخر مقتنياتى الثمينة، الحذاء الأسود ذو الكعب العالى، الذى لم أكن أمتلك سواه. وتمتد يدى إليه فى لهفة وإعزاز، بينما أطوح بحذائى المنخفض من قدمى بين «الكراكيب» دون أن أستخدم يدى فى انتزاعه، وكأنما أود أن يتلاشى فى الهواء أو يذوب بين «الكراكيب». وأعود أهبط السلم بسرعة وفى حذر وأنا أسير على أطراف أصابعى حافية القدمين وقد احتضنت مع كتبى حذائى العزيز ذا الكعب العالى. وعندما أصل إلى باب المنزل المؤدى إلى الشارع، أسارع بوضع قدمى فى الحذاء الموعود، وأغادر المنزل فى خطوات متلصصة وأطوى الطريق بسرعة وأنا أتخفى وراء جذوع الأشجار.

وما أن أصبح على بعد كاف من المنزل، حتى يختلف وقع خطواتى مع إيقاع الكعب العالى، وتختلف معه اهتزازات جسدى وانتصاب قامتى وترتفع رأسى فى زهو وثقة فقد استكملت مظهر شخصيتى الجديدة، شخصية البنت الجامعية.

وكانت رحلة السطوح تتكرر دائمًا بعد عودتى، «فأدعك» وجهى لأزيل آثار المساحيق، وأعيد الضفيرتين إلى مكانهما، كما أعيد حذائى العزيز إلى مكانه وسط «الكراكيب» لأعود بعد ذلك إلى الشقة من بابها الرئيسى، وأدخل على أمى كما غادرتها فى الصباح بحذائى المنخفض ووجهى البرىء شبه المغسول.

وجاء اليوم الذى ضبطنى فيه أخى، فقد قابلنى فى الشارع بالمصادفة، رآنى وأنا أتخفى فى مظهر الأنثى؛ مظهر فتاة الجامعة.

وكانت المواجهة، ووقفت أمى فى صفه.

ووقفت وحدى أتحداهما، ووضعتهما أمام الخيار الصعب، خيرتهما بين الذهاب إلى

الكلية مع كامل حقى فى استخدام أدوات التجميل وارتداء الكعب العالى ، وبين أن أترك الجامعة وضياع حلم أمى فى استكمال دراستى الجامعية .

ولم أعد أخفى أدوات التجميل أسفل السجادة. ولم أعد أخفى حذائى الأسود ذا الكعب العالى بين الكراكيب فوق السطوح؛ فقد انتصرت إرادتى عندما تمردت.

* * *

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى أنتصر فيها عليهم بعد التحاقى بالجامعة . فقد انتصرت عليهم أيضًا عندما خططت للزواج ، ولكن بطريقتى .

وشددته إلى باب المأذون

رأيته للمـرة الأولى بعد عدة شـهور من التحـاقي بالكلية، وكنت مـا أزال أحـمل ضفيرتي المعقودتين ووجهي البريء المغسول.

كانت كليتنا قد نظمت رحلة إلى الحديقة اليابانية بحلوان، وانتابتني سعادة غامرة بين صديقاتي وزملائي، ولأول مرة خارج أسوار الكلية؛ فقد كانت من بين الممنوعـات الاشتراك في أي رحلة جماعية.

ولفت نظري أناقته وقد ارتفعت قامته بين مجموعة من الطلبة والطالبات وسألت واحدة من زملائي وأنا أشير إليه:

ـ الولد الطويل اللي هناك ده في قسم إيه؟

وعلمت منها أنه ليس «ولد» وإنما هو معيد في أحد أقسام الكلية.

وجاءت مربيتي تحمل صينية كبيرة مليئة بالأكواب الفارغة، ووراءها جاء أخي الذي يصغرني يحمل في يديه برادين عملاقين مليئين بالشاي؛ فلم يكن بيتنا يتسع لهذا العدد الغفير، ولم يكن من اللائق كما قالت أمي عدم تقديم التحية الواجبة.

ورأيت **«الولد الطويل»** قادمًا نحوي وكوب الشاي في يده؛ ليشكرني بعد أن عرف مصدر هذا الشاي، وتحدثنا سويًا للحظات، وعلم مني أنني من سكان حلوان، وأشرت له من مكاننا إلى بيتنا الذي كـان في مـواجهـتنا حيث كنا نقف داخل الحـديقـة. وقطعت حديثنا فتاة أكبر مني سنًا وأكثر مني أناقة وأكثر اهتمامًا بوجهها ومساحيقها وتسريحة شعرها؛ وتركته لها وانصرفت إلى صديقاتي. وعاد إليّ بعد دقائق وأنا بين مجموعة من الزملاء لنستكمل الحديث الذي كنا بدأناه. سألني عن مشواري اليومي من حلوان إلى كليتي في القاهرة، وخط سيري الدراسي، اهتماماتي، هواياتي، و.... و....

والتقطت كثيرًا من الأشياء المشتركة، والاهتمامات المتبادلة، ويبهرني أسلوبه في

الحديث، كما بهرني مظهره، وأخذتني ثقافته ومعلوماته التي خيل إليّ أنها لا تنتهي، والتي كانت نتاجًا للتسعة أعوام التي تفصل بين عمري وعمره.

وعادت نفس الفتاة، الفتاة الأكثر أناقة، والأكثر لفتًا للنظر وانتزعته من بيننا وكأنما هي صاحبة حق فيه، وتركته لها، وعدت أتنقل مرة أخرى بين صديقاتي، ونسيت تمامًا «الولد الطويل».

ونسيت الفتاة الأكثرة أناقة والأكثر لفتًا للنظر.

وتناهى إلى سمعي بعد بضع ساعات صوت فتاتين تتحدثان وأنا أقف خلف سور من الأشجار المتشابكة مع بعض صديقاتي، والتقطت أذناي الحديث:

قالت إحداهما:

ـ شكله كده إنه حيطير من إيدك، شفتيه وقف قد إيه مع البنت اللي جابت الشاي؟

وردت الثانية بصوت مفعم بالسخرية والاستهزاء:

ـ إنتي باين عليكي بتخرفي، مش ناقص إلا البنت المفعوصة أم ضفاير بتاعة سنة أولى، تروح جنبي فين دي؟

وكان هذا الصوت صوت الفتاة الأكثر أناقة والأكثر لفتًا للنظر، وكنت أنا هذه البنت المفعوصة أم ضفاير.

وقررت المفعوصة أم ضفاير أن تتحدى الأناقة، ومساحيق التجميل، والشعر المصفف.

وقد كان.

شددته باقي النهار بأحاديثي عن الأدب والأدباء، وعن الشعر والشعراء، وعن محاولاتي في الكتابة القصصية، وغرامي بالرسم والفن.

وشددته بعد ذلك إلى باب المأذون.

أنا.. وجه سينمائي جديد!

ولم ينج زوجي هو الآخر من نوبات تمردي، تمردت عليه لحظة أن شدني بريق الشهرة وعالم السينما، عندما أردت أن أكون ممثلة، عندما ظننت أنني قادرة على منافسة فاتن حمامة!

* * *

كانت الظروف قد قادتني في بداية إنشاء التلفزيون المصري إلى القيام ببعض الأدوار الثانوية في بعض المسلسلات والتمثيليات، حيث التقطني المخرج الراحل **«نور الدمرداش»** من المسرح الجامعي في أثناء قيامه بإخراج إحدى المسرحيات التي شاركت فيها من خلال مسابقات الجامعات في التمثيل المسرحي.

ورغم معارضة أسرتي الشديدة لعملي في المجال الفني إلا أنني نجحت في إقناعهم بأن عملي في التلفزيون لن يؤثر على دراستي في الجامعة، حيث كنت ما أزال في السنة الأولى، وأنني سألتزم بتقاليد العائلة المحافظة، ولن أنصهر فيما ينصهر فيه بعض الفنانين، واستشهدت ببعض الفنانات ذوات السمعة الطيبة ممن ينتمين إلى عائلات محترمة عريقة، واللائي حققن شهرة واسعة تتسم بالتقدير والاحترام.

* * *

وما هي إلا بضعة شهور منذ بدء عملي في التلفزيون حيث تم عقد قراني في هذه الفترة، حتى رآني في التلفزيون أحد المخرجين السينمائيين، الذي كان يبحث عن وجه جديد للقيام بالبطولة الثانية في أحد أفلامه السينمائية.

وكانت العقبة التي واجهتني آنذاك هي الحصول على موافقة أسرتي على العمل في السينما؛ نظرا لما يحيط الجو السينمائي من علامات استفهام، وهو ما كان يختلف في ذلك الوقت عن العمل في التلفزيون.

وهاجت أسرتي وماجت وأنا أزف إليهم خبر رغبتي في العمل في السينما . ووقف زوجي إلى جوارهم متخليا بذلك عن مساندتي التي كنت أعتمد عليها للوقوف في وجه أسرتي وتحقيق ذلك الحلم البعيد الذي لم أكن أطمع يوما في تحقيقه .

وحتي تتخلص أسرتي من إلحاحي وإصراري على العمل في السينما ؛ فقد ألقت عبء هذا الموضوع على كاهل زوجي ؛ بدعوى أنه قد أصبح المسئول الوحيد عني .

وحاولت كثيرا إقناع زوجي بأن تلك هي فرصة العمر بالنسبة لي ، وبأنني أمتلك الموهبة والمقدرة على أن أنافس أي ممثلة حتى ولو كانت فاتن حمامة ! أشهر الممثلات آنذاك وبذلت كل ما في وسعي لاستمالته في صفي ، ولكني فشلت وراحت كل محاولاتي أدراج الرياح .

ودفعني موقف زوجي إلى إعلان تمردي، وتمردت عليه بعد أن فشلت في إقناعه وبلغ تمردي عليه حد طلب الطلاق.

وكان زوجي أكثر ذكاء وأكثر تعقلا مني ، أدرك أن تلك التي تطلب الطلاق ، ليست إلا الفتاة المراهقة التي تسكن بداخلي ، وتتحكم في تصرفاتي ونزواتي ، ولذلك وافق على أن أعمل في السينما ولكن وفق شروطه .

* * *

كان العقد بيني وبين الشركة المنتجة للفيلم يحتم توقيع زوجي عليه ؛ لعدم بلوغي سن الرشد بعد الاتفاق على جميع بنوده .

واستغرقت المناقشات حول بنود العقد عدة جلسات ، نجح زوجي فيها في فرض مطالبه ، التي كانت هي مطالب أسرتي في نفس الوقت .

كان أهم هذه البنود هو عدم تصوير أي مشاهد بها قبلات أو مشاهد أخرى للإثارة ، أو ارتداء الملابس التي تكشف بعض أجزاء الجسد أو المايوه ، رغم أنني كسائر بنات هذا الجيل ، ووفقا للموضة آنذاك كنت أرتدي مثل هذه الملابس دون أن يكون في ذلك أي خروج على العرف والتقاليد ، مما جعل هذا الشرط يبدو لي وكأنه نوع من التناقض الصارخ غير المنطقي ، والذي لم أقف أمامه كثيرا ؛ فقد كان كل ما يهمني فقط هو أن يضع زوجي توقيعه على ذلك العقد .

وكان من بين شروط العقد أيضا أن يكون زوجي في صحبتي بصورة مستمرة سواء كان ذلك في أثناء البروفات أو في أثناء التصوير .

ورضخت الشركة لمطالب زوجى، وتم توقيع العقد.

وطرت فرحا به وأنا أحمله في حقيبتي في كل مكان أذهب إليه، والذى ما زلت أحتفظ به حتى الآن وأريه لكل من يأتى لزيارتنا لدى أسرتى، ولكل أصدقائى فى الجامعة أو الجيران، وكأننى طفل لا تسعه الدنيا من فرط سعادته لحصوله على لعبة جديدة.

ولم أكن أستحى من أن أبدو «كمحدثة النعمة» فقد تحقق لى الحلم الذى لا تستطيع آلاف الفتيات تحقيقه.

ولم يركبنى الغرور بذلك الإنجاز الذى كنت أراه إنجازا هائلا رائعا، ولكنه بعث فى نفسى قدرا كبيرا من الثقة في النفس، فقد وضع هذا العقد كما كنت أظن، وكما صورت لى أحلامى المراهقة قدمى على أول الطريق إلى مستقبلى كنجمة سينمائية. **وغشينى وهم كبير بأننى قادرة على منافسة كبريات النجمات، حتى ولو كن من الممثلات العالميات كصوفيا لورين، أو أودرى هيبورن.** ولم تحملنى أحلامى بعيدا، فقد استيقظت فجأة من ذلك الحلم الجميل. ولم يوقظنى أحد، لم توقظنى أسرتى ولم يوقظنى زوجى، وإنما أيقظت نفسى بنفسى عندما أدركت أن هذا الحلم لن يتحقق إلا على أشلاء القيم التى رضعتها والتى شببت عليها، وأن الطريق إلى تحقيق ذلك الحلم طريق عامر بالصعاب ملىء بالأشواك، التى لم تؤهلنى إمكانياتى وقدراتى واستعداداتى الخاصة على الخوض فيه ومواجهة مشاقه.

* * *

كان زوجى يرافقنى خلال الأسابيع الأولى بعد توقيع العقد فى أثناء ترددى على مقر الشركة المنتجة، ومع ذلك أدركت أن مخرج ذلك الفيلم الذى التقطنى من التلفزيون كأحد الوجوه الجديدة لم يكن فوق مستوى الشبهات، وأننى لن أكون فى الواقع وجها سينمائيا جديدا قبل أن أترك بصمتى على حياة هذا المخرج كامرأة جديدة، وهذا ما أكده لى فيما بعد أحد المخرجين السينمائيين المحترمين.

وتأكدت ظنونى فى المرات القليلة التى كان ينشغل فيها زوجى ببعض التزاماته أو عمله فى الجامعة، والتى كنت أتوجه فيها بمفردى إلى مقر الشركة؛ تمهيدا للبدء فى تصوير الفيلم.

فعندما أدرك مخرج الفيلم أننى لن أقبل أن أكون أى شىء آخر سوى ممثلة لأحد الأدوار السينمائية؛ بدأ حماسه لى واحتضانه لموهبتى ينتابه الفتور والبرود واللامبالاة؛ مما

جعلني أستيقظ من حلمي بالشهرة والنجومية والتألق على الواقع المر، ومما جعلني أتراجع عن المضي في ذلك الطريق بعد أن انطفأ بريقه، بل وبريق العمل في التلفزيون أيضا وأن أتحول إلى طريق آخر أكثر أمنا وأكثر سلامة وأكثر ملاءمة لاستعداداتي الفطرية، وهو أن أكتفي بمجرد كوني زوجة وطالبة وأم، والذى انتهى بى إلى أن أكون أستاذة جامعية.

* * *

وعلمتني تلك التجربة أن هناك أوقاتا للتمرد، وأن هناك أوقاتا للانصياع.

وإذا كنت قد تمردت على حلم مراهقتي في أن أكون نجمة سينمائية وانتصرت. إلا أنني عندما تمردت على الأرواح انهزمت وإليكم أول رحلة لي إلى عالم الأرواح والجن.

أرواح في سبت الخضار

تمردت على أمي وعلى أخي الذي كان يلبس ثياب أبي وانتصرت، وتمردت على أن أكون فرجة للعرسان وانتصرت، ولكن حياتي لم تكن سلسلة من الانتصارات فقد هزمتني الأرواح، هزمتني الأرواح عندما حاولت التمرد عليها.

وانتصرت عليّ الأرواح عندما أرادت أن تقتلني بالسم.

* * *

كان ذلك بعد وفاة أبي بعدة شهور، عندما تربع «سبت الخضار» على قمة منضدة حجرة المعيشة؛ فقد قررت مع أخوتي أن نستحضر الأرواح بنفس الطريقة التي أشار إليها أنيس منصور في إحدى مقالاته التي نشرت بجريدة الأخبار في ذلك الوقت.

وتم تغطية أعلى «السبت» بأحد المفارش الصغيرة البيضاء، الذي وضع أعلاه ورقة بيضاء خالية إلا من رسم بدائي لوجه آدمي وعينين وأنف وفم قمت أنا بتخطيطه، كما تم «حشر» قلم رصاص في قاعدة «السبت» يتجه سنه إلى أسفل.

وجلست أمام «السبت» من جانب وبأصبعيّ السبابة اليمنى واليسرى حاولت رفع السبت من جانبيه، وفي مواجهتي جلس أخي الذي يصغرني ممسكا «السبت» بأصبعيه مثلما فعلت ليساعدني في رفع «السبت» من جهته. وعلى المنضدة كانت هناك ورقة بيضاء خالية.

ونزلت أيدينا معا «بالسبت» ونحن نحاول الاحتفاظ بتوازنه، وارتكز سن القلم على الورقة البيضاء.

الآن تم التجهيز لكل ما هو مطلوب وعلينا أن نبدأ المغامرة.

وبدأنا جميعا في «نفس» واحد، أنا وسائر أخوتي وإحدى بنات الجيران، قرأنا الفاتحة

ثلاث مرات، وقل هو الله أحد ثلاث مرات، وسورة الكوثر ثلاث مرات، ثم طلب أحدنا حضور روح والدى (فلان بن فلانة)، وانتهى دورنا فى عملية التحضير.

وبدأ قلبى يدق بشدة، وسألت فى خوف وتوجس وبصوت هامس احتراما لأبى العائد إلينا من خلال روحه:

ـ هل حضرت الروح؟

ولفنا الصمت والترقب، فقد قال أنيس منصور فى مقاله إن «السبت» سيبدأ فى التحرك عند حضور الروح ووفقا لما سوف يخطه القلم.

ولم يحدث شيء... أى شيء..

ولم أيأس، وعدت مع أخوتى نردد الآيات، وعدت مرة أخرى أسأل فى لهجة مؤدبة ممزوجة بالأمل:

ـ هل حضرت الروح؟

ولم يجد أى جديد، لم تحضر الروح.

وقال أخى وهو يتململ فى مكانه:

ـ يا شيخة إنتى صدقتى اللى كاتبه أنيس منصور، ده كلام جرايد.

ومرت بنا أمى وهى متجهة إلى دورة المياه، وتوقفت لحظة وهى تنظر إلىّ فى عتاب آمر قائلة:

ـ إيه التخاريف اللى بتعملوها دى، كل واحد يقوم يشوف مذاكرته.

وتطوعت أنا بالرد عليها قائلة:

ـ حاضر يا ماما، دقيقة واحدة.

وما أن انصرفت أمى من أمامنا، حتى قالت أختى الصغيرة التى لم تبلغ السابعة من عمرها:

ـ طب يا للا نقول من أول وجديد.

وأعدنا ترديد الآيات، وعاندتنا الروح مرة أخرى، ورفضت أن تحضر.

وانتاب اليأس والملل أخى؛ فقد فشلت المغامرة التى ضحى من أجلها بالخروج مع

أصدقائه، وسحب الكرسي من تحته مغادرا مكانه وترك «السبت» من يده، وقبل أن يقع السبت تلقفته أختي الصغيرة وأخذت مكان أخي وهي تقول :

ـ أنا اللي حامسك السبت يا لّلا نقرا القرآن تاني .

وما كدنا نوازن ثقل السبت سويا حتى حدثت المعجزة، لقد حضرت الروح.

تحرك «السبت» في سلاسة ويسر وفي حركة متناغمة، وخط القلم بعض الخطوط على الورقة البيضاء.

كتب القلم بخط جميل كلمة «نعم» .

وصحنا جميعا في وقت واحد وفي نبرة تجمع بين الانتصار والرعب قائلين :

ـ الروح حضرت!! الروح حضرت!!

وانحنيت على «السبت» وكأن والدي محشو بداخله، وسألت في أدب ممزوج بالرهبة قائلة :

ـ هوه احنا معانا روح مين؟

وكتب القلم بخط جميل ودقيق .

ـ أنا روح أبيكم فلان ابن فلانة!

وتعالى صوت أختي مصحوبا بنظرة مليئة بالاتهام قائلة :

إيه ده يا نادية؟ إنتي بتستعبطي؟ إنتي اللي بتحركي السبت .

وصحت فيها أبادلها الاتهام قائلة :

ـ إنتي اللي بتستعبطي، إنتي اللي بتحركي السبت. لأن الكتابة بتتكتب من ناحيتك، وأنا ما أقدرش أكتب بالمقلوب .

وصاحت أختي ترد الاتهام وقد امتلأ صوتها بالصدق :

ـ والله العظيم ما أنا اللي باكتب، هوه أنا لسه باعرف أكتب .

وقلت لأفض الاشتباك وأنا أعدل من وضع الورقة :

ـ خلاص، حنخلي القلم يكتب من الجنب، ولا ناحيتي ولا ناحيتك، ولو كتب القلم يبقى لا أنا اللي باكتب، ولا إنتي اللي بتكتبي .

وكتب القلم فى ظل الوضع الجديد.

وصاح أخى وهو يشير إلىّ بأصبعه فى اتهام قائلا:

ـ تلاقيكى يا نادية إنتى اللى بتحركى السبت وتكتبى من غير ما تحسى.

وتعالى صوتى وأنا أدفع التهمة قائلة:

ـ والله العظيم أبدا، والله أنا ما باحرك السبت.

وعدت لأصيح بأعلى صوتى منادية:

ـ يا إحسان، يا إحسان.

وجاءت إحسان، مربيتنا الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب... وتركت لها مكانى وأنا أقبض على معصميها، وأضع أصبعى يديها قسرا على جانبى «السبت» وهى تحاول أن تتملص من قبضتى قائلة:

ـ سيبينى أروح لشغلى، هوه أنا فاضية للدلع بتاعكوا ده.

وأمسكت بكتفيها لألصقها بالكرسى، وأدرت الورقة بتجاهها بحيث تكون الوحيدة المتمكنة من تحريك «السبت».

واستمرت المعجزة.

«فالسبت» يتحرك والقلم يكتب ليرد على أسئلتنا الساذجة التى نمتحن بها صدق الروح الموجودة.

احنا اسمنا إيه؟ ماما اسمها إيه؟ أنا فى سنة كام؟... ؟... ؟

* * *

كنا لا نزال فى شك من الأمر برمته عندما توقفت أمى لبرهة وهى متوجهة من دورة المياه إلى غرفة نومها، وقالت لنا بغضب:

ـ بطلوا تضييع وقت وكل واحد يقوم يشوف حاله.

وكانت المفاجأة غير المتوقعة!

تحرك «السبت» بمفرده ودون أن نوجه إليه أى سؤال!!

وصحت بأعلى صوتى:

ـ استنوا يا جماعة شوفوا اتكتب إيه؟

وقرأنا ما كتبه القلم:

ـ خلو أمكم تروح تصلي.

ولمحت أمي العبارة المكتوبة والخط الدقيق الذي ارتسم على الصفحة البيضاء. ورفعت أمي يدها إلى صدرها في فزع، وأخذت تتراجع إلى الوراء وهي تردد قائلة:

ـ سلام قولا من رب رحيم، ده أنا لسه مخلصة وضوء وكنت داخلة أودتي عشان أصلي...

وهرولت أمي إلى حجرتها لتصلي.

* * *

وهكذا بدأت اللعبة.

اكتشفنا شيئا من خلال هذه اللعبة.

اكتشفنا أن أختي الصغيرة، هي الوسيط الأساسي في عملية التحضير.

وحاولنا استبعادها أكثر من مرة، وحاولنا تحضير الأرواح دون أن تكون طرفا فيها وفشلنا، فلم يكن أي منا فيما عداها على مزاج الأرواح.

وقيل لنا إن شفافية وبراءة الأطفال الصغار هي التي تستقطب وتجتذب الأرواح.

وأجرينا التجربة مع أطفال الجيران والأسرة، ولكن التجربة لم تنجح سوى مع طفل آخر وحيد في الخامسة من عمره.

كانت أختي وهذا الطفل هما الوسيطان الوحيدان اللذان قبلت الأرواح أن تتعامل معهما.

لماذا؟ لا أحد يدري.

* * *

أصبحت شقتنا ولعدة أسابيع مسرحا مفتوحا بلا تذاكر طوال ساعات النهار وجزءا من الليل، أمام الأهل والجيران والأصدقاء، نستعرض فيه اكتشافنا الجديد المذهل.

ورفضت أرواح الموتى جميعا التى تم استحضارها الإجابة على أى سؤال من الأسئلة التى تتعلق بالغيب أو الأسرار ، فعندما كنت أسأل :

ـ أنا حانجح واللا لأ؟

كان ردها :

ـ الله أعلم .

أنا حاتجوز مين؟

ـ الله أعلم .

ممكن تجيبى لى الامتحان؟

ـ لأ ما أقدرش .

مين اللى سرق الشىء الفلانى؟

ـ ما أقدرش أقول .

الأرواح ليها عالم خاص بيها؟

ـ نعم .

العالم ده شكله إيه؟ أو نظامه إيه؟

ـ ما أقدرش أقول .

ويئسنا من استخلاص أى معلومة مفيدة من الأرواح.

واكتفينا بالتعامل معها من باب التسلية.

وكدت أدفع حياتى ثمنا لهذه التسلية.

* * *

دخل أخى فى أثناء إحدى جلسات التحضير وصاح متسائلا :

ـ هيه إحسان فين؟

وردت أختى قائلة :

ـ خرجت ، ما أعرفش راحت فين .

وتحينت الفرصة لاختبار مدى «مهارة وشطارة» الأرواح، وتوجهت إلى الروح التى كانت معنا بالسؤال قائلة :

ـ هيه إحسان فين دلوقتى؟

ـ فى محل عم فلان .

وعدت أسأل :

ـ واشترت منه إيه؟

ـ اشترت كذا وكذا .

ولم تكد إحسان تصل المنزل؛ حتى بدأنا فى استجوابها للتأكد من مدى صدق الروح، وكانت الروح صادقة .

وبدأت إحسان «تستظرف» اللعبة وتشاركنا اختبار «شطارة» الأرواح .

كانت لا تكاد تشعر أننا فى جلسة تحضير الأرواح، حتى تندفع داخل الحجرة وهى تمد يدها وقد أطبقت قبضتها قائلة :

ـ لو الروح اللى معاكو شاطرة تقول أنا فى إيدى إيه؟

أو تقول : أنا فى جيبى إيه أو كام؟

وكانت الروح دائما وفي كل مرة قادرة على رؤية كل ما في الأيدي وداخل الجيوب، أي أيدي، وأي جيوب.

* * *

كانت معنا روح أبي.

وكانت الأسرة ومجموعة من الأصدقاء والأقارب يتابعون الجلسة باستغراق وانبهار، وفجأة انطلق فى الخارج وعلى البعد دوى هائل ولعدة مرات متلاحقة. وأسرعنا نسأل الروح :

ـ إيه ده؟

وكتبت الروح :

ـ ده صوت الرصاص .

ـ مين اللى بيضرب الرصاص؟

وكتبت الروح :

ـ البوليس .

ـ ليه؟

وكتبت الروح :

ـ البوليس قتل محمود سليمان السفاح .

ـ قتلته فين؟

ـ فى المغارة اللى كان مستخبى فيها فى الجبل .

وقال أحد الجالسين :

ـ اسألوا الروح عن اسم أم محمود السفاح إيه؟

وسألناها ، وأجابتنا .

واستحضرنا روح محمود السفاح قبل أن يجف دمه.

وطلبت الروح أول ما طلبت كوب ماء.

وأحضرنا كوب الماء ، وارتفع «السبت» قليلا فى الهواء ، وتحرك تجاه الكوب ، ثم انخفض مرة أخرى حتى دخل القلم الكوب ولامس الماء ، ورأينا الماء يتناقص تدريجيا ويبطء إلى النصف .

ولم نستخلص من هذه الروح أى شيء ، فقد توسلت إلينا أن نصرفها وصرفناها .

وعلمنا فى اليوم التالى ، ومن خلال الجرائد ونشرات الأخبار أن البوليس قد قتل محمود السفاح فى إحدى مغارات جبل حلوان .

ومنذ ذلك الوقت بدأت الأرواح تلعب لعبة جديدة.

* * *

كنا لا نكاد نستحضر الروح ، أى روح ، حتى تطلب منا شيئا من الأطعمة أو الأشربة .

فى إحدى المرات ، طلبت ثمرة من جوز الهند ، وظلت معنا فى المنزل وهى ترفض الانصراف حتى عادت إحسان بها من السوق .

ووضعنا الثمرة بكاملها دون أن نكسرها على المنضدة ، وارتفع «السبت» قليلا فى الهواء ، وأخذ يتحرك فى حركة دائرية ويتحرك معه القلم حول ثمرة جوز الهند .

وتحرك «السبت» مرة أخرى ليهبط القلم على الورقة، وكتب القلم هذه العبارة:

- خللوا (. . .) تاكل جوزة الهند لوحدها، ومحدش ياكل منها معاها.

وكتب القلم اسم أختي الصغيرة، الوسيطة الدائمة في جلسات تحضير الأرواح.

وفي المرة التالية، طلبت الروح كيلو من التفاح، وحضرنا التفاح، وحدث نفس ما حدث من قبل، وطلبت الروح أن تأكل أختي الصغرى كيلو التفاح كله.

وتكررت أمثال هذه المطالب مرات ومرات، وكان الطلب الوحيد الذي يتكرر هو ضرورة أن تأكل أختي الصغيرة كل ما تم إحضاره من مأكولات دون أن يشاركها فيه أحد.

وتمردت كعادتي عليها.

تمردت على أوامر الأرواح.

فلم أكن أكاد أتأكد من انصراف الروح، حتى أسارع بالهجوم على ما طلبته الروح من مأكولات مطمئنة إلى أن الروح قد غادرت المكان.

وكان من بين المرات الغريبة والشاذة تلك المرة التي طلبت فيها الروح سيجارة مشتعلة.

وأمسك أحد الحاضرين بالسيجارة المشتعلة بين أصابعه، وارتفع «السبت» قليلا في الهواء وتحرك في اتجاه السيجارة، حتى لامس القلم فلترها، وبدأ الدخان يتصاعد بكثافة في أنفاس متلاحقة، حتى احترقت السيجارة إلى النصف، ثم طلبت الروح أن تنصرف فورا، وأن تستكمل أختي الصغيرة تدخين السيجارة، وقد كان.

* * *

وبدأت الأرواح تلعب معنا لعبة جديدة من بين ألعابها العديدة، فقد بدأت الأرواح تضيف إلى مطالبها طلبا جديدا، طلبا ثابتا لا يتغير أبدا في كل مرة.

كانت العبارة الوحيدة التي يكتبها القلم دائما عندما نحاول صرف الروح هي خدوا (. . . . .) للدكتور علشان هيه عيانة، وكان القلم يكتب دائما اسم أختي الصغيرة، الوسيطة المقربة والمحببة إلى الأرواح.

ولم تكن أختي الصغيرة في ذلك الوقت تعاني من أي ظاهرة مرضية على الإطلاق بل كانت تبدو في تمام الصحة واللياقة، وسخرنا جميعا من هذا المطلب الشاذ المتكرر، ولم نذهب بأختي إلى أي طبيب.

* * *

وتكررت ألاعيب الأرواح بعد أن أصبح استحضارها هو تسليتنا الوحيدة . وشغلنا الشاغل ، فقد بدأت «تسوق» «العوج» عندما كنا نصر على استبقائها وعدم صرفها بسرعة كما كانت تطلب ، فأصبحت تكتب حتى ولو كان ذلك مجرد كلمة «نعم» بخط «مشخبط» وبحروف كبيرة متعرجة قد تشمل الورقة كلها ، على حين أنها كانت فى الأسابيع الأولى لممارستنا هذه اللعبة تكتب دائما وبخط جميل صغير على سطور الورقة بطريقة منتظمة وكأنها يد خطاط ماهر .

وبدأت الأرواح تتمرد علينا.

ملّت اللعبة معنا وملّت تسخيرنا لها واستحضارنا إياها.

فلم نعد نعجبها ولم نعد على «مزاجها».

ففى اللحظة التى يتم فيها استحضار الروح أصبح القلم يكتب تلقائيا وبسرعة بعض العبارات التى تشير إلى اعتراضها على استحضارُها إياها ، مثل :

ـ اصرفونى أنا عندى اجتماع ، أو . . .

ـ اصرفونى أنا رايحة أصلى ، أو . . .

ـ اصرفونى أنا مش فاضية ، أو . . .

ـ بطلوا إنكم تحضرونى ، أو . . . . أو . . . . أو . . . .

ـ ولم «نبطل»، ولم نتوقف، واستمرت اللعبة.

* * *

وكتبت الروح يوما بعد أن استحضرناها :

ـ أنا مش الروح اللى طلبتوها .

وسألنا : أمال إنتى روح مين؟

وكتبت : أنا روح هايمة .

وسألنا : كنتى رايحة فين؟

وكتبت : كنت رايحة مشوار .

ألم تكن روحا «بنت نكته»؟

* * *

وسألت الروح ذات مرة :

القرآن بيقول «ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربى»، هوه أنتم أرواح واللا إيه بالضبط؟

وكتبت الروح :

ـ إحنا مش أرواح .

ـ وسألت : أمال أنتم إيه؟

وكتبت الروح :

ـ إحنا جن .

وقلت :

ـ أمال ليه كل الأرواح اللى حضرناها كانت بتقول إنها أرواح؟

وردت :

ـ كلهم (كدابين) .

واكتشفت أن الكذب غير قاصر على أبناء آدم وحواء فقط...

* * *

ولم تكن الأرواح «كذابة» فقط، بل كانت أيضا عدوانية في دفاعها عن كرامتها.

فقد حدث أن كانت أختى الصغيرة تشترك مع طفلة من بنات الجيران لم تتعد الخامسة من عمرها فى حفظ توازن السبت بأطراف أصابعهما الأربعة، بينما اكتفيت بمهمة توجيه الأسئلة واستعراض عضلاتنا فى السيطرة على عالم الأرواح أمام مجموعة من الأصدقاء، عندما ترامى لنا صوت إحدى صديقات أمى فى الصالة وهى تقول باستخفاف :

ـ أرواح إيه اللى قاعدين يحضروها دى، هوه فيه حاجة اسمها أرواح واللا نيلة؟

وما أن ظهرت هذه السيدة فى فراغ باب الحجرة المفتوح، وقبل أن تخطو داخلها حتى انفلت «السبت» من يد الطفلتين فى عنف طائرا فى الهواء كالقذيفة «ليلبس» فى وجهها بقوة أفقدتها توازنها وألقت بها إلى الأرض .

ولم تدخل هذه السيدة بيتنا منذ ذلك اليوم إلا بعد أن تأكدت أننا نفضنا أيدينا من مغامرة تحضير الأرواح.

عندما أصرت الروح على قتلى

وكانت النهاية، نهاية اللعبة الخطيرة، لعبة اقتحام عالم الأرواح.

* * *

كانت الساعة العاشرة صباحا، عندما كنا نستعرض فى ثقة وزهو أمام واحد من أقارب أمى من كبار السن مهارتنا فى ممارسة لعبتنا المفضلة.

وحضرت الروح وأدركنا أنها غير راضية مثلها فى ذلك مثل باقى الأرواح عن استحضارنا لها، فقد كتبت كلمة «نعم» عندما وجهنا سؤالنا التقليدى: هل حضرت الروح؟ كتبتها بذلك الخط «المنعكش» الذى ملأ الصفحة بأكملها.

وأحضرنا ورقة جديدة لنستكمل الجلسة، وقبل أن نوجه لها أى سؤال، فوجئنا بها تكتب عبارة كبيرة ملأت بها الصفحة كلها:

ـ أنا عايزة سم!

وأسرعت بوضع ورقة جديدة أسفل السبت، وعدت أسألها وأنا أكذب عينى:

ـ عايزة إيه؟

وعادت تكتب:

ـ عايزة سم!

ووقع قلبى فى قدمى خوفا على أختى الصغيرة.

وانتصبت أمى فى جلستها، ونظرت إلىّ غير مصدقة، وهى تقول فى هلع:

ـ سم إيه اللى الروح عايزاه، هيه عايزة تموت أختك واللا إيه؟

وسألت الروح أستوضحها وأنا أرتجف:

ـ عايزة السم تعملى بيه إيه؟

وكتبت الروح:

عايزه السم لنادية لأنها ما بتسمعش كلامنا، وبتأكل مع أختها الحاجات اللى بنطلبها لها.

وشملتنى رعدة، وارتجفت ساقاى، وتسارعت دقات قلبى فى عنف معربد إنها تريد السم من أجلى، تريد أن تقتلنى.

وأمرتنى أمى بلهجة مشحونة بالرعب والهلع أن أصرف الروح بسرعة.

واندفعت لتوى آمرها بالانصراف، وقد أخذت أسنانى تصطك من الخوف وأنا أقول:

أيتها الروح، انصرفى بسلام. أيتها الروح، انصرفى بسلام.

وداخلنى شك فى أن تكون قد سمعتنى.

وعدت أقول بصوت مرتجف متوسل:

ـ أيتها الروح انصرفى بسلام.

وانتظرت لحظة صغيرة، وعدت أسأل فى قلق وترقب وأنا أهمس:

ـ هل انصرفت الروح؟

وتحرك القلم، وخط القلم على الورقة بأكملها كلمة كبيرة:

ـ لأ، أنا عايزه نادية تموت بالسم.

وكانت هذه هى المرة الأولى منذ أن بدأنا اللعبة التى لم تستجب فيها الروح للأمر بالانصراف بعد إلقاء السلام.

ونظرت أمى فى هلع، وصحت أستنجد بها قائلة:

ـ إلحقينى يا ماما، الروح مش عايزه تنصرف.

وانطلقت أمى تقرأ بصوت عال كل ما تحفظه من القرآن.

وانضم إليها الضيف يردد كل ما يعرفه من أدعية.

وانتاب أختى الصغيرة حالة من الهلع والخوف، ورمت «السبت» من يدها بعيدا عنها، وهبت من مقعدها منطلقة خارج الغرفة. وهجمت عليها، وأعدتها بعنف إلى المقعد

الذى قلبته فى فزعها، وقبضت على يديها باستماتة لتسند أمامى «السبت» بطرف أصابعها، فقد كنت أدافع عن حياتى وعن وجودى، وبدون أختى لن نستطيع صرف هذه الروح «الشراتية».

واندفعت أصرف الروح مرة أخرى بطريقة هستيرية وأنا أكاد أصرخ:

ـ أيتها الروح، انصرفى بسلام.

ولم تنصرف الروح، وأصرت على إحضار السم.

واستغرقت محاولاتنا فى صرفها طوال اليوم، وأحضرت أمى مصاحف البيت كلها وأجلستنا جميعا نردد آية الكرسى بصوت عال.

وعدت «للسبت» أنا وأختى عشرات المرات خلال ذلك اليوم وحتى ساعة متأخرة من الليل، ومن بين دموعى التى لم تجف منذ الصباح كانت تخرج كلماتى المتوسلة الضارعة أطلب من الروح أن تنصرف، وأعدها بحرارة وصدق بالتوقف تماما عن استحضار أى مزيد من الأرواح.

ولم تستجب الروح... أصرت على أن «تبلط» فى البيت.

وانتابتنا جميعا حالة من الهلع والفزع، إلى أن «حنت» علينا الروح أخيرا، وأخيرا جدا، وانصرفت.

* * *

ومنذ تلك الليلة التى لا تنسى توقفنا عن هذه اللعبة الخطرة، وتركنا الأرواح «لحالها».

ولم تمض إلا بضعة أيام على ذلك الموقف الدرامى الذى عانينا فيه من عناد الأرواح «وزرجنتها» وإصرارها على التخلص منى لتمردى عليها وعصيانى لأوامرها، حتى وقعت أختى الصغيرة فريسة للمرض.

وأخذتها أمى للطبيب، واتضح بعد إجراء الفحوص الطبية أنها تعانى ومنذ أسابيع من مرض الباراتيفود، رغم عدم ظهور أى أعراض مرضية عليها.

وعرفنا لماذا كانت تصر الأرواح على عرض أختى الصغيرة على الطبيب.

* * *

قهرتني الأرواح وأجبرتني على الابتعاد عن عالمها.

ولكن ذلك كان إلى حين.

بعد ثلاثين عاما تقريبا عدت إليهم، عدت إلى عالم الأرواح والجن.

لماذا...؟

أين...؟

كيف...؟

للحديث عن الأرواح والجن بقية!!

عندما ماتت أختى ثم عادت لها الروح!

قبل أن أطوى صفحات تجربتى الأولى مع الأرواح والتى كانت شقيقتى الصغرى بطلتها الرئيسية ، فإننى أود أن أشير إلى ظاهرة غيبية خارقة كمؤشر على مدى شفافيتها ، رغم أنها كانت قد قطعت صلتها تماما بعمليات تحضير الأرواح بعد تلك التجربة المفزعة ، التى أصرت فيها الروح على قتلى بالسم .

فقد حدث بعد تلك التجربة بنحو اثنى عشر عاما ، حيث كانت قد تزوجت منذ شهور فقط أن أقمت حفل عشاء كبير فى بيتى لمناسبة ما فى إحدى ليالى الصيف ، وكان من المقرر أن تحضر أختى وزوجها هذا العشاء . وفوجئت بحضور زوج شقيقتى بمفرده والذى اعتذر عن عدم حضور زوجته بسبب وعكة صحية طارئة ، وطمأننى إلى أنها بخير وأنها لا تحتاج إلا لبعض الراحة وأنها قد آوت إلى الفراش بالفعل قبل مغادرته المنزل .

وانتهى الحفل بما صاحبه من دردشات وأحاديث حوالى الساعة الثانية صباحا ، حيث آويت إلى فراشى مباشرة بعد خروج آخر المدعوين من المنزل ، وحيث رحت لتوى فى سبات عميق لم أصح منه إلا الساعة السابعة صباحا على صوت رنين التليفون المتواصل الذى أخذ يرن فى إصرار ، لم أتمالك معه إلا الرد عليه . وجاءنى صوت زوج أختى من الطرف الآخر ، وهو يقول فى لهجة اعتذار :

- معلهش يا نادية إنى صحيتك من النوم .

وقبل أن أتمكن من الرد عليه ، سألنى بجدية يشوبها نوع من الاتهام قائلا :

- إنتى كلمتى أختك بالليل بعد ما خرجت من عندكم؟ أو كلمتيها النهارده الصبح؟

ورددت عليه ، وقد غشيتنى موجه من التوجس والقلق قائلة :

- أبدا ، أنا لا كلمتها ولا هيه كلمتنى ، خير فيه إيه؟ هيه تعبانة؟ جرى لها حاجة؟

وأجابنى زوج أختى مطمئنا إياى بأنها بخير ، واستأنف يقول فى صوت مرتجف غير مصدق هامس ، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد :

ـ أنا مش مصدق اللى حصل ، أختك دى مش طبيعية ، فيه حاجة غريبة جدا حصلت لها امبارح بالليل بعد ما سبتها ، حاجة عمرى ما كنت أصدق إنها ممكن تحصل .

وقاطعته فى قلق وأنا أستحثه على الكلام :

ـ إيه بس اللى حصل؟ قلقتنى ، فيه إيه؟

وحكى لى ما حدث . قال إنه عند عودته لمنزله بعد انتهاء سهرة الأمس ، وجدها مستغرقة فى النوم تماما ، وأنها استيقظت فقط منذ لحظات عندما كان يهم بمغادرة الفراش استعدادا للانطلاق إلى عمله ، حيث استوقفته بإشارة من يدها وهى تعتدل جالسة فى الفراش ، وهى تقول :

ـ اللهم اجعله خير ، حلمت حلم غريب قوى ، غريب قوى .

ورد عليها زوجها يقاطعها قبل أن تبدأ فى سرد الحلم ، وهو يضحك قائلا :

ـ تانى مرة ابقى اتغطى كويس .

ولم تجاريه شقيقتى فى هذره ، بل بدأت تقص عليه حلمها .

قالت : إن جزءا من وعيها فى بداية الحلم كان يدرك أنها نائمة عندما غادر زوجها المنزل فى طريقه إلى حفل العشاء ، وأحست فجأة أن جسدها قد بدأ يرتخى ويتهاوى فى الفراش ، حتى أصبح مجرد جثة هامدة حيث أدركت أنها قد ماتت . وفى نفس اللحظة رأت أن هناك غلافا أو هالة شفافة لها نفس تفاصيل وشكل وملامح جسدها قد انفصلت عن ذلك الجسد الميت ، وأخذت تنساب فى بطء منه ، ثم أخذت تعلو فى بطء لتسبح فى فراغ الحجرة ، حيث أصبحت أختى مجرد روح مستقلة تماما ، وهى ترقب ذلك الجسد الذى غادرته للتو وهو ملقى على الفراش . وأعقب ذلك أن انسلت الروح من نافذة حجرة النوم المفتوحة ، التى تقع فى الطابق السادس من العمارة ، وحلقت طائرة فى السماء على ارتفاع منخفض ، وأنها كانت ترى فى أثناء طيرانها كل معالم منطقة روكسى بمصر الجديدة ، حيث يقع بيتها غرب نادى هليوبوليس وقريبا من ميدان روكسى حتى وصلت إلى بيتى الذى يبعد عن بيتها بنحو كيلو متر واحد فى الطرف الشرقى من ميدان روكسى . وحطت الروح وهى فى صورتها الشفافة على شرفة شقتى المطلة على الشارع والتى تقع فى الطابق الثالث ، حيث تقدمت إلى باب الشرفة المفضى إلى قاعة الاستقبال الممتلئة بالضيوف ، ووقفت تراقب كل ما يحدث فيها دون أن تتخطى عتبتها .

وبينما كان زوج أختي يقص عليّ ما روته أختي له كان عقلي يفسر ذلك: بأن عقلها الباطن كان يرغب بشدة حضورها حفل العشاء مع زوجها، وأن ما قصه عليّ لا يعدو أن يكون مجرد حلم لا غرابة فيه ولا مغزى له. إلا أن صوت زوج أختي المغلف بالرهبة وهو يستكمل القصة، أرسل الرعدة في أوصالي، فقد راحت شقيقتي تقص عليه تفاصيل حفل العشاء كاملا وكأنها كانت بيننا بشحمها ولحمها، حيث عددت له أسماء الضيوف رجالا ونساء، وأين كان يقف أو يجلس كل منهم وأنواع الأطعمة التي امتلأت بها مائدة الطعام وتعليقات الضيوف وأحاديثهم وحواراتهم.

وعاد زوج أختي يقول لي وهو يختتم قصته أن أختي قد أصابها الفزع عندما أخبرها بصحة كل الأحداث التي وقعت والتي قصتها عليه!

وتناولت مع زوج شقيقتي قبل أن ننهي مكالمتنا قدرات زوجته غير المفهومة وغير المبررة، عندما كانت تقوم بدور الوسيط في أثناء استخدامنا للسلة في تحضير الأرواح وهي ما زالت طفلة، وأنها ربما تمتلك قدرا من الشفافية التي حباها بها الله دون الآخرين.

ولم أترك قصة هذا الحلم تمر مرور الكرام بسبب غرابتها الشديدة باعتبارها ظاهرة خارقة، حيث ناقشتها مع بعض الأصدقاء من علماء النفس وعلماء الدين، وحيث اتفق التحليل المنطقي لذلك الحلم مع قوله تعالى: «الله يتوفى الأنفس حين موتها».

***

لقد مرت شقيقتي بالفعل بتجربة الموت المؤقت، حيث انسلت روحها من جسدها لبعض الوقت ثم عادت إليه مرة أخرى، وأن انفصال الروح عن جسدها لم يكن انفصالا كاملا حيث شارك وعيها كجزء مادي رحلة الروح التي غادرت الجسد، كما احتفظت ذاكرتها المادية بتفاصيل هذه الرحلة الروحية خلال وفاة الجسد وبعد عودة الروح إليه.

فسبحان الله وسع كل شيء علما.

الجنى الذى يعربد فى رأسى

أنجبت ابنى الأول وأنا فى السنة الثانية بالكلية ، وابنتى بعد ذلك بخمس سنوات . وشاركت زوجى رحلته وهو يخط مستقبله فى السلك الجامعى ، وشاركنى رحلتى فى استكمال دراستى الجامعية . حصلت على الماجستير، وكنت قد حصلت لتوى على درجة الدكتوراه عندما حدث ما أعادنى مرة أخرى إلى طريق الأرواح والجن والعفاريت.

* * *

زارنى الصداع، وكان ذلك فى أواخر عام ١٩٨٢ .

وكان ضيفا ثقيلا «رذيلا» أنام به وأصحو عليه ساعات اليوم الأربع والعشرين .

جولات ورحلات أسلمتنى من طبيب إلى آخر ، وقال الطب كلمته : الصداع الذى يزلزلنى هو صداع نفسى .

ولم أصدق الأطباء ولكنى استسلمت لهم .

«وبلبعت» كل أنواع مضادات الاكتئاب والقلق والصداع يلازمنى .

وبدأت أضيق بأطباء الأمراض النفسية وحاولت أن أتمرد عليهم.

ناقشتهم، حاورتهم ، اعترضت على تحليلاتهم وتفسيراتهم؛ فأنا آخر من ينطبق عليه مصطلح مريض نفسى . حياتى مليئة بالأنشطة والهوايات المتعددة ، داخلى يحيا فى توافق وتواؤم مع خارجى ، أحب الحياة وأنفتح عليها بلا حدود ، لا شىء يقف أمام تحقيق طموحاتى وإرادتى ، أحب أن أحيا بين الناس وأن أحيا لهم . يا عالم ، يا هوه ، أنا لست مريضة نفسيا ، ولم يستمع لى أحد ، ولم يصدقنى أحد .

وأقنعنى أطبائى أن الذى يعانى من الاكتئاب النفسى لست أنا ، بل هو جهازى العصبى اللاإرادى ، ولعنت هذا الجهاز اللعين الذى يتحكم فى إرادتى .

وأصابتني تحليلاتهم وأدويتهم فعلا بالاكتئاب، وانسحبت لعدة شهور من الحياة واستسلمت للمرض وللصداع الذى احتل رأسى كالاحتلال الإنجليزى، لا أريد أن أرى أحدا أو أن يرانى أحد، فأنا دائما فى الفراش تعبانة، زهقانة، قرفانة، رأسى يضج بالوجع والألم. وداومت على «بلبعة» حبوب العلاج النفسى. ولم تعالج الحبوب المرض النفسى الذى أصابنى بالصداع كما يدعى الأطباء. ولم تداو الحبوب المرض النفسى الجديد الذى أوصلونى إليه. وتنقلت من طبيب إلى آخر، ومزيد من الأدوية ومزيد من المرارة والألم والغضب يتراكم داخلى. وقررت فجأة أن أتحدى اليأس وأن أتحدى الاستسلام للفراش، ولكنى لم أستطع أن أتحدى الألم وأن أتمرد عليه، فقد كان الصداع أقوى منى. وألقيت بأدوية الاكتئاب واكتفيت بالمسكنات.

وعدت للحياة مرة أخرى، واستأنفت طريقى، وتمردت على القيود التى كان يفرضها ألم الصداع على إرادتى.

* * *

وسافرت إلى الولايات المتحدة في منحة دراسية لعدة شهور، وعشت هذه الشهور أتنقل بين مجموعة من الأسر الأمريكية وفقا لبرنامج المنحة، حيث كنت أقيم لمدة شهر مع كل منها إقامة كاملة. وعرفت الكثير عن المجتمع الأمريكى وعن ثقافته من خلال ترددى على الجامعة ومن خلال معايشتى لأفراد الأسر المضيفة وجيرانهم وأصدقائهم. وجرونى إلى مشاركتهم كل جوانب حياتهم، بعد أن شاركتهم سقوف بيوتهم. عشت وكأننى واحدة منهم، وتبادلنا أسرارنا وخصوصياتنا وكأننى سأعيش بينهم إلى الأبد.

ورغم أننى لم أعد إلى أمريكا إلا بعد ذلك بنحو عشر سنوات وأنا فى طريقى إلى جزيرة جامايكا لحضور أحد المؤتمرات، إلا أن الرسائل المتبادلة وزيارات بعضهم لى فى مصر منذ ذلك الوقت وحتى الآن جعلتنى أشعر أننى ما زلت أحيا بينهم.

وبقدر ما أسعدتنى رحلتى الأولى إلى أمريكا بقدر ما أشقتنى، فقد كان من حسن حظى أن تكون المنحة لجامعة ولاية «وست فرجينيا» فى مدينة صغيرة اسمها «مورجان تاون» جنة الله فى أرضه، تلال، وجبال، ووديان، وغابات، وبحيرات، وأنهار. اللون الأخضر يلف ويغلف كل شيء وأى شيء، يغلف التلال والوديان والجبال التى تناثرت فيها البيوت الجميلة الأنيقة ويحيط بالأنهار المتعرجة الفياضة التى تشق الولاية وتتلوى فيها، ويلف البحيرات الواسعة التى تحيطها الجبال الشاهقة الخضراء التى علت هاماتها

الغابات التى لا نهاية لها . تلك الولاية التى تجسدت فيها قدرة الخالق وعظمته ، وتجلت فيها روعة الطبيعة مرسومة بريشة ربانية .

ومع كل ما كان يحيط بى من جمال وبهاء خارق ، فقد كانت تعاستى بلا حدود ، وبلغ شعورى بالحرمان من نعمة الصحة أقصاه عندما انتقلت لأقضى أحد الشهور مع سيدة تعيش مع ابنتها التى تبلغ السابعة من عمرها فى منزلها الفخم وسط إحدى الغابات ، التى تنحدر إحدى جنباتها التى يقع عليها المنزل ـ إلى أكبر بحيرات الولاية ، التى يتيه على سطحها الفضى الرقراق الزوارق الشراعية والبخارية ، ويرسو على جوانبها اليخوت الخاصة الفخمة .

وكانت الحجرة المخصصة لى تطل على متسع معشوشب من الأرض المفروشة بالأزهار البرية ، تخلف عن اقتطاع جانب من أشجار الغابة ، والذى كان مسرحا طوال ساعات الليل والنهار للسناجيب والغزلان والأرانب البرية والعديد من الحيوانات الأخرى التى لم يسبق لى رؤيتها ، وكان أقرب البيوت إلينا يقع على بعد حوالى الميل ، والذى نصل إليه عن طريق ممر شبه مظلم بسبب كثافة الأشجار يخترق الغابة إلى العمق .

وكأنما أراد القدر أن يعذبنى ، وأن «يغظنى» ، وأن يقهرنى فرمى بى إلى هذه الجنة التى وددت من كل قلبى أن أجوس فى كل شبر فيها ، وأن أغوص فى كل سر من أسرارها ، فقد كان الصداع الذى يعربد فى رأسى رغم المسكنات يسجننى ، يقيدنى ، يلقى بى دائما إلى الفراش منهكة خائرة القوى .

كان القناع الذى تعودت أن ارتديه فور مغادرتى عتبة حجرتى ، وقد ارتسمت عليه ابتسامتى الدائمة بعد أن أكون قد اتخذت كامل زينتى ، يستنزف قواى ، وكانت آهاتى وأناتى من وطأة الألم التى أكبتها وأوجهها إلى الداخل تستهلك كل طاقتى .

ودخلت الجنة ولكنى لم أعشها ولم أنعم بها.

كان الألم الذى يعربد فى رأسى يجرجرنى دائما وراءه ، كان يسجن جسدى ويقيدنى داخل جدران الحجرة .

وغادرت أمريكا بعد أن تخطيت الامتحان الصعب.

أديت بنجاح دور المرأة الفولاذية الرشيقة الأنيقة المليئة بالنشاط والحيوية، التى تضحك وتلعب وتثرثر وتبرز فى عملها فى الجامعة.

وعدت إلى مصر دون أن يعرف إلا عدد قليل من أصدقائي الأمريكان قدر معاناتي في أثناء قيامي بدوري على خشبة مسرح الحياة.

ألم أكن دائما ممثلة رائعة؟!

* * *

عدت من أمريكا بحقيبة مليئة بالأدوية المهدئة، فقد عرضت نفسي على الأطباء هناك، وقرروا أنني أعاني من صداع نفسي.

وقضيت الشهور الطويلة وأنا «أبليع» الأدوية «الأمريكاني» **وكان الصداع أشد عنادا وأكثر قوة من الدواء ومن أمريكا.**

ويئست من الدواء مرة أخرى؛ فقد عجز عن قهر الألم، وتوقفت عن تعاطيه.

ولم أستسلم، ولم أيأس.

فشل الطب البشري؛ فاتجهت إلى الله أنشد رحمة الطب الإلهي.

ترددت على أولياء الله الصالحين، سيدنا الحسين، السيدة زينب، السيدة نفيسة، الإمام الشافعي، وآخرين... وآخرين...

دعوت، وتوسلت، وبكيت، وصليت، وتصدقت.

وذهبت إليه رغم أنني أعرف أنه موجود في كل مكان، ذهبت إليه، أدعوه عند بيته الحرام، وطفت حول الكعبة، وقبلت الحجر الأسود، وركعت طويلا في حجر إسماعيل، واغتسلت بماء زمزم. شكوت إليه آلامي، وشكوت عجزي، وشكوت ضعف حيلتي. انحنيت لجلاله وأنا أبكي، وشكوت إليه وأنا أبكي، ودعوته وأنا أبكي. ولم تشأ لي إرادته الشفاء، ولا راد لقدره وإرادته.

* * *

وعدت مرة أخرى أرتمي في أحضان الأطباء، وعدت «أبليع» حبوبا من كل لون وحجم وصنف، ومضت عدة أشهر، ولم يفارقني الصداع الذي يبدو أنه قد وقع في غرامي.

وأخيرا، لاحت لي طاقة نور.

اكتشفت أنني قد تعرضت لحملة شرسة من «الأعمال» والسحر.

عندما خدعني الجني شمهورش

كنت في زيارة لزوجة عمي التي لا تكبرني إلا بسنوات قليلة، في شقتها بميدان «تريومف» بمصر الجديدة. عندما اقبلت لزيارتها إحدى جاراتها في العمارة، وتطرق الحديث إلى معاناتي من الصداع، وقالت لي الجارة:

ـ والله أنا شاكة إن يكون حد عامل لك «عمل»!

ورددت عليها في استنكار:

ـ يا شيخة، هوه فيه حاجة اسمها «عمل»؟ إنتي بتصدقي الكلام ده؟

وعادت تقول في تأكيد:

ـ طبعا فيه حاجة اسمها «عمل»، هوه إنتي مش في الدنيا واللا إيه؟

ورددت عليها قائلة:

ـ المشكلة إني ما بصدقش الحكايات دي، وما باعتقدش فيها، وبعدين مافيش بيني وبين حد حاجة تخليه يكرهني ويؤذيني.

وتعود الجارة تتساءل في شك واتهام:

ـ يكونش حماتك، أو حد من أهل جوزك عاملك عمل؟

وأدافع عن حماتي وعن أهل زوجي بشدة وأنا أعترض قائلة:

ـ يا شيخة حرام عليكي، حماتي ست طيبة، وأهل جوزي بيحبوني زي أنا ما باحبهم.

وتثير الجارة نقطة جديدة وهي تقول في تساؤل:

ـ مش فاكرة إنك وقعتي في الحمام مرة؟ أو تكوني اتخضيتي خضة جامدة؟

أو إنك كنتي قاعدة لوحدك في الشقة والنور انطفأ عليكي فجأة؟

وأهز رأسي معارضة إياها وأنا أقول ضاحكة :

ـ الحاجات دى بتحصل لكل الناس كل يوم ، لو الكلام ده حقيقى ، يبقى الناس فى كل حتة فى الدنيا راكبها الجن والعفاريت .

وانتهى الحوار بعدم استسلامى للجارة ولفكرة إنى «ملبوسة» بعفريت.

* * *

وجاء يوم كرهت فيه آلامى وكرهت عجزى وعدم قدرتى على ممارسة حياتى بصورة عادية كالآخرين . ورفعت سماعة التليفون ، واتصلت بالجارة ، جارة زوجة عمى . **قررت ألا أستسلم للألم، وأن أتمرد عليه، حتى ولو كان ذلك عن طريق الجن والعفاريت .**

* * *

وذهبنا ثلاثتنا إليه فى شبرا ، الشارع حارة ضيقة تكاد بيوتها الحقيرة أن تختفى وسط تلال القمامة .

ودخلنا بيتا صغيرا متهالكا مكونا من طابق واحد ، ومررنا بصالة صغيرة مظلمة امتلأت بمجموعة من النساء الشاحبات ، وقد غرق معظمهن فى ملابسهن وطرحهن السوداء ، ودخلنا حجرة جانبية ذات أثاث بسيط رث . وما أن استوينا على مقاعدنا ، حتى دخل علينا الحاج (س) . كان متوسط القامة ، أميل إلى الامتلاء فى نحو الستين من عمره ، وكان يرتدى قميصا وبنطلونا نظيفين رغم آثار السنين ، ومنحنى وجهه ذو الملامح الطيبة الوقورة ، وعلامة الصلاة المحفورة فى جبهته نوعا من الطمأنينة . وجلس على الأريكة المقابلة لنا ، وسأل عن المشكلة التى لجأنا إليه من أجلها ، وحكيت له قصتى مع الصداع .

ولم يعقب الحاج (س) بكلمة ، أمسك بمسبحته فى يده يداعب حباتها بأصابعه ، وأغمض عينيه وقد سدد وجهه إلى الأرض وهو يتمتم بكلمات هامسة تخللتها بعض الآيات القرآنية ، ثم رفع رأسه سائلا عن اسمى واسم أمى ، ومشيرا لى بيده طالبا أن أناوله «الإيشارب» الذى كنت ألفه حول رقبتى . وأمسك بطرف الإيشارب بين أصبعى يديه الإبهام ، وأغمض عينيه بينما خلا وجهه من أى تعبير ، وخيل إلىّ أنه قد راح فى غيبوبة .

وساد صمت عميق . . .

وانتفض الرجل فجأة ، وارتسمت على وجهه أمارات غضب وانزعاج هائل ، وانهالت كلمات الاستنكار الشديد مختلطة ببعض الآيات القرآنية وهو يقول :

ـ يا ساتر يا رب، يا مغيث، يا حفيظ، إيه ده يا بنتي، إيه الحرب اللي عليكي دي، ده إنتي مرشوش لك، ومكتوب لك، ومدفون لك.

وانتقل لي انزعاجه رغم أنني لم أفهم شيئا مما قال، وطلبت منه مزيدا من الإيضاح.

وأخبرني أنني قد تعرضت لحملة من تسليط وتسخير الجن لإيذائي عن طريق أعمال السحر، وأنه قادر بمشيئة الله على «فك» كل هذا السحر. وطلبت منه وأنا بين مكذبة ومصدقة أن يبدأ فورا. وأخبرني أن ذلك لابد وأن يتم خارج جدران بيته. ورفض طويلا أن يأخذ مني أي نقود، واكتفى بطلب خمسة جنيهات فقط إزاء إصراري، وأشار إلى أنه يقوم بمثل هذه الخدمات لوجه الله وبدون مقابل، وأن أية نقود تأتيه عن هذا الطريق ينفقها في رحلات الحج والعمرة فقط. وتركته وانصرفنا على أن أتصل به تليفونيا لأحدد معه موعدا.

* * *

وناقشت الأمر مع زوجي، واتهمني بالكفر والجنون، وقرر عدم السماح بممارسة هذه الخزعبلات والتخاريف في بيتنا، وتحت أنظار أولادنا. وتمردت على قرار زوجي.

وفكرت... وخططت... ونفذت...

* * *

وصل الحاج (س) إلى بيت عمي في نحو العاشرة صباحا، وافترشنا سجادة في شرفة البيت الواسعة الخالية من أي أثاث والمحكمة الغلق «بالألوميتال»، وجلس متربعا بعد أن توضأ وصلى وقد وضع أمامه مبخرة يتصاعد منها الدخان وعطر البخور، وطلب مني كوبا نظيفا مليئا بالماء وضعه أمامه، وطلب مني أن أحضر من المطبخ «حلة» نظيفة مملوءة إلى نصفها بالماء. وسحبت «الحلة» من دولاب المطبخ بنفسي، وغسلتها وملأتها بنفسي، وحملتها إلى الشرفة بنفسي، ولم تلمسها يد، سوى يداي.

وجلست في مواجهته بعيدا عنه، ووضعت «الحلة» على «حجري» وأنا أجلس معقودة الساقين على الأرض. وغطيت «الحلة» بغطائها النظيف الذي غسلته أيضا بيدي، وجلست زوجة عمي وجارتها يراقبان. كنت قد نبهت عليهما أن ينتبها، وأن يفتحا أعينهما، وأن «يصحصحا» فربما كان هناك شيء مخبوء في جيبه أو كمه أو تحت قميصه.

وشمر الحاج (س) أكمامه، وبدأ الطقوس، وتحولت كل ذرة في كياني إلى عيون مفتوحة «مبحلقة» لكل حركة من حركاته. كنت ألاحظ... ألاحق... أدقق... وتأكدت تماما من أنه لن يستطيع أن يمارس معي أي لعبة من ألعاب الحواة، أو خفة اليد. وتناول الحاج (س) جرعة واحدة من الماء بعد أن قرأ عليه بعض الآيات القرآنية، ثم أعاد الكوب إلى جوار المبخرة... ثم وجه إلى الكلام قائلا:

ـ حطي إيدك على غطاء الحلة، وقولي ورايا: يا ملك البحار، إذا جبت لي حاجتي، حأجيب لك رغيف عيش. وفعلت ما طلب، ورددت وراءه ما قال «كالبغبغان»؛ فلم أكن أفهم ما أقول.

وعاد الحاج (س) إلى تلاوة القرآن بضع دقائق، وسمعته يوجه كلامه وأوامره إلى بعض الكائنات المجهولة التي بدا أنه يراها ولا نراها، وطلب منهم أن يحضروا كل أعمال السحر المكتوبة والمدفونة والمرشوشة الخاصة بي. وتوقف للحظة، وكأنما يترك الفرصة لهذه الكائنات أن تتحرك وتنشط لتنفيذ أوامره.

وتحول إليّ، وهو يطلب مني أن أضع يدي داخل أحد جوانب «الحلة» دون أن أزيح الغطاء كلية، راجيا إياي عدم الخوف إذا شعرت بوجود أي شيء داخلها. وفعلت، ومددت يدي في بطء وحذر وتوجس.

لم أكن أعرف طبيعة ما ينتظر يدي داخل «الحلة»، هل سأجد «الحلة» وقد خلت من الماء؟ هل سيتحول الماء إلى البرودة أو إلى السخونة؟ هل سستقبض يدي على رقبة الجن الذي ربما يكون قد تحول إلى قزم داخل «الحلة»؟ لم أكن أعرف، ولكني فعلت.

ولم أجد شيئا. وطلب مني أن أعيد غطاء «الحلة» إلى مكانه.

وعاد مرة أخرى لتلاوة القرآن، وأصدار أوامره للكائنات غير المرئية، ثم عاد يطلب مني البحث داخل الحلة، ولم أجد شيئا.

وتكررت المحاولات مرات ومرات، وبدأ صوت الحاج (س) يعلو غاضبا أحيانا. وهو يتلو القرآن ويستدعي الجان بكلمات ولهجة آمرة قاسية، ثم يعود يرجوها مرة أخرى في صوت منخفض متوسل أن تساعده وأن تساعدني للتخلص من آلامي، ويستحلفها بالله وقرآنه وبقوة سيدنا سليمان أن تحضر كل أعمال السحر التي تتعلق بي، ويعلو صوته

صارخا آمرا فى وجه الكائنات المجهولة، وتتقاذف من بين شفتيه الأيمان واللعنات والتهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور.

واستمرت المحاولات لأكثر من الساعة والنصف، واستمر الجن فى «زرجنته» وتمرده، وظلت «الحلة» خالية إلا من الماء الذى وضعته فيها.

وفجأة، وفى إحدى المرات التى دسست فيها يدى داخل «الحلة» انتابتنى رعدة سرت فى كل كيانى عندما قبضت يدى داخل الماء على كتلة من الطين اللزج فى حجم قبضة اليد، وأسرعت أسحب يدى من الماء فى هلع، وصرخت وقد ملأنى الرعب.

ـ بسم الله الرحمن الرحيم! فيه حاجة فى الميه، فيه حاجة فى الميه.

وهبت زوجة عمى وجارتها مع صرختى من جلستهما واقفتين، وتراجعتا إلى الوراء حتى التصقتا بالحائط، بينما كان الحاج (س) يناشدنا الهدوء وعدم الاستسلام للخوف، طالبا منى أن أزيح غطاء «الحلة» بأكلمه.

وفى بطء وتردد وتوقع وخوف... فعلت. ورأيت ما لم تصدقه عيناى، ووجدت ما لم يتسع له عقلى.

تحول الماء الصافى داخل «الحلة» إلى اللون الطينى المائل إلى السواد، كأنما هناك من ألقى فيه بعدة حفنات من الطين المخلوط بأجزاء صغيرة من العشب الجاف والحصى الصغير. ورأيت فى طيات الماء الأسود لفة يغلفها الطين اللزج فى حجم كف اليد، لا يكاد يظهر منها إلا قمتها.

وطلب منى الحاج (س) أن أستخرج اللفة.

ومددت يدى وقد ملأتنى الرهبة الممزوجة بالتقزز، بينما فقدت السيطرة على دموعى، وتناولت اللفة بأطراف أصابعى فى هلع وتردد، وأنا أزيل عنها الطين اللزج الذى كان يغلفها. وتنفست الصعداء وأنا أضعها جانبا على غطاء «الحلة»؛ فقد اعتقدت أن مهمتى المخيفة المقززة قد انتهت.

وعاد الحاج (س) يطلب منى البحث داخل الماء عن أى شىء آخر قد يكون مستقرا فى قاع «الحلة»، واستأنفت مرة أخرى مهمتى الثقيلة. وخرجت يداى بما هو «أغرب» و«أعجب» من اللفافة المغلفة بالطين. خرجت يدى بأكثر من عشر قطع معدنية صغيرة مختلفة الأحجام بعضها على شكل الماشاء الله، وبعضها على هيئة صلبان محفور عليها

جميعا نوع من الكتابة غير المفهومة . وخرجت يدى بمجموعة من قطع «الدوبار» كل منها يزيد طوله على الشبر ، وقد تم عقد كل منها عدة عقد على أبعاد شبه متساوية .

وكان صوت الحاج (س) يتعالى بالاستنكار والسخط كلما خرجت يدى بشيء من الحلة قائلا :

ـ أعوذ بالله! أعوذ بالله! حوش يا حواش ، كل ده سحر؟ كل دى أذية؟

وكلما تعالى صوته بالاستنكار والاستعاذة ازدادت دموعى الصامتة انهمارا ، وازدادت زوجة عمى وجارتها فى مكانهما انكماشا . كنت أبكى ألما وأملا ، الألم من وقع الظلم والشر الذى أراد أحدهم إلحاقه بى ، والأمل فى الخلاص من عذاب الصداع .

وطلب منى فتح اللفافة ، وبدأت أفتحها بيدى المرتعشتين . كانت اللفافة عبارة عن قطعة كبيرة من القماش الجاف لا أثر فيها للبلل ، تحتوى داخل طياتها ورقة بيضاء فى حجم الفولسكاب مطوية عدة طيات بطريقة منتظمة ، وفى كل طية منها قطعة معدنية على هيئة الماشاء الله أو الصليب تحمل تلك الكتابة غير المفهومة . وحدقت ببصرى فى الورقة المليئة بالكتابة من أول سطر فيها حتى آخر سطر ، وعجزت للوهلة الأولى عن قراءة هذه الكتابة التى كانت عبارة عن مجرد مجموعة من الحروف الأبجدية العربية .

ورفض الحاج (س) أن يلمسها بيده وأنا أناوله إياها ، واقترب منى قليلا ، وهو يحرك أصبعه أمام الحروف المكتوبة ، وسرعان ما بدأت أقرأ معه ، إذ كانت هذه الحروف عبارة عن جمل متكاملة متصلة ببعضها البعض ، وقرأت... **ويا لهول ما قرأت!**

لا أذكر تماما نص ما كان مكتوبا فيها ، ولكنها كانت رسالة أو أمرا مرسلا من الشخص ذى القوى الشيطانية الخارقة الذى يقوم بتسخير الجن ، وكانت موجهة إلى جنى اسمه «شمهورش» ، وبلهجة آمرة مسيطرة تطلب منه تسخير كل أعوانه من المردة والشياطين الذين وردت أسماؤهم فى الرسالة والتى لا أذكرها ، لإيذائى وإلحاق الضرر بى ، وتردد اسمى فى الورقة واسم أمى واسم زوجى فى أكثر من موقع بهدف التأكيد على أننى الشخصية المراد إيذاؤها ، وبلغت قسوة وبشاعة أوامر التنكيل بى ما أشاع الرعدة فى أوصالى وجعلها تبقى محفورة فى ذاكرتى حتى الآن . كانت بعض أوامر التنكيل هى :

«عقد حياتها عقدة مجوسية لا يحلها جان ولا جنية ولا إنس ولا إنسية».

«صبها بالصداع والهذيان وآلام العظام» .

«فرق بينها وبين زوجها «فلان» بن «فلانة»، وحول حياتها معه إلى جحيم».

واستمرت أمثال هذه العبارات تتكرر في الرسالة التي انتهت بتهديدها للجني شمهورش متوعدة إياه إذا لم ينفذ كل هذه الأوامر، وجاء في النهاية ما معناه «وإذا ما تهاونت في تنفيذ أوامري، فسأقول إنك قد سجدت لبني آدم».

وما أن انتهينا من قراءة الورقة؛ حتى انهارت آخر شكوكي، وتيقنت أنني كنت هدفا لحملة شرسة من الجان لإلحاق كل أنواع الأذى بي، وأخذت أجهش بالبكاء وأنا أردد في أسى:

ـ ليه بس كده يا ربي! ده أنا عمري ما كرهت حد، ده أنا عمري ما آذيت حد.

ورفض الحاج (س) أن يطلعني على أسماء من سعوا لإيقاع الشر بي، وأنا أرجوه وأتوسل إليه بصوتي المختنق بالبكاء. وطلبت منه أن يترك لي الورقة والأشكال المعدنية وقطع الدوبار التي وجدناها في الحلة حتى يراها زوجي، ورفض قائلا:

ـ مستحيل يا بنتي، كل الحاجات دي حأحطها في رغيف عيش، وحأرمي الرغيف في البحر، إنتي مش وعدتي ملك البحار أنه إذا جاب حاجتك، حنجيبي له رغيف عيش؟

ولم أستطع صبرا، أسرعت إلى التليفون واتصلت بزوجي وقصصت عليه طرفا مما حدث، وطلبت منه الحضور على الفور.

وجاء... ورأى... وأيقن وصدق.

وهنأني الحاج (س) بخلاصي نهائيا من سطوة الجان، وأن كل الأعمال والعكوسات ضدي قد حلت وفسدت كلها وإلى الأبد.

وبدأ إجراءاته الخاصة بوقايتي وتحصيني ضد أي شرور وأعمال أخرى قد أتعرض لها من قبل الجان، وقام الرجل وصلى عدة ركعات، وأوقد البخور، وتلا آيات من القرآن، ثم استغرق في كتابة مجموعة من التعاويذ والأحجبة.

عليّ أن أحمل هذا الحجاب الصغير دائما في أي جزء من جسمي، ولا أتخلى عنه إلا في أثناء الاستحمام.

تلك الورقة التي تحمل بعض الآيات عليّ أن أضعها في الماء ثم أشربه، وتلك أضعها في ماء وأغتسل به، وتلك... وتلك... وتلك... ثم طلب مني ترديد بعض الآيات القرآنية المعينة عقب كل صلاة، وخلال النهار، وعند النوم.

وانهالت التهاني بالشفاء من شفتي الحاج (س) ، فالشفاء والفرج آتيان بأمر الله ، ربما فورا ربما بعد ساعات ربما بعد أيام قليلة وهكذا قال لي .

سألته عن المبلغ الذي يطلبه ، ورفض بشدة في البداية ، ولكنى ألححت عليه ، وأصررت ؛ فقد كنت في حالة نفسية تجعلني أتنازل له عن كل ما أملك ، حتى إذا كان ذلك ثوبي الذي أرتديه ، وأخيرا لم يقبل أن يأخذ أكثر من عشرة جنيهات .

وبدأت أراقب آلام الصداع بعد أن قمت بإجراء كل الطقوس التي كان قد طلبها ، وأحسست أن الآلام قد أصبحت محتملة ، وارتفعت معنوياتي بصورة غير مسبوقة ، **فأخيرا وجدت الخلاص، حقق لي الجن ما عجز الطب عن تحقيقه!**

ولكن القصة لم تتم...

* * *

كانت إحدى قريباتي ممن يترددن دوريا على قريتنا في الدقهلية تعلم الكثير عن معاناتي وجولاتي مع الطب والأطباء . ووجدتها أمامي في بيتي بالقاهرة ، ربما بعد أسبوع واحد من الأحداث السابقة ، وأخرجت لي من حقيبة يدها ورقة كبيرة ضعف ورقة الفولسكاب ذات قوام سميك ولون بني كالح .

وقرأتها، قرأتها وغرقت في ذهولي.

كانت مكتوبة بنفس طريقة الكتابة التي وجدناها في الورقة التي كانت داخل لفافة القماش في «الحلة» ، وكانت تحمل نفس المضمون تقريبا ولكن بعبارات وكلمات مختلفة ، وأخبرتني وقد ملأتني الدهشة بما حدث .

قالت إنها ذهبت إلى شيخ ضرير في إحدى القرى المجاورة لقريتنا والذي شاع عنه براعته في استخراج الأعمال وإبطال السحر ، حيث طلب منها صورة لي قام بوضعها على ركبته ، بينما أمسكت بيديها «حلة» مليئة بالماء بلا غطاء ، ثم قام بأداء بعض الطقوس التي لا تختلف كثيرا عما قام به الحاج (س)، وانتهت الطقوس عندما تغير لون الماء فجأة إلى اللون الطيني ، وبرزت منه لفافة من القماش كان بداخلها هذه الورقة التي حملتها إليّ . وبين مكذبة ومصدقة ، انطلقت بسيارتي إلى شبرا ، وطلبت من الحاج (س) أن يفسر لي ما

حدث، وكان التفسير الذى أفقدنى إيمانى بالجن والعفاريت والشياطين والشيوخ والدجالين والمشعوذين، وحتى كتابة هذه السطور.

قال إن هناك بعض الناس القادرين على تسخير الجان، وإن الجن قادر على جمع بعض المعلومات عن الأشخاص وعن مشكلاتهم، كما أنه قادر على إعداد بعض الأشياء المادية مثل الورقة المكتوبة أو القطع المعدنية أو الطين، حيث يقوم بإلقائها فى الماء عند استحضاره، وأن هذه التمثيلية التى تتم بالاتفاق بين الجن والشخص الذى يقوم بتسخيره، تعد نوعا من العلاج النفسى للأشخاص أصحاب الحاجات والمشكلات.

* * *

وعدت إلى البيت أحمل صداعى معى، وقد ملأنى الإيمان بأن ما تم على يد الحاج (س) كان مجرد تمثيلية محبوكة الأطراف، أعدها وأخرجها الحاج بالتعاون مع أتباعه من الجن والعفاريت.

ومع أننى فقدت إيمانى بهم جميعا، فلم أتب، وعدت أستنجد بهم وما زلت، فربما أجد من بينهم جنيا أو عفريتا «ابن حلال» لا يكذب، ولا يحب التمثيل.

وعدت مرة أخرى أرتمى فى أحضان الطب والأطباء «وأبلع» المهدئات والمسكنات لشهور طويلة.

حتى أخذتنى إحدى صديقاتى إليه... إلى الشيخ (ك).

العفاريت الحمر!

كانت السيارة تطوى بنا الطريق الزراعى المؤدى إلى المرج فى طريقنا إلى الشيخ (ك)، وبينما أمسكت عجلة القيادة بيدى، وتوجهت بعينى أتبين الطريق، كانت صديقتى وأمها يتحدثان عنه وعن شهرته وارتفاع صيته فى علاج الأمراض وإبطال الأعمال والسحر، وكيف أن منزله يغص دائما بالأعداد الهائلة التى تتردد عليه من جميع المحافظات.

كانت صديقتى تعانى من حملة عقم فشل الأطباء فى علاجها، وترتب عليه أن بدأت أمها السيدة الطيبة البسيطة «تجرجرها» وراءها وهى تنتقل من مشعوذ إلى آخر، وجرجرونى معهم هذه المرة.

وفى إحدى الحوارى المتربة المليئة بالقاذورات والقمامة عثرنا على منزل الشيخ (ك). ومررنا ونحن فى طريقنا إلى حجرته بأعداد كبيرة من النساء والأطفال الذين امتلأ بهم المكان، وعدد قليل من الرجال وهم فى انتظار دورهم.

ودخلنا حجرة حقيرة شبه مظلمة عبقت برائحة البخور، وجلس فى ركن منها كهل صغير الحجم ذو وجه أسمر معروق، يرتدى جلبابا فضفاضا مقلما، ويغطى رأسه بطاقية من الجوخ الأحمر، ويتدلى من رقبته مسبحة طويلة بخرزات كبيرة ملونة.

وما أن اتخذنا مجلسنا، واستمع إلى شكوانا؛ حتى مد يده إلى كتاب كبير الحجم اصفرت أوراقه واهترأت أطرافه، ثم أخذ يبسمل ويحوقل ويتمتم بكلمات غير مفهومة، وفتح الكتاب على إحدى صفحاته بسكين صغير كان موضوعًا فوق الكتاب، ثم تناول ورقة بيضاء، وفتح زجاجة صغيرة مليئة بسائل أحمر، وأسقط منها عدة قطرات فى منتصف الورقة، وناولنى الورقة فى يدى، وطلب منى أن أقوم بتطبيقها أربع مرات، وأن أضغط عليها بأصابعى، بينما كان مستمرا فى بسملته وحوقلته وتمتمته.

وبعد أن تاه عنا فى شبه غيبوبة لعدة دقائق، انتفض فى مقعده فجأة، وفتح عينيه المغلقتين وكأنما استعاد وعيه، وطلب منى أن أفتح الورقة. وفتحت الورقة التى ارتسم

وسطها شكل أقرب إلى الرسوم السريالية بسبب تشبيع الورقة بالسائل الأحمر بطريقة غير منتظمة .

وهب الشيخ (ك) واقفا فى رعب وهو يطوح بيديه فى الهواء بينما كان يقول فى فزع وكأنما رأى جنيا أمامه : حوش يا حواش ، حوش يا حواش ، أعوذ بالله ، بصى يا بنتى بصى ، وأخذ يتابع بأصبعه الشكل المرتسم على الورقة قائلا : **شوفى بعنيكى، آهه، قدامك آهه، العفريت اللى لابسك، آهه حاطط رجليه الاثنين حوالين رأسك، ومش عايز يسيبك!**

وأردف فى لهجة كلها ثقة وتأكيد بعد أن عاد إلى مقعده قائلا : ما تخافيش يا بنتى، بعون الله وبقوة سيدنا سليمان أنا حاعزم عليه وحاحرقه وأخلصك منه .

وبينما كنت أحاول إخفاء ابتسامتى ، تحول إلى صديقتى ومارس معها نفس الطقوس التى مارسها معى ، ثم صاح فى فزع بعد أن فتحت الورقة وهو يشير إلى الشكل السريالى الأحمر قائلا : بصى ، شوفى ، شايفة الرسمة دى شكلها غير الرسمة الثانية إزاى؟

ومضى يقول وهو يشرح الخطوط السريالية مؤكدا : آهه ده القرين بتاعك ، ساكن فى بيت الولد ، أنا ما جبتش حاجة من عندى ، كل حاجة قدامكو آهه .

والتفت إلى صديقتى وهو «يتصعب» و«يمصمص» بشفتيه قائلا : يا ولداه عليكى يا بنتى ، حتخلفى إزاى وهوه مفرشح كده فى بيت الولد!

وعاد بظهره إلى الخلف وهو يردد فى ثقة وتأكيد قائلا : بعون الله ، وبقوة الله ، حتخفوا إنتو الاثنين ، وتبقوا زى الفل .

وعاد ينقل نظراته الخابية بيننا وهو يقول فى مكر : المرة الجاية كل واحدة فيكم تجيب معاها ١٠٠ جنيه عشان نبتدى الشغل ، ودلوقتى بقى ، هاتوا الحاجة اللى تطلع من زمتكم ، أى حاجة . وأعطيناه «أى حاجة» ، وخرجنا وأنا أخفى ابتسامة السخرية .

ومررت بالنساء البسيطات المغلوبات على أمرهن ، وشعرت بالأسى من أجلهن ومن أجلى ، فقد تساوينا فى عجزنا عن حل مشكلاتنا على اختلاف أنماطها ، وقهرتنا الظروف التى لم نستطع التمرد عليها والهروب منها ، وأدت معاناتنا وعجزنا عن قهر هذه الظروف إلى إلقاء التبعة على تلك العوالم المجهولة لنا وعلى الكائنات اللامرئية الخرافية ، وألقى بنا هذا العجز والقهر بين أيدى من أصبح النصب والاحتيال سلعتهم الرائجة .

وعدت أقود سيارتى متجهة إلى بيتى فى مصر الجديدة، وقد اتسعت ابتسامتى التى تحولت فجأة إلى ضحكة عالية ساخرة، أسخر بها من نفسى ومن شهادة الدكتوراه التى أجرجرها معى بين المشعوذين والدجالين.

فقد كان الجن والقرين اللذان ارتسمت صورتيهما على الورقتين كما حاول الشيخ أن يوهمنا هما اختبار «روشنباخ»، أحد الطرق المتبعة فى التحليل النفسى، حيث يتم عرض بقعة الحبر الحمراء على المريض، ليقوم بتفسير الشكل الذى يراه أمامه، وبناء على هذا التفسير يستطيع المعالج النفسى أن يعرف بعض جوانب شخصية المريض.

* * *

وبالطبع لم أعد إليه، فقد كانت لعبته مكشوفة وساذجة وبدائية.

وعدت إلى الطب والأطباء، وعدت مرة أخرى «أبلبع» أدوية العلاج النفسى والمسكنات، حتى كان يوما عندما قادتنى قدماى إلى الشيخ (ع).

رأيته يطرد الجنى

كان ذلك في كوبري القبة وفي أحد الشوارع الجانبية، عندما دخلنا أنا وصديقتي ذلك المنزل المتواضع المكون من أربعة طوابق، الذي انتهى بنا سلمه الضيق إلى شقة متواضعة في الدور الرابع.

وما أن ضغطنا على زر الجرس حتى انفتح الباب فورا، وكأنما كان هناك من يقف خلفه في انتظارنا، وطالعنا وجه مبتسم لفتاة في نحو الخامسة عشرة من عمرها، والتي تراجعت إلى الخلف دون أن توجه لنا ولو سؤالا واحدا؛ لتفسح لنا الطريق للدخول، وهي تشير إلينا بالجلوس في بشاشة وترحاب.

وتركتنا الفتاة في حجرة الجلوس ذات الباب المستقل عن باب الشقة، وعادت بعد لحظات تحمل صينية عليها زجاجتين من المياه الغازية.

ودخل علينا **الشيخ**(ع)، رجل أسمر طويل نحيل متصلب القامة، تجاوز الخامسة والستين، وهو يجرجر قدميه على الأرض في بطء، واتخذ مجلسه على الكنبة أمامنا، ورحب بنا في كلمات غير واضحة تماما، من آثار إصابته ببعض مضاعفات مرض تصلب الشرايين كما علمت فيما بعد.

وبدأت صديقتي التي جئنا إليه من أجلها في سرد حكايتها، فقد كانت زوجة لأحد رجال الأعمال الذي لم تنجب منه، وكانت حياتها تسير بصورة طبيعية إلى أن جاء ذلك اليوم الذي كانت ترقد فوق فراشها في المستشفى فور خروجها من حجرة العمليات، بعد إجرائها عملية لاستئصال الرحم. وبينما امتلأت الحجرة بأفراد أسرتها وزوجها، وقع بصر أحدهم بالصدفة على بقعة من الدماء على هيئة كف آدمي على بلاط الغرفة أسفل سرير المستشفى المرتفع، وما أن أشار إليها جاذبا أنظار الآخرين لها، حتى برزت بجوارها بقعة أخرى مشابهة. وبين ذهول الحاضرين وفزعهم، أخذت هذه البقع تتكاثر وتنتشر

حتى ملأت أسفل السرير بأكمله، وما أن بدأ الهرج والمرج الذى أحدثته هذه الظاهرة الغريبة؛ حتى اختفت جميعا دفعة واحدة، وعاد البلاط ليبدو أمامهم نظيفا لامعا.

وكانت هذه هي البداية، أصبحت بعد ذلك تشعر في أثناء غياب زوجها في بعض سفرياته وكأن هناك جسدا آدميا يلتصق بها ليلا، وكانت تشعر بأنفاسه تهب على وجهها، وعندما كانت تمد يدها بسرعة وفي فزع إلى مفتاح "الأباجورة" المجاورة للسرير، لم تكن ترى سوى الفراش الكبير الخالي، واستمرت هذه الظاهرة حتى في حالة مشاركة زوجها لها في الفراش، وأصبحت لا تنام إلا إذا أضاءت نور الحجرة.

وبدأت بعد ذلك ومن وقت إلى آخر خلال النهار وعندما تكون بمفردها في المنزل، تشعر أن هناك يدا تجذب ذراعها وتقبض عليها بقسوة وعنف، وكان يتأكد لها أن ما يحدث ليس من نسج خيالها، عندما كانت تكشف ذراعها لترى علامات حمراء داكنة على هيئة أصابع آدمية.

وتحولت حياتها جحيما بعد أن أصبحت تحيا في خوف ورعب دائمين من تلك القبضة القادمة من ذلك العالم اللامرئي المجهول، خاصة بعد أن أصبحت تلك القبضة تطاردها حتى وهي خارج المنزل.

وجالت بين أطباء الأمراض النفسية في البداية، ثم يئست وتحولت إلى المشعوذين والدجالين والمعالجين بالقرآن والقساوسة والرهبان، ودامت جولاتها لما يزيد على السنوات العشر أنفقت فيها عشرات الآلاف من الجنيهات دون جدوى.

ومن بين غرائب جولاتها التي قصتها على الشيخ (ع) أمامي، استعانتها بأحد الرهبان ممن ذاع صيته عن مدى قدرته على التعامل مع مثل هذه الظواهر الغريبة، حيث أخبرها أن هناك جنيا يسكن جسدها، وأنه قادر على إخراجه من جسدها.

وبدأ الراهب بإيقاد الشموع في المكان وأمسك بالمبخرة ورفعها أعلى رأسها، وبدأ يديرها في الهواء وهو يتمتم بالصلوات والأدعية. وما كاد ينتهي من وضع نقطة من زيت القنديل المقدس على جبينها بيده الخالية، حتى انبعثت من جسدها جمرة نارية في حجم قبضة اليد تدحرجت إلى الأرض حتى استقرت تحت قدمي الراهب، الذى أسرع بتلقفها داخل قمقم معدني أعده خصيصا لذلك، حيث قام بسرعة بإغلاق القمقم بإحكام مستخدما في ذلك خام القصدير.

وأضافت صديقتي قائلة بأنها قد تحررت بعد ذلك تماما ولعدة شهور من كل أشكال

الأذى والمشاغبات التى كانت تتعرض لها من قبل ، إلا أنها سرعان ما بدأت رحلة المعاناة السابقة مرة أخرى .

وبغض النظر عن صدق أو عدم صدق ما روته صديقتي والذى كنت أعلم بعض جوانبه من قبل ، إلا أن ما رأيته بعيني وعايشته بنفسي ، وأقسم إنه حقيقة مؤكدة لا يطولها شك ، هو ما حدث في ذلك اليوم ونحن في بيت الشيخ (ع) .

فقد قام الشيخ بإجلاسها قريبا منه على الكنبة ، وقام بقراءة بعض آيات القرآن على كوب من الماء قبل أن يطلب منها تناول جرعة منه ، ثم أمسك بكتفيها وأدارها في مواجهته ، وأخذ يحدق في عينيها بعينيه السوداوين اللامعتين ومقلتيه الجامدتين اللتين لا تتحركان وهو يتلو الآيات القرآنية ، وما هى إلا لحظات ، حتى انهارت فى مكانها مرتمية على الكنبة في غيبوبة كاملة .

وأسرع الشيخ (ع) يرفع أكتافها ويسندها إلى ظهر الكنبة بينما تدلى رأسها جانبا ، وهو مستمر فى تلاوته فى إصرار ومثابرة ، وما هى إلا دقائق قليلة حتى انتفض جسدها فجأة فى انتفاضات تشنجية متتالية عنيفة للحظات ، ثم خمد جسدها مرة أخرى بينما تعالى منها صوت عال وحشيّ أشبه بالشخير ، وإذ بنا نرى ـ وقد غمرتنا الدهشة ـ حنجرتها وقد بدأت في الانتفاخ التدريجي الذى وصل إلى حجم التفاحة الكبيرة ، وتحول شخيرها إلى صراخ لا آدمي تجلت فيه كل أشكال الألم والعذاب ، وكأن هناك من يخنقها . . .

وهب الشيخ (ع) واقفا وهو يطوح بيديه فى الهواء ، ويهوى بها حولها فى عنف ، وكأنما هو ممسك بسوط فى يده يطارد ويضرب شيئا خفيا لا نراه ، وهو مستمر فى إصدار أوامره المصحوبة بأغلظ القسم واللعنات مختلطة بالآيات القرآنية .

وأخذت أنقل عينى فى فزع بينه تارة وبين صديقتي الغائبة عن الوعى تارة أخرى ، وإذا بذلك الانتفاخ الذى تكور فى حنجرتها يتضاءل تدريجيا حتى تلاشى تماما ، وتلاشى معه صوت شخيرها ، على حين أسرع الشيخ بفتح باب الحجرة المفضى إلى السلم ، وأخذ يطوح بكلتا يديه فى كل الاتجاهات وكأنما يطرد شيئا خفيا خارجها ، مطاردا إياه حتى منتصف درجات السلم .

وما إن عاد الشيخ إلى الحجرة فى مشيته المتصلبة الآلية ، حتى أخذت صديقتي التى علا

وجهها مسحة ناعمة من الاسترخاء تفتح عينيها ببطء وتجول بهما فى أرجاء الحجرة فى ذهول، وهي تقول في ضعف وتساؤل: هوه إيه اللى حصل، هوه أنا نمت واللا إيه؟

* * *

ومنذ ذلك اليوم الذى مضى عليه نحو عشر سنوات برئت صديقتى مما كانت تعانيه، وارتبطت حياتها **بالشيخ** (ع) وأفراد أسرته، وأصبح بيته مكانها المفضل الذى تقضى فيه كل ساعات فراغها، وأصبحت شئون أبنائه هي شغلها الوحيد الشاغل، وصارت لا تصرف أمرا من أمور حياتها إلا بعد استشارته، واستمرت مودتها لأهله إلى الآن، حتى بعد رحيله عن هذه الدنيا.

كان **الشيخ** (ع) عندما عرفته موظفا بسيطا على المعاش وأبا لأبناء انتهى بعضهم من تعليمهم الجامعي، على حين كان البعض الآخر لا يزال فى مراحل الدراسة المختلفة. ورغم العسر المادى والحياة المتقشفة التي كان يحياها إلا أنه كان يرفض تماما قبول أى مقابل مادي ممن كان يساعدهم فى حل مشكلاتهم بمختلف أشكالها، وقد قال لى فيما بعد - وعندما توثقت علاقتى أنا وزوجى به وبأسرته - إن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم، قد زاره فى المنام منذ عدة سنوات، وتلى عليه بعض آيات من القرآن الكريم وطلب منه استخدامها فى علاج بعض الحالات خاصة المس الأرضى، كما أمره أن يترك بابه مفتوحا أمام كل من يلجأ إليه فى طلب المساعدة ساعات الليل والنهار.

ورغم أن **الشيخ** (ع) لم ينجح فى علاج الصداع الذى أعانى منه رغم محاولاته المتكررة، فقد ظللت أتردد عليه بين الحين والآخر سواء من أجل التسامر معه ومع أفراد أسرته، أو من أجل علاج بعض الحالات التى يهمنى أمر أصحابها، ومن بينها حالة ابن شقيقتى ذلك المهندس الوسيم الذى حير الأطباء.

كان ابن شقيقتى فى دورة تدريبية بأمريكا لعدة شهور عندما بدأ يعانى من حالة من القيء المستمر، وعرض نفسه على الأطباء هناك ولم يتوقف القيء. وعاد إلى القاهرة ليستكمل جولته بين الأطباء، ولم يتوقف القيء وانتهى به المطاف إلى أن يسكن فراش المرض فى المستشفى ليحيا على المحاليل، وأخذته إلى الشيخ (ع). وتكررت نفس القصة التى شاهدتها بعينى من قبل عندما أخرج الشيخ الجنى من جسد صديقتى، ونجح فى طرد الجنى الذى تكور فى حنجرة ابن شقيقتى كالتفاحة قبل مغادرته لجسده، وخرج من بيت الشيخ إنسانا جديدا مختلفا، لم يعد إلى المستشفى ولكنه عاد إلى البيت.

دخل للشيخ محمولا وغادره يمشى على قدميه

ومن بين القصص التى عايشتها مع الشيخ (ع) ما حدث مع ذلك الشاب الذى دخل إليه محمولا، وخرج من عنده يمشى على قدميه.

هل هى قوة إيحائية خارقة كان يتمتع بها الشيخ (ع) أم إنها نفحة ربانية خصه بها الله سبحانه وتعالى؟

فقد حدث أن دخلت علىّ وأنا فى مكتبى بالكلية قبل امتحان آخر العام بثلاثة شهور امرأة بسيطة فى أوائل الخمسينيات من عمرها، ترتدى جلبابا فلاحيا أسود وتلف رأسها فى طرحة سوداء، حيث أخبرتنى بكلمات تنضح بالمرارة، أن ابنها الذى كان من بين طلابى فى الفرقة الثالثة قد أصيب بالمرض الذى أقعده لأكثر من سنة، والذى منعه من التقدم للامتحان فى العام الماضى، ومنعه من التردد على الكلية منذ بدء العام الدراسى الحالى، وأنها قد قدمت لتوها عذرا مرضيا له عن عدم تقدمه لامتحان هذا العام أيضا. وعلمت من هذه السيدة أن ابنها لا يعانى من أى مرض عضوى معين، وإنما يعانى فقط من إصابته فجأة بحالة من الضعف البالغ والوهن، الذى يجعله لا يغادر الفراش إلا للحمام فقط، ولا يتناول إلا قدرا ضئيلا جدا من الطعام الذى لا يكاد يكفى طفلا صغيرا رغم إلحاح أفراد أسرته، ورغم أنه كان حتى إصابته بذلك الوهن يتمتع بشهية هائلة وقوة جسمانية جبارة أهلته لأن يعمل عتالا فى سوق الخضار ببورسعيد فى إجازة الصيف بل وفى خلال العام الدراسى بعد انتهاء محاضراته؛ لمساعدة والده الذى كان يعمل جنديا فى الشرطة.

وشعرت حيال دموع السيدة التى كانت تنهمر من عينيها فى أثناء حديثها بنوع من التعاطف البالغ، الذى دفعنى إلى أن أعرض عليها زيارتهم فى منزلهم لإقناع ابنها بالعودة إلى الطبيب للعلاج، حيث كانت تنتابه موجة من الهياج كلما ترددت داخل المنزل الأحاديث حول الذهاب به إلى الأطباء، كما وعدتها بعمل اللازم حيال تحمل الكلية كل مصاريف العلاج.

وابتسم الشاب فى ضعف، وهو يقص على ما كان يحدث فى تلك المرات التى كان أخوه الأكبر يحمله فيها إلى أحد الأماكن الأخرى من الشقة، أو عندما كان يحمله حتى أسفل السلم إلى أن يصل به إلى الشارع، حيث كان لا يكاد يشعر بأن ذراعى أخيه قد تخلت عنه وأن أقدامه قد لمست الأرض، حتى يجد نفسه وقد انتابته حالة غريبة من القوة الخارقة، وكأنما قد تلبسته الشياطين وهو يعدو فى قفزات واسعة؛ ليرتمى فى لهفة على الفراش لاهث الأنفاس، وكيف أنه يشعر بأن داخله شخصين: أحدهما يمتلئ بالرغبة فى الحياة والانصهار فيما ينصهر فيه أقرانه من الشباب، والآخر يكبله بسلاسل حديدية إلى الفراش.

وقطع حديثه صوت أمه التى أخذت تشكو من ضعف شهيته وكميات الطعام القليلة التى لا تكاد تكفى طفلا صغيرا، والتى لا يتناولها إلا بعد مطاردتها له وإلحاحها عليه. وتترحم على الأيام والسنوات السابقة لمرضه، والتى كان لا يكف فيها عن تناول كل ما تقع عليه يده فى شهية منقطعة النظير، وعن شهرته السابقة بين شباب الحى من حيث قوته العضلية وحيويته. واستأنفت الأم حديثها الذى اختنق بسيل دموعها مؤكدة أن ما أصاب ابنها كان نتيجة «النظرة» أو الحسد، الذى لابد وأن يكون قد أصابه من عيون بعض الجيران بسبب تميزه عن باقى الشباب بوسامته وطول قامته ومتانة بنيانه.

وفشلت فى ذلك اليوم فى إقناع الشاب المريض بعرض نفسه على أحد أطباء الأمراض النفسية على نفقة الكلية حتى ولو كان ذلك بالقاهرة، متعللا بأنه قد سبق له التردد على بعض أطباء الأمراض النفسية فى بورسعيد، وأنه واظب على مدار عدة شهور على تعاطى أدويتهم دون جدوى، وأنه لم يعد يؤمن بالطب النفسى وأن شفاءه رهين بمعجزة إلهية من عند الله.

وما أن استشففت من حديثه تلك الرنة الإيمانية، حتى ومض فى ذهنى اسم الشيخ (ع) حيث قررت بذل محاولة أخيرة كنوع من العلاج النفسى، لاستغلال هذا الجانب الإيمانى من أجل الشفاء. ولم يتحمس الشاب على الإطلاق عندما عرضت عليه أمر ذهابه إلى الشيخ. حتى يقرأ له بعض الآيات القرآنية التى ربما حملت له معها الشفاء، بينما تحمست أمه لتلك الفكرة حماسا هائلا، وكتبت لهم عنوان الشيخ (ع) فى القاهرة تفصيلا بعد أن أكدت لى الأم أن أخاه سوف يأخذه إليه قسرا فى نفس اليوم. وانصرفت أنا وطالبتى وقد ملأنى الأسى والإشفاق على هذا العود الأخضر الذى امتصه المرض وألقى به إلى الفراش. وتوسلت إلى الله أن تنجح أسرة المريض فى الذهاب به إلى الشيخ (ع)،

فقد تكون تلك الزيارة سببا في ارتفاع حالته النفسية والمعنوية وتحسن مستوى جهازه المناعى، مما قد يعينه على مقاومة ذلك المرض المجهول.

* * *

وفي اليوم التالي وقبل عودتي للقاهرة اصطحبت طالبتي إلى منزل الشاب بعد انتهاء محاضراتي، ووقفت أنتظرها لدى الباب الخارجي للمنزل بعد أن طلبت منها الصعود إلى شقته لمعرفة ما إذا كان قد توجه إلى الشيخ (ع) في اليوم السابق أم لا. وبينما كنت أنتظر طالبتي وقد غرقت في أفكارى حول هذا الشاب، وما هي إلا دقائق قليلة، حتى تناهى إلى سمعى صوت أقدام تهبط الدرج الخشبى في قفزات سريعة نشطة. وما أن التفت ناحية الدرج، حتى فوجئت بنفس الشاب الذى كان بالأمس هيكلا عظميّا شاحبا زائغ النظرات، إذ بي أراه وقد توقدت نظراته بالحيوية والشباب وتوردت وجنتاه، وغرق وجهه كله في ابتسامة واسعة مشرقة وهو يصيح بي، وهو يصافحني ويشدنى ناحية الدرج قائلا في ابتهاج: أنا خفيت يا دكتوره، أنا خفيت يا دكتوره، من ساعة ما رجعت وأنا باتزل واطلع السلم لوحدى ميت مرة، لازم تطلعي تشربي الشربات. ولفتني فرحة عارمة بينما أخذ قلبي يدق دقات سريعة هائجة من تأثير المفاجأة وأنا أصعد الدرج خلفه، حيث تقدمني في خطوات ثابتة نشطة، وحيث استقبلتني أمه على رأس السلم بالأحضان وبزغرودة رفيعة عالية تعبر بها عن فرحتها الغامرة بشفاء ابنها، بينما امتلأت الشقة الصغيرة بعدد كبير من أفراد الأسرة والجيران من المهنئين.

وعلمت من الشاب الذى أخذ يقص عليّ ما حدث، أن أخاه الأكبر قد حمله في مساء اليوم السابق إلى أسفل المنزل، حيث مدده في المقعد الخلفى لإحدى سيارات الأجرة التي يمتلكها أحد الجيران، وحيث توجهوا إلى منزل الشيخ (ع) في القاهرة، وأن أخاه بمعاونة ذلك الجار حملاه إلى شقة الشيخ الذى قابلهم فور وصولهم، والذى أخذ بعد انتهائهم من احتساء الشاى الذى قدمه إليهم في قراءة بعض الآيات القرآنية وهو ينظر في عيني الشاب.

وقص عليّ ذلك الشاب وهو يبدى دهشته وتعجبه، كيف أنه قد استغرق في نوم عميق بمجرد أن حدق الشيخ (ع) في عينيه، وكيف أنه قد استيقظ فجأة من ذلك النوم العميق، الذى لم يستغرق أكثر من عشر دقائق كما قال له أخوه، وقد انتابه الشعور بأنه قد خلق خلقا آخر، وقد اختفى ذلك الشعور الذى كان يتملكه بأن هناك شخصا آخر بداخله

مكيل القدمين، وكيف أنه انحنى على يد الشيخ (ع) ليغمرها بقبلاته عندما كان يغادر شقته وهو يسير على قدميه قبل أن يهبط الدرج .

وأخذت أتابعه بلهفة وقد ابتسمت كل ملامحه، وهو يحكى لى كيف أنه عند عودته إلى بورسعيد فى نحو العاشرة مساء انضم إلى بعض شباب الحارة ممن كانوا يلعبون الكرة فى الشارع، وكيف أنه التهم وجبة العشاء التى أعدتها له أمه بتلك الشهية البالغة التى لم يعرفها منذ شهور طويلة، وأنه ظل حتى ساعة متأخرة من الليل وبدءا من الصباح الباكر يهبط قفزا على الدرج من فرط السعادة والنشوة البالغة، ليجرى فى الحارة وحتى الشارع الخارجى ثم يعود مرة أخرى ليرتقى الدرج قفزا حتى باب شقته .

وانصرفت أنا وطالبتي من منزل ذلك الشاب وقد أخذت الفرحة تزغرد فى أعماقى، فقد حدثت المعجزة .

ووجهت اهتماما استثنائيا لذلك الشاب فيما تلى ذلك من شهور، وحتى موعد الامتحان الذى اجتازه بنجاح، وتابعت ـ عن قرب عندما انتقل إلى السنة النهائية ـ كل أوضاعه الدراسية ونشاطاته الكثيرة الأخرى التى كان يمارسها من خلال اتحاد الطلاب وكذلك عمله بسوق الخضار الذى عاد إليه فى غير أوقات الدراسة. ولم أكف من متابعة أخباره حتى بعد تخرجه والتحاقه بالعمل كأحد الأخصائيين الاجتماعيين حتى الآن .

رغم مرور عدة سنوات على ما حدث، فإننى مازلت أتساءل دون أن أحصل على إجابة عن تساؤلاتى: هل كان شفاؤه على يد الشيخ (ع) معجزة إلهية، كانت الآيات القرآنية التى رددتها شفتا الشيخ (ع) طرفا فيها؟ هل كان عامل الإيحاء بأن الشيخ صاحب كرامات، هو العامل الأساسى فى شفاء ذلك الشاب؟ هل كان شفاء ذلك الشاب فى تلك الليلة على وجه الخصوص من قبيل الصدفة فقط ولا شيء آخر؟

أسئلة كثيرة دارت في ذهني وما زالت تدور. أسئلة ستظل بلا إجابة، ستظل بلا إجابة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

❋ ❋ ❋

وحاول الشيخ (ع) معى كثيرا، حاول إنقاذي من ذلك الألم الذى يعربد فى رأسي حاول... وحاول...

وتمنيت لو أن هناك جنيا بالفعل يسكن فيها، فلن يستطيع أن «يزرجن» أمام قوة وسطوة الشيخ طويلا. وأخبرني بعد أن حدق في عيني بعينيه الجامدتين الساكنتين وهو يتلو القرآن أنني لا أعاني من أي مس شيطاني أو جن. جاء بيتي ودار في أرجائه يتلو القرآن، وصلى على نفس سجادة الصلاة التي أصلي عليها. جعلني لا أشرب إلا من المياه التي يتلو عليها القرآن. أمسك برأسي مرات ومرات وهو يردد آيات القرآن. جعلني أردد يوميا بعض الآيات وأؤدي أعدادا معينة من الصلوات، وفعلت. طلب مني أن أعد أرغفة الخبز واللحم وأوزعها بنفسي في بيوت آل البيت، وفعلت. وظل الألم يملأ رأسي، ظل الجني يعربد فيها.

ومع أن الجني كان لا يزال «يتشاقى» و«يتنطط» و«يتشقلب» فيها. ومع أنني فقدت الأمل في الشفاء على أيدي الشيخ (ع)، فقد ظللت أحبه وأحترمه وأقدره، فقد كان نورانيا رغم سمرة بشرته، وكان رقيقا، طاهرا، نقيا، رغم سواد عينيه المتحسجرتين، رحمه الله.

هل كان خلاص صديقتي وابن شقيقتي والآخرين على يده مجرد مصادفة؟ هل كان عامل الإيحاء والإيمان المطلق وراء هذا الخلاص؟ هل كان العذاب الذي عاني منه من قادتهم أقدامهم إلى بابه عرضا لبعض الأمراض والعقد النفسية؟ هل كان شيخا مبروكا أمده الله بنفحه من علمه وقدراته؟ أعتقد أن هذه الأسئلة ستظل بلا إجابة!!

* * *

وبينما كنت أتردد على الشيخ (ع) آنس بصحبته، وأسعد بابتسامته النورانية التي كان يقابلني بها وهو يردد كلمات سعادته وسعادة ملائكة بيته بدخولي عليهم، كان الصداع يجرجرني وراءه لأعتاب أطباء الأمراض النفسية؛ **«لأبليع» الحبوب المهدئة، «وأبليع» المسكنات، حتى ذهبت إليه... إلى الدكتور (ش) الذي تلقى جانبا من دراسته الطبية على أيدي الجن!**

وإليكم قصة جديدة.

الطبيب القادم من عالم الجن!

كنا قد تركنا وراءنا مدينة المحلة الكبرى بعدة كيلو مترات عندما لاحت على البعد مبانى القرية الطينية التى نقصدها. ونزلنا من السيارة أمام بيت كبير مبنى بالطوب الأحمر الذى يختلف فى مظهره عن باقى الدور المحيطة. وتقدمنا مرافقنا الذى كانت تربطه بصاحب البيت الذى نقصده علاقة صميمة، وقادنا إلى حجرة واسعة مليئة «بالكنب» البلدى بأغطيته المنقوشة بالألوان الزاهية، ورأيته بجلبابه الأبيض «الشاهق»، ووجهه الأبيض النورانى ذى التقاطيع الدقيقة، الذى انعكس عليه ضوء النهار الذى غمر الحجرة من خلال نوافذها العديدة المفتوحة المطلة على الحقول. كان متربعا بحجمه الضئيل على الكنبة المواجهة للباب، شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره إلا قليلا، يعلو وجهه النحيل شحوب غريب، ولاحت فى عينيه الصافيتين الرقيقتين نظرة طفولية وهو يستمع إلى شكواى. ولم ينطق بكلمة واحدة، وتناول دفترا وقلما كانا بجواره، ومضى يكتب فيها فى صمت، ثم ناولنى الورقة وقرأتها. كانت مكتوبة باللغة الإنجليزية بخط دقيق جميل ولا تختلف بأى حال من الأحوال عن أى روشتة طبية، وكانت تحتوى على أحدث أدوية العلاج النفسى.

وجاءنى صوته الرقيق الخفيض قائلا: خدى الأدوية دى زى ما أنا كاتبها، وأشوفك بعد شهرين، وإن شاء الله ربنا حيجيب الشفا.

وانصرفنا وقد اجتاحت نفسى جيوش الأمل فى الشفاء، وانتهاء رحلة العذاب مع الصداع.

* * *

جرجرنى الصداع سنوات وسنوات فى متاهات الطب البشرى.

وجرجرنى الصداع أيضا إلى خفايا وأسرار طب الجان.

كان الدكتور (ش) كما حدثنا الصديق الذى صحبنا إليه ، وكما نشر عنه فى العديد من الجرائد فى ذلك الوقت طالبا فى السنوات النهائية بكلية الطب .

وفجأة، وذات صباح، اختفى، تلاشى، خلت منه جدران بيته الريفى ، لم يترك وراءه أى أثر يشير إلى سبب اختفائه أو كيفيته ، واستمرت رحلة البحث عنه سنوات وسنوات ، ولم يظهر له أثر .

وفى أحد الأيام وذات صباح، عاد فجأة كما ذهب فجأة، عاد بعد سبع سنوات ليكشف السر الغامض وراء اختفائه . **قال إن الجن اختطفوه واحتفظوا به معهم طوال هذه السنوات فى عالمهم المجهول،** وإنه عاش حياتهم بكل شكل من أشكالها ، واستكمل بينهم دراسته فى مجال الطب ، ولقنوه أسرارهم وعلومهم فى مجال العلاج من الأمراض وأنواع المس الشيطانى ، والتى يقال إنها أكثر تقدما بين الجن عنها بين البشر . وذاع صيته بعد أن نجح فى علاج الكثير من الحالات بكفاءة تعادل كفاءة كبار الأطباء . وأصبحت الروشتة التى يكتبها لمرضاه تشمل أحدث الأدوية التى عرفها الطب الحديث .

* * *

هذه هى القصة التى اختطفتنى من أيدى أطباء البشر لتلقى بى بين يدى طب الجان.

«**وبلبعت**» أدويته التى لم يكن بعضها جديدا علىّ ، ولم يستطع دواء الجان أن يطرد الجنى الذى يعربد فى رأسى ، واستمر الصداع ، واستمرت جولاتى بين أطباء الأمراض النفسية «البنى آدمين» وداومت على «بلبعة» أدوية الأمراض النفسية والمسكنات ، **إلى أن قادتنى «عفرتة» الجنى الذى يسكن «ويعشش» فى رأسى إليه، إلى الشيخ (ح).**

* * *

أرواح في بيتي!

أخذت أستمع إليها وقد استغرقتني الشكوك في صحة ما تقول.

فقد كنت وبعد كل رحلة فاشلة إلى عالم المجهول والغيبيات من أجل العلاج، تنتابني حالة من التمرد والرفض للقيام بمزيد من الرحلات، وظلت صديقتي تطاردني ولعدة شهور بحكاياتها عنه، وكيف أنه ذو قوى روحانية خارقة في علاج الأمراض النفسية والعضوية المستعصية، وتحت ضغط إغرائها وإلحاحها، وتحت ضغط الآلام التي تعربد في رأسي؛ اتصلت به.

اتصلت به تليفونيا بعد محاولات استمرت عدة أسابيع، فقد كان خط تليفونه مشغولا دائما في تلك الفترة التي كان يحددها لتلقي مكالمات طالبي الحاجة وهي من الثالثة بعد الظهر وحتى الخامسة.

وجاءني صوته هادئا رقيقا مطمئنا، لم يسألني عن اسمي، ولم يسألني عن عنواني أو عن رقم تليفوني، ولكنه استمع إليّ حتى النهاية، ولم يعقب سوى بكلمات قليلة قال لي فيها: إن محاولات العلاج الروحاني سوف تبدأ، وطلب أن أعاود الاتصال به بعد ثلاثة أيام.

وآويت إلى فراشي في تلك الليلة، تلوت الأدعية والآيات التي تعودت على ترديدها قبل النوم، وأخذني النوم برفق بين أحضانه.

واستيقظت فجأة، ربما بعد دقائق، وربما بعد ساعات، لأرى في عتمة الحجرة التي تسلل إليها بعض الضوء من خلال خصاص نافذتها عددا من الأشخاص في ملابس الأطباء البيضاء، وقد أحاطوا بي، وتوجهت بنظري في هدوء وقد انتابتني سكينة بالغة إلى السرير المجاور، وتأكد لي أنني لا أحلم وأنني لا أعاني من أية خيالات أو هلاوس عندما رأيت زوجي ممددا في الفراش وقد استغرق في نوم عميق.

وعدت لأغمض عيني في استسلام هادئ، وأنا أستمع إلى همهمات زوار الليل الخافتة، وشعرت بأيد تمتد في رقة إلى رأسي لتدخلها في أنبوبة كبيرة مفتوحة أو شيء أشبه بالقبة، أو ذلك الصندوق الشفاف الذي يستخدم في مراكز الأشعة المقطعية، ووجدتني أساعدهم في محاولاتهم إدخال رأسي في هذا الشيء الشبيه بالصندوق الكائن خلف رأسي، وكأنما قد تلاشى ظهر الفراش والحائط الواقع خلفه ليترك متسعا لهذا الجهاز، وكما استسلمت لأيديهم الحانية استسلمت لسلطان النوم، وأخذني سبات عميق.

* * *

واستمع إليّ زوجي في الصباح بين مكذب ومصدق، فهو يعلم أنني محرومة من نعمة النوم العميق وأنني أستيقظ لأدنى أو أتفه صوت.

واستمع إليّ الشيخ (ح) عبر سماعة التليفون، وأكد لي أن ما حدث كان حقيقة وليس وهما، وأن زوار الليل هم الأرواح التي تتولى مهمة علاجي، وأخبرني أن رؤيتي لهم وشعوري بهم ليست شيئا معتادا إلا بين الأشخاص ذوي الشفافية الشديدة، وطلب مني أن أتصل به مرة أخرى بعد ثلاثة أيام، وأن أتوقع زيارتهم بين ليلة وأخرى.

وقضيت ليلتين بائستين بعد ذلك، كانت تنتابني حالة من الفزع البالغ عندما يحتويني الفراش بعد أن أطفيء نور الحجرة، وتظل عيناي مفتوحتين محملقتين في فراغ الحجرة المعتم المليء بالخفايا والأسرار، وتنتابني رجفة تسري في كل كياني، وأنا أنتظر القادمين من العالم الآخر، وكان النوم دائما أرحم بي من مخاوفي ومن خيالاتي، حتى كانت الليلة الثالثة.

انتفض جسدي فجأة وقد سرت فيه رعشة شديدة، وأنا أستيقظ على تلك الأنفاس الحارة التي تهب على وجهي، وانتابني رعب هائل رغم إدراكي الكامل ووعيي بأن تلك الأنفاس كانت مصحوبة بتلاوة من آيات قرآنية أخذ يرددها كائن مجهول، وفتحت عيني في فزع وواجهني وجه غامض الملامح يكاد أن يلتصق بوجهي وهو يردد آياته، وأغمضت عيني بسرعة وقد ارتفع صوتي بآية الكرسي لأصرف بها ذلك الكائن المجهول الذي أوقع الرعب في قلبي، وحملتني كلمات القرآن الكريم، وذهبت بي في رحلة من النوم الهادئ العميق.

وعدت أتصل بالشيخ (ح)، وعاد يؤكد لي أن الأرواح ترعاني وتتولى أمر علاجي.
ومرت الأيام ولم أعد أستيقظ ليلا على زوار العالم المجهول. وداومت الاتصال بالشيخ (ح) لعدة شهور، ثم يئست منه ومن أرواحه التي لم تستطع أن تقهر الجن الذي يعربد في رأسي.

وعدت أستأنف جولاتي بين الأطباء، وعدت أبلع أدوية الأمراض النفسية، وعدت «أبلبع» المسكنات، إلى أن عدت إليه بعد أربع سنوات، عدت إلى الشيخ (ح)، ورأيته وجلست معه واستمعت إلى قصته مع الأرواح.

رفعت سماعة التليفون في لحظة من لحظات يأسي وكفري بالطب والأطباء، وتذكرني الشيخ (ح) رغم انقطاعي عنه لعدة سنوات، وعاتبني لغيابي الطويل قائلا إن الشياطين هي التي أبعدتني عنه وعن عالمه الروحاني.

وطلبت أن أقابله وأن أراه، ورفض بشدة في البداية، وعاد فلان عندما أخبرته أنني في تعطش لمعرفة المزيد عن هذا العالم الخفي المجهول.

وذهبت إليه في شقته التي تقع في إحدى العمارات الكبيرة بأحد شوارع الدقي الرئيسية، وفتح لي الباب، متوسط القامة، أميل إلى النحافة في بنطلونه الرمادي وقميصه الأبيض، ذو بشرة بيضاء مشربة بالحمرة، وبدا لي بقسمات وجهه الهادئ الوسيم وشعره الأبيض وكأنما هو من أصل قوقازي، وقابلت ابنته الشابة الأنيقة قبل أن تخرج من الشقة وهي في طريقها إلى الجامعة، ومررت وأنا في طريقي إلى حجرة الجلوس بشقيقة زوجته الضريرة التي تعدت مرحلة الشباب.

واستمع إليّ وأنا أعرفه للمرة الأولى بنفسي، واستمعت إليه وهو يجيب على تساؤلاتي المتلاحقة، محاولا أن يشبع نهمي إلى معرفة ذلك العالم المجهول اللامرئي، عالم الأرواح.

كان في صباه شابا لاهيا عابثا، يغرق منذ لحظة خروجه من عمله الحكومي وحتى صباح اليوم التالي في بحور الخمر والنساء والشهوات، وكان بعض أصدقائه من الصحفيين والمثقفين ينتشلونه أحيانا من بين أمواج حياته البوهيمية ويأخذونه معهم في بعض جلسات تحضير الأرواح.

وكان ما يستهويه في تلك الجلسات، إلى جانب كونها ضربا من ضروب التسلية، تلك العبارات التي كانت تخرج من شفاه الوسطاء الروحانيين الغائبين عن الوعي على اختلاف شخصياتهم، والتي كانت تشير إلى أن الأرواح التي يتم استحضارها من خلال هؤلاء الوسطاء، تعلن عن رغبتها في استقطاب **الشيخ (ح) والاتصال به، وكانت حياته اللاهية العابثة هي التي تحول بينه وبين اتصال الأرواح به.**

وتكررت الجلسات، وتكررت عبارات الوسطاء، حتى تزوج وأنجب، وبدأ تدريجيا في التخلي عن حياته اللاهية، إلى أن جاء ذلك اليوم.

أصيب ابنه الصبي الصغير بالتواء حاد في ساقه، وحمله إلى الطبيب وعاد به إلى المنزل ليضعه في الفراش وهو يئن من الألم. وما إن استغرق الصبي في النوم، حتى عاد الشيخ (ح) إلى حجرة المعيشة وأخذ يدعو له بالشفاء، وهو يتلو في المصحف بعض آيات القرآن الكريم. وعاد إلى نفسه فجأة، وقد أخذته دهشة هائلة، عندما رأى ابنه يندفع داخل الحجرة وهو يجري على قدميه، ويدور حول نفسه في فرحة غامرة.

وعلم الشيخ (ح) أن ابنه رأى فيما يشبه الحلم، أنه قد استيقظ من نومه فجأة... ورأى حول فراشه والده ومعه مجموعة من الأشخاص ذوي الملامح الغامضة يرتدون ملابس الأطباء البيضاء، حيث قاموا بلمس قدمه المصابة بأيديهم.

ومن هنا بدأت أولى مراحل العلاقة التي نشأت بين الشيخ (ح) والأرواح، وأصبح بعد ذلك يسمعها ويتعامل معها، بل أصبح يراها ويجلس إليها.

بدأ ذلك عندما كان يستيقظ فجأة في بعض الليالي على صوت واضح يهمس في أذنيه، ويطلب منه النهوض والجلوس إلى المكتب، ثم يبدأ في تدوين ما يمليه الصوت عليه وهو ما أسماه بنعمة الجلاء السمعي، واستمر ذلك لعدة شهور، حتى انتهى من ذلك الكتاب الضخم الذي قام بتجليده فيما بعد، والذي وضعه بين يدي في أثناء زيارتي له لألقي نظرة على صفحاته. كان الكتاب بصفحاته الكثيرة يضم خلاصة الأفكار والاتجاهات الصوفية وبأسلوب رائع راق، وشعرت وكأنما أقرأ لائحة المتصوفة المسلمين ممن تيسر لي القراءة لهم من قبل، وتلمست بين سطور ما قرأت فكرا ربانيا روحانيا شفافا يصعب فهمه على القارئ العادي، بل ويصعب تجسيده والتعبير عنه ربما على المتصوف المتخصص.

وكان هذا الكتاب هو الإنتاج الوحيد الذى قامت الأرواح بإملائه على الشيخ (ح)، حيث بدأ الدخول بعد ذلك فى مرحلة من الصوفية المعتدلة، وحيث تلاها مرحلة معايشة شبه كاملة لأرواح الموتى المقربين إليه، حيث كانوا يتجسدون له فى صورة نورانية، دون أن يكون قادرا على لمسهم، فقد كانوا مجرد مادة غير محسوسة ولكنها كانت مرئية، وهو ما أسماه بنعمة أو موهبة الجلاء البصرى.

وبدأت أرواح الموتى من الأهل والأقارب ومن بينهم زوجته وبعض أبنائه يصحبون معهم أرواحا أخرى ذات قدرة ربانية عالية على علاج الأمراض الجسمانية والنفسية. وأصبح بمعاونتهم سواء فى حالة تجسدهم له أو اختفائهم يقدم خدماته لكل ذى حاجة، لأى إنسان، وفى أى وقت من أوقات الليل والنهار.

وكلما مرت السنوات زاد المؤمنون بقدرته والمترددون عليه، حتى لم يعد فى حالة صحية تسمح له بالاستمرار فى طريقته؛ فتوقف عن مقابلة الناس، وجعل التليفون وسيلة الاتصال الوحيدة به، ثم عاد فقيّد مدة الاتصال المسموح بها من الساعة الثالثة وحتى الخامسة فقط يوميا، وظل لسنوات أخرى كثيرة مقيدا إلى التليفون خلال هاتين الساعتين، يرفع سماعة التليفون، **ومن خلال جسده وأذنه كانت رسائل ومطالب أصحاب الحاجات تصل إلى الأرواح سواء فى صورتهم المجسدة أو هالاتهم اللامرئية.**

وانصرفت فى ذلك اليوم على وعد بتكرار الزيارة بعد عودتى من إحدى سفرياتى مع أسرتى إلى ألمانيا، وطلب منى وهو يودعنى حتى الباب أن أفكر فيه كلما اشتد الصداع؛ فإن الأرواح التى تلازمه قادرة على تلقى رسائلنا الفكرية المتبادلة، وأنها ستعمل على مساعدتى رغم آلاف الأميال التى تفصل بيننا.

وسافرت إلى ألمانيا، وسافر معى الجنى الذى يعربد فى رأسى. وحاولت مرارا أن أهدئ من عربدته وأنا أستحضر فى ذهنى الشيخ (ح). وجريت إلى التليفون أكثر من مرة أستنجد **بالشيخ (ح)** وبأصدقائه من الأرواح.

وكما ضاعت نقودى بين الأدوية وبين الأطباء، ضاعت أيضا ما بين كل مكالمة وأخرى أقوم بها من برلين إلى القاهرة، **ولكن لم يضع الصداع، فقد استمر الجنى الذى يسكن رأسى «يتشقلب» و«يتنطط» و«يتعفرت».**

ولم أستمتع برحلتى إلى ألمانيا؛ فقد «نكّد» علىّ الجنى الذى يسكن رأسى، ولم يفارقنى الصداع طوال الشهرين اللذين قضيتهما هناك، ولكن فارقنى الإيمان بقدرات **الشيخ (ح)**، وفارقنى الإيمان بأرواحه كبيرهم وصغيرهم.

وفارق الشيخ (ح) الدنيا بعد ذلك بعدة سنوات، حاملا معه سره الكبير. هل كان حقيقة على اتصال بكائنات ذلك العالم المجهول؟ هل هناك حقيقة أرواح تتصل ببنى البشر وتهمس وتتكلم وتتجسد؟ هل كان الشيخ (ح) يعيش حالة نفسية، ويحيا وهما عاش به وعاش من أجله؟

أسئلة كثيرة لم أجد إجابة عليها فى ذلك الوقت، ولكن تجاربى اللاحقة مع عالم العلاج الروحى سواء فى مصر أو إنجلترا أجابت على بعض هذه التساؤلات.

وللحديث عن هذا العالم بقية...!!

تسخير الجان الطريق إلى المال والنساء!!

وعاد الصداع «يجرجرني» إلى أبواب أطباء الأمراض النفسية، وعدت «أبليع» الحبوب المهدئة «وأبليع» المسكنات إلى أن قادتني قدماى إليه، إلى جحره، وإلى وكره، وإلى شبكته التي يصطاد بها المال والنساء.

* * *

كان بيته فى حدائق القبة، وفى إحدى عمارات الأوقاف كانت شقته التي سعيت إليها مع اثنتين من صديقاتي، إحداهما تلك التي ذهبت معها إلى ذلك الدجال الذي يسكن في منطقة المرج.

ودخلنا الشقة، وفتح لنا الباب واحد من أعوانه بناء على موعد سابق، كنت قد سمعت كلاما كثيرا حول قدرات هذا الرجل الخارقة، ومرت نحو السنة منذ أن سمعت عنه لأول مرة، وأنا لا أجد فى نفسى الرغبة فى استئناف رحلاتي للعالم المجهول.

وجلسنا ثلاثتنا على المقاعد الوثيرة بعد أن اختفى مساعده داخل الشقة، في تلك الصالة الواسعة فخمة الأثاث والتى غمرها ضوء الثريا الثمينة المدلاة من السقف، وكان هو جالسا على أحد المقاعد المحيطة بمائدة الطعام فى حجرة الطعام المفتوحة على الصالة وكأنها جزء منها.

وأشار بيده وهو يتساءل فى لا مبالاة عن صاحبة المشكلة، وأجبته بأننى صاحبة المشكلة، وعاد يشير بأصبعه إلى رزمة من الورق الأبيض كانت أمامنا على المنضدة وبجوارها قلم، وطلب منى أن أكتب اسمى واسم أمى وكذلك السبب الذى جئت إليه من أجله.

وما كدت أن أنتهى من كتابة ما طلب وما كدت أهمّ من مكانى لإعطائه الورقة، حتى أمرنى بالتوقف مكانى وتطبيق الورقة عدة طيات حتى أصبحت فى حجم لا يزيد عن حجم عقلتى أصبع متجاورتين، ثم عاد ليأمرنى بأن أضعها فى باطن يدى، وأن أطبق

كفي تماما عليها، ثم أشار إلىّ بأن أتقدم نحوه، وأجلسني على مقعد مجاور له حول مائدة الطعام.

واستغرق في تلاوات وهمهمات بلغة غريبة غير مفهومة، علمت فيما بعد أنها اللغة السوريانية التي يستخدمها المتصلون بالجن. وبينما استغرق ولعدة لحظات فيما كان يقوله، كنت أتفحص قامته المتوسطة الأقرب إلى الامتلاء في جلبابه الأبيض الحريري الأنيق، وأتأمل وجهه الوسيم المستدير المائل إلى البياض المشرب بالحمرة، وعينيه شديدتي الاخضرار برموشهما الطويلة السوداء، وشعره الأسود الغزير الناعم.

وتناهى صوته فجأة وهو يسألني في ثقة:

ـ اسمك نادية؟

وكان اسمي صحيحا!

وصمت لحظة وهو ينظر أمامه إلى لا شيء، وعاد يسأل وهو يقول:

ـ أمك اسمها (. . . . .)؟

وكان اسم أمي صحيحا!

وعاد إلى الصمت مرة أخرى، وبدا كأنه يسمع ويرى شيئا خفيا لا نراه ونظر إلىّ مرة أخرى وهو يقول:

ـ بتشتكي من صداع ما بيروحش؟

وكان ذلك صحيحا!

وتناول قلما من أمامه وأعطاه لي، وطلب مني أن أدس طرفه في يدي المنطبقة على الورقة، وقال موجها كلامه باللغة العربية إلى ذلك الشيء الخفي الذي لا نراه:

ـ من فضلك اكتب لها الرد في الورقة، وانصرف بسلامة الله.

وطلب مني أن أفتح يدي، وأن أفتح الورقة وأقرأ ما كتب عليها من الخلف.

وأدهشني ما رأيت! كلمات قليلة مكتوبة بخط دقيق جميل جاء فيها: «يلزم لها علاج روحي قمري وستشفى بعد ذلك بإذن الله».

وشرح لي الشيخ (م) ما جاء في الورقة قائلا إن شفائي مضمون بإذن الله، وإنني في حاجة إلى جلسات علاج روحاني لعدة مرات وحتى موعد اكتمال القمر في السماء.

حيث سيتولى هو فى تلك الليلة بمفرده استكمال آخر مراحل العلاج، وطلب منى أن أعود إليه عندما أقرر البدء فى العلاج.

وانصرفنا بعد أن دفعت عشرين جنيها إلى مساعده، الذى قال إن كل جلسة من جلسات العلاج ستكلفنى عشرين جنيها.

وما كاد باب الشقة ينغلق خلفنا، حتى بدأنا جميعا وكل منا تسبق الأخرى، نعبر عن اندهاشنا وتعجبنا لما تم أمام أعيننا، وانسابت تعليقاتنا المختلفة حول فخامة شقته وأناقة وذوق أثاثها، وحول مظهره وشكله ووسامته، وحول مدى مقدرته أو عدمها على علاجى، والكيفية التى سيتم بها العلاج.

وبينما كانت صديقتاى المشدوهتان المنبهرتان بالمعجزة التى تمت على يديه تبديان إيمانهما العميق بقدراته الخارقة «وتعيدان وتزيدان» فيما جرى على يديه من إعجاز يفوق التصور، غبت عنهما وأنا أمسك بعجلة قيادة السيارة، كان عقلى يدرس ويدقق ويحلل كل خطوة وكل حركة وكل ظاهرة تمت منذ دخولنا باب الشقة وحتى خروجنا منها.

وبدأت أطرح عليهما ما توصلت إليه من تحليلات وتفسيرات، ولفت أنظارهما إلى أن مساعده الذى فتح لنا الباب هو الذى حدد لنا المقاعد التى كان علينا أن نجلس عليها، وأن هناك احتمالا قائما فى أن تكون هناك كاميرا تلفزيونية مثبتة بصورة خفية فى مكان ما من الحجرة وموجهة إلى مكان جلوسنا؛ بحيث ترصد ما قمت بكتابته على الورقة، فى الوقت الذى يقوم فيه المساعد أو أى شخص آخر داخل الشقة، وبناء على ما يراه على شاشة الجهاز المتصل بالكاميرا بإملاء الكلمات المكتوبة عن طريق ميكروفون متصل بسماعة خفية يكون الشيخ (م) قد دسها فى ملابسه أو فى أذنه قبل دخولنا، مما يفسر قدرته على ترديد ما جاء فى الورقة دون أن يقترب منها أو يلمسها.

كذلك فقد فسرت الكتابة الغريبة التى وجدتها فى ظهر الورقة، بأن الورقة التى تناولتها من أعلى المنضدة كان مكتوبا عليها تلك الكلمات التى وجدتها خلفها بالحبر السرى، وأن حرارة يدى التى كنت أقبض بها عليها أدت إلى ظهور هذه الكتابة.

ولم «أخلص» من تعليقات صديقتى، وبدأتا تتهمانى بأن عقليتى العملية وتحليلاتى وتفسيراتى العلمية كانت وراء عدم إيمانى واقتناعى بالظواهر الخارقة التى سبق أن عايشتها، وأن ذلك هو السبب فى عدم شفائى حتى الآن.

ورفعت يدى أسكتهما بها، وانطلقت أحدثهما بما تفتق عنه ذهنى، فقد قررت أن

أجرى اختبارا للشيخ (م) أتبين من خلاله مدى مهارته، ومدى شطارته، ومدى شطارة الجنى الذى يتعامل معه.

وذهبنا ثلاثتنا إليه في اليوم التالى، وتعمدنا ألا نجلس على المقاعد التي أشار لها مساعده، وأخبرت الشيخ (م) بأننا جئنا هذه المرة من أجل صديقتى.

وتكررت نفس طقوس اليوم السابق، طلب منها أن تتناول ورقة بيضاء من المنضدة الماثلة أمامنا، وأسرعت صديقتى التى تعانى من العقم تقاطعه وهى تلوح له على البعد بورقة مطوية قامت بإغلاق يدها عليها وهى تقول: أنا كتبت كل حاجة في الورقة دي.

وداريت ابتسامتي وقد ملأتنى الشماته فيه وفى الجنى صاحب الخط الجميل فقد تغلبت على الكاميرا الخفية، وتغلبت على الحبر السرى.

وأشار إليها أن تقترب منه وأن تجلس في المقعد المجاور له حول المائدة، وتبددت شماتتى، وتبددت شكوكى عندما أخبرها بكل ما كان مكتوبا فى الورقة، وتأكدت لى قدرته على الاتصال بالجان عندما قامت صديقتى بقراءة الرد الذى قامت بكتابته تلك القوى الخفية، فقد كان مكتوبا (حيوانات الزوج ضعيفة ويلزم له علاج روحى وعلاج طبى بالأعشاب).

وانهارت تفسيراتى العلمية مع انهيار شكوكى، وأعلنت رغبتى فى البدء فى جلسات العلاج لحين اكتمال القمر كما قال لى بالأمس. وتقدمنى إلى حجرة داخلية بها عدة مقاعد وثيرة وكنبة عريضة، وقد انسدلت الستائر الكثيفة على نوافذها، وانبعث من جنباتها ضوء خافت من خلال أباجورتين ثمينتين. وتوجهت فور دخولى إلى أحد المقاعد، وما كدت ألمس المقعد، حتى استوقفنى صوته طالبا منى بالتقدم إلى منتصف الحجرة حيث كان يقف، وواجهنى وهو يحدق فى عينى بشدة.

لم أكن أعرف تحديدا طبيعة ذلك العلاج الروحانى الذى سوف يقوم به، ولم يكن لدى أية فكرة عن الخطوة التالية التى سوف يقدم عليها، وأزعجتنى نظراته الفاحصة المحدقة، وأرخيت عينى إلى الأرض.

ومد يده ورفع ذقنى بطرف إصبعه ليعاود التحديق فى عينى.

وانتابتى حالة من التوتر والقلق والشعور بعدم الراحة، وهو يمد يديه ليستقر بهما على كتفى بينما أخذ يردد فى بطء ورتابة وبهلجة ممطوطة:

ـ عايزك تسترخي، انسي كل حاجة حواليكي، بصي في عنيه، بصي كمان، استرخي، استرخي، اهدي، ما تخافيش، رخرخي أكتافك، رخرخي جسمك.

وشعرت مع كل كلمة من كلماته بأن يديه اللتين استقرتا على كتفي تجذبني إليه في خفة وبطء، وشعرت بكتفي يتصلبان تحت ملمس يده وأنا أرجع بهما إلى الوراء.

وعاد يجذبني تجاهه وهو يردد قائلا في لهجة رتيبة آمرة:

ـ أنا عايزك تسترخي، ما تقاوميش إيديه، خليكي مع حركة إيدي، ما تنزليش عينيكي في الأرض، بصي جوه عينيه، بصي فيها كمان، بصي كمان، استرخي، استرخي.

وحاولت قدر إمكاني أن أنفذ تعليماته، وأن أجبر جسدي على الاسترخاء، وقد انتابتني حالة أشبه بالدوار، وتناهى لي صوته الذي أصبح همسا وهو يقول في لهجة إيحائية:

ـ أيوه، كده كويس، جسمك بيسترخي، وعقلك بيسترخي، غمضي عينيكي، غمضي عينيكي. إنتي جسمك تعبان، إنتي تعبانة اتسندي عليّه. ما تخافيش. اتسندي عليّه.

وأدركت وأنا ما زلت محتفظة بجزء من وعي أنه يشدني ويجذبني إليه، وغمرتني رائحة عطرية نفاذة تنبعث من جسده ومن ملابسه، وقد انحدرت يداه على كتفي لتحيط بظهري، ووجدت جسدي يتصلب بين يديه وأنا أجذب جسدي بعيدا عنه، وشدد قبضته على ظهري وهو يجذبني إليه مرة ثانية وهو يردد:

ـ إنتي حتبوظي الشغل كده، خليكي معايا، ركزي معايا، اسمعيني بأقول إيه، ركزي، استرخي.

وانتابتني حالة من التحفز والهياج، وأنا أدفعه بعيدا عني بكل ما أوتيت من قوة بينما أخذت أردد في استنكار وغضب:

ـ إيه اللي بتعمله ده؟ إيه اللي بتعمله ده؟

وعاد يحاول الإمساك بي وهو يردد في نعومة وإلحاح:

ـ لو عايزه تخفي لازم تطاوعيني، إنتي مش حتخفي إلا بكده.

وتعالى صوتي وأنا أصيح بينما كنت أدفعه في صدره بكلتا يدي وأنا أجري وأفتح باب الحجرة:

ـ مش عايـزة أخف، مش عايزة أخف، إن شاء الله عنى ما خفيت، إن شاء الله عنى ما خفيت.

وفي خطوة واحدة أصبحت في الصالة. . . واندفعت إلى باب الشقة لأفتحه وأنا أشير إلى صديقتى قائلة فى لهجة هستيرية:

ـ يا للا. . . يا للا. . . بسرعة. . . بسرعة. . .

واندفعت أهبط السلم قفزا وكأنما هناك جنيا يطاردنى، ولم أتوقف عن الجرى حتى بلغت سيارتي، أكاد لا أصدق أننى قد نجوت من هذه التجربة المريرة القاتلة.

ولم أعد إليه مطلقا.

ولم يهمنى بعد أن نجوت منه أن أعرف ما إذا كان ما يمارسه داخل وكره هو ضرب من الخداع والألاعيب المحبوكة، أم إنه قادر بالفعل على تسخير الجن.

كل الذى أصبحت أوقن به، هو أن أهدافه لم تتعد جمع الأموال من وراء الممارسات التى كان يقوم بها بمساعدة الجن إذا كان هناك حقيقة جن، وإشباع شهواته من خلال النساء اللائى كن يقعن فى قبضته.

فضلت أن أعيش مع الصداع، ومع الجنى الذى يعربد فى رأسى على أن أعيش مع الخطيئة.

فى انتظار جائزة الأوسكار

نعم . . !

أنا أكثر ممثلات العالم استحقاقا لجائزة الأوسكار . .

لماذا . . ؟

لأن . .

لم يكن فوزى بجائزة أفضل كتاب بالنسبة لى مجرد شهادة على تميزى ككاتبة وباحثة ، بقدر ما كان شهادة تقدير لقصة كفاحى البطولية .

قصتى التى خططت كل سطر فيها بنزيف الألم الصامت الأخرس .

قصتى التى كتبت كل كلمة منها بدموع العجز عن الحصول على الشفاء .

* * *

فمع تعاطى المهدئات والمسكنات لسنوات عديدة ، ومع ما يصاحب الصداع عادة - كما هو معروف لدى من عانى مرة أو أكثر من هجمات الصداع - من تسلل الألم إلى الجبهة والعينين وعدم القدرة على مواجهة الضوء ، وصعوبة القراءة بسبب تداخل الحروف وعدم وضوحها ، أصبحت أعانى من صعوبة بالغة فى التركيز وعدم القدرة على الاستيعاب بصورة سلسة ، وكأن هناك غلافا سميكا أو نوعا من الأبخرة الضبابية الكثيفة تغلف عقلى وتُحد من مستوى تيقظى ووعيى ، وتجعلنى فى حالة دائمة من انعدام الاتزان والخمول الذهنى والتبلد ، وكأنما أنا فى حالة دائمة من السكر والغيبوبة وأتمنى لو أن لدى القدرة على أن أمد أظافرى إلى أعماق أعماق رأسى ، لتمزق وتنتزع ذلك الغلاف السميك الذى يلف وعيى ويخيبنى ، وأصبحت كلما خلوت إلى نفسى أهز رأسى بعنف وقوة وبحركة لا إرادية لأوقظ عقلى وذهنى الخامل وأعيد لهما توقدهما وحيويتهما ، وأطرد السحب المتكاثفة الجاثمة على وعيى وإدراكى .

وعانيت كثيرا وفى صمت من تلك الأعراض الدائمة التى كنت أخجل من الإفصاح عنها أو تناول تفاصيلها حتى مع أفراد أسرتى .

ونجحت فى الإبقاء على سرى الكبير طى الكتمان ، ولم أفصح عنه مطلقا إلا من خلال هذه السطور ، ونجحت فى أن أبدو دائما سواء داخل البيت أو خارجه إنسانة ذكية لماحة ، قادرة على التحليل والاستنتاج ، بارعة فى انتقاء الألفاظ والعبارات ، ذات مستوى عال من التسلسل الفكرى والمنطقى .

ولم يكن ذلك كله بالأمر الهين أو اليسير ، ولم يكن مجرد توظيف لقدراتى الخارقة فى التمثيل أو التمويه على الآخرين ، فقد كان ذلك يتطلب منى أن أبذل مجهودات خارقة مستميتة لا طاقة بها لبشر ، كى أشحذ كل قواى لأنتزع وعيى بكل عنف وضراوة من أغواره السحيقة المغلقة بتلك الأبخرة الضبابية الكثيفة .

وأصبحت تلك المجهودات المستميتة هى أسلوب حياتى الدائم فى كل صغيرة أو كبيرة من أمور حياتى ، أسلوبى وأنا ألقى محاضراتى ، أسلوبى وأنا أتناقش فى المؤتمرات والندوات ، أسلوبى وأنا أقود سيارتى ، أسلوبى وأنا أقرأ ، أسلوبى وأنا أقوم بأبحاثى وأكتب مؤلفاتى ، وأسلوبى وأنا أمثل مصر بنجاح واقتدار فى العديد من المؤتمرات فى الخارج .

ولم يخذلنى ذلك الأسلوب مطلقا حتى فى مواجهة أقسى المواقف وأحلكها فى مصر أو خارجها ، حتى لو كان ذلك فى أزقة وحوارى شرق لندن ، أو حى هارلم بنيويورك ، أو تلك الأحياء التى يخشى الأمريكيون أنفسهم غشيانهم بعد الغروب فى شيكاغو .

* * *

وهكذا عشت وما زلت فى حرب دائمة وصراع مستميت من أجل انتزاع وعيى المغيب بسموم الأدوية المهدئة والمسكنات وألم الصداع ، وعدم الاستسلام لذلك الجنى الذى يعربد فى رأسى ، والذى «جرجر» معه جنيا آخر يعربد فى معدتى .

فقد أصبت بقرحة متكررة ومزمنة فى الاثنى عشر بسبب المسكنات التى لم أكن أستطيع أن أحيا بدونها رغم انخفاض تأثيرها فى تخفيف حدة الصداع ، وأصبحت «زبونة» شبه دائمة لدى أطباء الجهاز الهضمى والمناظير .

كانت السنوات التى تلت إصابتى بالصداع وآلام المعدة سنوات مليئة بالمعاناة والعذاب ، وكانت رحلتى من القاهرة إلى بورسعيد حيث توجد كليتى التى أعمل بها

والتى تتكرر مرتين أسبوعيا أو ثلاث، بالإضافة إلى ترددى الدورى على المكتبات ومراكز البحوث، وكذلك حضور بعض المؤتمرات والندوات الهامة أو المساهمة برأيى فى بعض التحقيقات الصحفية أو البرامج التلفزيونية أو إجراء بعض البحوث الميدانية، إلىْ جانب أعبائى كزوجة وأم وربة بيت، كانت كل تلك المجهودات تستنزف نشاطى وطاقتى، وتتركنى واهنة خائرة القوى خاصة فى ظل تكريس كل إمكانياتى التمثيلية لإخفاء معاناتى عن عيون كل من أتعامل معهم.

كان مظهرى دائما يعكس صورة امرأة بشوشة شديدة الأناقة ذات ابتسامة دائمة وروح مفعمة بالمرح والحيوية الدافقة، فى الوقت الذى تدوى فيه داخلى معزوفة الألم الصامت الأخرس. . .

ألم أكن دائما ممثلة بارعة؟

* * *

وكان من فضل الله علىّ أن جعل من النوم العلاج السحرى الوحيد الذى يقلل من حدة الألم فى كثير من الأحيان، ليعود مرة أخرى تدريجيا بعد استيقاظى ومغادرتى الفراش وليصل إلى ذروته بعد مضى ساعتين أو ثلاث.

وبذلك أصبحت إذا ما خرجت من البيت فى حالات الضرورة القصوى لا أحلم إلا بالعودة إليه، لأرتمى بجسسدى المكدود على الفراش، حيث كانت معزوفة الألم مع المحاولات الدءوبة لانتزاع وعيى من أغواره السحيقة، ومداومتى على تمثيل دور الإنسانة الطبيعية التى لا تختلف عن الآخرين، تستنزف كل طاقتى وقواى وتجعلنى فى حالة دائمة من الضعف والخور والإعياء.

ومع الوقت وبمضى السنين أصبح فراشى المكان الوحيد المفضل الذى أقضى فيه معظم أوقاتى، حيث أجلس فيه نصف جلسة وقد أسندت رأسى إلى مجموعة من الوسائد، فقد كان هذا الوضع أكثر الأوضاع التى تحقق لى بعض الراحة النسبية.

وأصبح فراشى مملكتى المحبوبة أتناول فيه معظم وجباتى وأشاهد التلفزيون وأنا مستلقية عليه، وفيه كنت أجلس إلى أفراد أسرتى عندما لا يكون هناك ما يشغلهم أو يشغلنى، وفيه مارست كل قراءاتى وهواياتى التى لا تحتاج إلى التنقل أو الحركة، وفيه كتبت معظم مؤلفاتى.

وكما كان الفراش دوائى فقد أصبح الفراش دائى ، جرجرتنى الفترات الطويلة من التزام الفراش إلى معاناة صحية أخرى جديدة .

أصبحت أعانى من مشكلات وآلام شبه دائمة فى بعض الفقرات العنقية والصدرية والقطنية ، وأصبحت الجلسات الدورية من العلاج الطبيعى ضرورة من ضروريات حياتى .

وكالعادة نجحت فى اجترار آلامى الصامتة وإخفائها وراء مظهرى الأنيق ، وابتسامتى الكبيرة التى لا تفارق وجهى ، وخطواتى السريعة الرشيقة ، وقامتى الطويلة المشوقة .

ألم أكن دائما ممثلة بارعة؟

* * *

وإن كنت قد استفضت فى عرض تفاصيل بعض أوجه معاناتى فى الصفحات السابقة ، فإن ذلك لم يكن فقط بهدف تجسيد مدى صلابتى وإصرارى على قهر الألم بقدر ما كان عرضا لمبرراتى وأسبابى الموضوعية التى كانت تأخذنى من أعتاب عيادات الأطباء بعد فشل كل تجربة من تجارب علاجهم لى ، لتلقى بى إلى أعتاب من يمارسون العلاج الروحانى وطاردى الجن والعفاريت .

ولأترك لكم الحكم .

ألم أكن أحمل بين يدى أعذارى ، وأسبابى ، ومبرراتى؟

ألم أكن أحمل أعذارى وأنا أتنقل بين الدجالين والمشعوذين والروحانين فى مصر؟

ألم أكن أحمل أسبابى وقد ملأنى الأمل فى الشفاء ، وأنا ألجأ إلى أرواح الموتى حتى ولو كانوا من «الخواجات» الإنجليز؟

ألم أكن أحمل مبرراتى وأنا أقضى الليالى الطويلة وحيدة فى حجرتى المظلمة بمصر الجديدة أترقب حضور الأرواح القادمة من بلاد الفرنجة؟

إليكم قصة أخرى ، وتجربة أخرى .

صديقى الإنجليزى الذى
أعادنى إلى عالم الروح

كانت أشعة الشمس الذهبية الغاربة تصبغ الأفق البعيد بلونها المائل إلى الحمرة المشتعلة، وتمتزج بألوانها النارية مع رمال الصحراء الممتدة على جانبى الطريق الذى كانت تشقه سيارتى المتجهة من مدينة الإسماعيلية إلى القاهرة، بينما كان قائدها الإنجليزى الجنسية الذى جلست بجواره فى المقعد الأمامى يستمع إلىّ فى إنصات واهتمام شديدين، وهو يلتفت إلىّ من وقت لآخر وقد استلقيت مسندة رأسى إلى ظهر المقعد فى إعياء بالغ.

كان رفيقى على الطريق - والذى كنت أعرفه وزوجته منذ عدة سنوات - مستشرقا إنجليزيًا يتردد على مصر بين الحين والآخر من أجل تنفيذ بعض برامج التبادل الطلابى بين جامعاتنا والجامعة التى ينتمى إليها، وكان الدكتور «شيفتل» ذلك المستشرق قد أبدى رغبته فى أن أقوم بترتيب لقاء بينه وبين رئيس «جامعة قناة السويس» وهى الجامعة التى أعمل بها؛ لمعرفة مدى إمكانية عقد اتفاقية علمية بين جامعته فى إنجلترا وبين جامعتنا.

وفى الصباح الباكر من اليوم المحدد للقاء عرجت بسيارتى على فندق «**ماريوت**» بالزمالك، حيث التقطت الدكتور «شيفتل» الذى كان يقيم به، وعدت أخترق شوارع المدينة مرة أخرى متجهة إلى الإسماعيلية، وقد أخذنا نقطع الوقت بتبادل شتى أنواع الأحاديث إلى أن وصلنا إلى مقر الجامعة حيث تم اللقاء الذى قمت بترتيبه، وحيث كنت أعتقد أن مهمتى سوف تنتهى بانتهائه، وأننى سأعود بضيفى إلى القاهرة على الفور مرة أخرى بعد أربع أو خمس ساعات على الأكثر، بحيث أكون فى بيتى عندما يبلغ الصداع ذروته، وعندما يصبح الاستلقاء على الفراش والاستغراق فى النوم ملاذى ومهربى الوحيد من عربدة الصداع الذى يضج به رأسى.

وفوجئت بعد انتهاء هذا اللقاء بإصرار الأستاذ الدكتور «أحمد خضير» - رئيس الجامعة آنذاك - على اصطحابنا إلى الغذاء قبل مغادرتنا الإسماعيلية، وهو ما لم أكن قد وضعته فى الحسبان، إذ كان تناول الغذاء خارج المنزل أو قضاء أكثر من أربع أو خمس ساعات

بعيدا عنه ، وما يعنيه من حرماني من الاستلقاء على الفراش أو النوم عندما تشتد حدة الصداع ضربا من الرفاهية التي خلا منها قاموس حياتي .

وتوجهنا ثلاثتنا إزاء إصرار «الدكتورخضير» إلى نادى الفيروز ، حيث تم تهيئة مائدة الطعام على شاطئ النادى المطل على بحيرة التمساح ، وحيث أخذنا في أثناء تناولنا الطعام في ا لتنقل بين شتى الموضوعات والأحاديث ، التي كنت أحاول خلالها انتزاع وعيي الذى كان قد بدأ يهوى ويغيب ؛ نتيجة ذلك المجهود الذى بذلته خلال الساعات القليلة الماضية ، من حيث التركيز في قيادة السيارة ومن حيث استثارة وعيي وذاكرتي في أثناء المناقشات التي دارت باللغة الإنجليزية خلال اللقاء الذى تم بالجامعة ، ذلك المجهود الذى بدأت آثاره تعصف في ضراوة وعنف بكل ما تبقى لدى من طاقة وحيوية نتيجة هجمات الصداع الشرسة ، تلك الهجمات التي لا تلين ولا تنكسر خلال هذا الوقت من النهار أمام أقوى وأحدث أنواع المسكنات .

وبينما كنت أستحضر وأستجمع كل قدراتي ومهاراتي التمثيلية للظهور بمظهر الإنسانة الطبيعية المعافاة ، وأنا أتابع وأشارك في جهد خفي جميع الأحاديث الدائرة ، كانت تداعب خيالي صورة حجرة نومي المريحة الدافئة بفراشها الواسع الوثير ، والتي لم تكن في الواقع وبعيدا عن الخيال تبعد عن مجلسنا في نادى «الفيروز» إلا أمتاراً قليلة .

كنت قد قمت عند التحاقي «بجامعة قناة السويس» بشراء شقة صغيرة بالطابق الخامس لإحدى العمارات بقرية «النورس» الملاصقة لنادى الفيروز ، والتي كانت تطل على منظر بانورامي رائع للنادى والمدينة الإسماعيلية وبحيرة التمساح ومجرى قناة السويس المتجه إلى مدينة بورسعيد .

وكانت هذه الشقة ومازالت بموقعها الفريد أجمل وأحب الأماكن إلى قلبي ، كلما أردت الانفراد بنفسي للكتابة وللهروب من صخب القاهرة وضجيجها خاصة بعد سفر زوجي للعمل بإحدى جامعات الدول العربية ، وانصراف أبنائي كل إلى حياته الخاصة . وأصبحت أجد متعة مضاعفة كلما ضمني الفراش إلى أحضانه سواء كان ذلك في فترات النوم النهارية التي أحتمي بها من آلام رأسي ، أو عندما آوى إليه ليلا ؛ فقد كانت إقامتي بمفردي لعدة أيام أو أسابيع في هذه الشقة وفي تلك القرية شبه الخالية معظم شهور السنة ، تمثل عزلة اختيارية محببة من جانبي ، حيث لا يرتفع فيها رنين جرس التليفون إلا نادرا خاصة بعد أن أصبحت حتى المكالمات التليفونية تصيبني بالإرهاق والإعياء ، وحيث لا يقض مضجعي عدم قدرتي على مجاراة العالم الخارجي والانصهار في أحداثه ومجرياته .

وفى خضم الموضوعات العديدة التى دارت حولها أحاديثنا ونحن على مائدة الطعام، كنت أختلس النظر بين الحين والآخر إلى شرفات ونوافذ الشقة المغلقة، ويمزقنى الحنين إلى فراشى المريح، ولا أذكر أن حرقنى الشوق طوال حياتى إلى شىء قدر اشتياقى ذلك اليوم إلى الارتماء على فراشى القريب، البعيد.

فقد كان لزاما علينا أن نغادر الإسماعيلية فور الانتهاء من وجبة الغذاء، والتى امتدت إلى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر، لنصل إلى القاهرة قبل حلول الظلام حيث كنت أتجنب قيادة السيارة على الطرق السريعة ليلا خاصة فى فصل الشتاء.

ولم يكد الدكتور «خضير» رئيس الجامعة ينصرف مودعا إيانا بعد أن اتخذت مكانى أمام عجلة القيادة وأنا أستجمع شتات قواى المبعثرة الخائرة، حتى وجدت الدكتور «شيفتل» يعرض علىّ استعداده للقيادة بدلا منى، حيث أدرك أننى لست على ما يرام عندما لمحنى أتناول أحد الأدوية فى أثناء جلوسنا فى النادى. وشكرته بحرارة ولهفة وأنا أسارع بترك مقعد القيادة وأدور حول السيارة لأجلس مكانه، وقد غمرنى شعور رائع من الاسترخاء والخلاص؛ فقد أنقذنى من عبء المجهود الذى كان ينتظرنى لمقاومة إعيائى الجسدى والذهنى للسيطرة على السيارة فى أثناء القيادة.

كان الدكتور «شيفتل» رغم علاقتى به التى ترجع إلى عدة أعوام مضت لا يعرف هو أو زوجته شيئا عن ظروفى الصحية، حيث حرصت على الاحتفاظ بمعاناتى فى أضيق نطاق ممكن، وحيث نجحت فى برمجة نظام حياتى بالطريقة التى لا تجعلنى أتعامل مع الناس والعالم الخارجى إلا من خلال ارتدائى ذلك القناع الذى يعكس للآخرين شخصية المرأة الكاملة.

وكان الدكتور «شيفتل» واحدا من بين العديدين رجالا أو نساء، الذين كنت أمثل من وجهة نظرهم أنموذجا فريداً للمرأة اللامعة الناجحة قلبا وقالبا، إذ كانت اهتماماتى وطموحاتى العملية والعلمية تسير فى خط متواز مع اهتمامى البالغ بمظهرى الأنثوى الأنيق الذى كثيرا ما كان يلفت إلىّ الأنظار أينما حللت.

ولذلك فقد بلغت دهشته أقصاها عندما أخذت فى شرح سبب إعيائى الذى لم أتمكن من إخفائه وأنا أجلس شبه متهالكة بالقرب منه، حيث سقطت رغما عنى أقنعتى التى طالما تخفيت وراءها، فالتوت رأسى على ظهر المقعد فى ضعف وتخاذل، وانطبقت عيناى اللتان لم تعودا قادرتين على مواجهة ضوء الغروب الذابل، وعجز لسانى الثقيل كلماتى التى كانت تخرج من بين شفتى بطيئة ممطوطة متعثرة وأنا أقص عليه قصتى مع الصداع.

وكان الدكتور «شيفتل» في أثناء حديثي يقاطعني بين الحين والآخر لاستجلاء بعض النقاط، أو للتزود ببعض التفاصيل الخاصة بمراحل العلاج المختلفة، وقد اكتسى صوته ونظراته التي كان يوجهها إلي بين الحين والآخر بمزيج من التعاطف والرثاء.

وما أن انهيت من حديثي حتى التفت إلي الدكتور «شيفتل» متسائلا في اهتمام، عما إذا كنت قد مررت بتجربة العلاج الروحاني من قبل، والذي أصبح شائعا في إنجلترا لعلاج العديد من الأمراض؟

وأخبرته في إيجاز عن بعض تجاربي السابقة في هذا المجال، وعن عدم إيماني بجدواها، إلا أنه عاد يؤكد لي إنه حقيقة لا مراء فيها، مستشهدا ببعض الحالات التي يعرفها والتي تلقت هذا العلاج بنجاح، كما أخبرني أن العلاج الروحاني على البعد على أيدي ذوي القدرات الخاصة أصبح يمارس في إنجلترا في السنوات الأخيرة على نطاق واسع، وأنه عند عودته إلى إنجلترا بعد عدة أيام سوف يستعلم عن المؤسسات والجمعيات الروحية ليرسل إليّ عناوينها، على أن أتولى أنا مراسلتها.

ولم أتحمس كثيرا في ذلك اليوم لعرض الدكتور «شيفتل» فإلى جانب عدم إيماني بجدوى العلاج الروحي فإنني لم آخذ عرضه مأخذ الجد؛ بسبب ما أعلمه عن مشاغله العديدة التي تنتظره في «إنجلترا» والتي لن تترك له فائض الوقت للاستعلام والبحث عن أماكن وعناوين هذه الجمعيات.

وودعته بعد أن أوصلني إلى باب منزلي حيث أصر على أن يستقل سيارة أجرة ليعود بها إلى فندقه في الزمالك؛ ليجنبني مشقة القيادة من هناك إلى مصر الجديدة مرة أخرى رغم إغرائي له بالتلهي بلعبته المصرية الجديدة.

فبينما كنا على مشارف القاهرة في طريق العودة، وجدت الدكتور «شيفتل» يلتفت إليّ وقد ارتسمت في عينيه نظرة طفولية خجولة، وسألني في استحياء عما إذا كان بمقدوره استخدام بوق السيارة أسوة بالمصريين، حتى يستكمل متعة القيادة في شوارع القاهرة، التي لم يسبق له القيادة فيها من قبل تحسبا للفوضى المرورية التي تتسم بها؟

وما كدت أومئ له برأسي علامة الموافقة، حتى رأيته يعتدل في جلسته في تحفز، بينما انطلقت منه صرخة ابتهاج عارم كصيحات رعاة البقر في الأفلام الأمريكية، بينما امتدت يده لتضغط بشدة على بوق السيارة، وأصبح في كل مرة تمتد فيها يده إلى البوق، يلتفت

إلىّ فى فرح طفولى برره بأنه يشعر بشعور الطفل الذى حصل أخيرا على اللعبة التى طال اشتياقه إليها .

وكأنما أراد د . «شيفتل» أن يكافئنى مقابل المتعة الطفولية التى حصل عليها من خلال استخدامه لبوق السيارة ، فما هى إلا أيام بعد مغادرته القاهرة حتى وصلنى خطابه الذى أرفق به قائمة كبيرة لعناوين أكثر من عشرين جمعية للعلاج الروحى فى إنجلترا .

* * *

وهكذا ، أدخلنى صديقى الإنجليزى إلى عالم الروح من جديد .

كفرت بالطب البشري... وآمنت بطب الأرواح

كان قد مضى على وصول خطاب الدكتور «شيفتل» نحو أربعة أشهر عندما قررت فجأة وبدون أي ترتيب مسبق أن آخذ بنصيحته، وأن «أشوط» بقدمي كل أطباء الأمراض النفسية في مصر بل وفي العالم أجمع بأدويتهم العقيمة السقيمة.

اتخذت ذلك القرار المفاجئ، وأنا أغادر عيادة طبيب الأمراض النفسية الذي كان يشرف على علاجي، حيث أخذت أستعيد في ذاكرتي تفاصيل هجومي الغاضب عليه وعلى طبه العاجز، وعلى كل أنواع وأصناف وأحجام وألوان الأدوية المضادة للقلق والاكتئاب، وذلك عندما طلب مني التوقف عن الأدوية التي كنت أستخدمها بناء على طلبه لعدم جدواها، والعودة إلى تجربة أدوية أخرى سبق لي استخدامها لمدة سنة بأكملها دون جدوى والتي كانت أيضا بناء على طلبه.

فعلى مدار ما يقرب من ثماني سنوات أسلمت نفسي لأيدي أطباء الأمراض النفسية، و«بلبعت» حبوبهم الحمراء والبيضاء والخضراء والصفراء والتي لا لون لها والتي يصدق عليها المثل الشعبي «من كل لون يا بتستة».. قبلت أن أكون فأرا من فئران تجاربهم، تنقلت بين الأدوية المصرية والأمريكية والإنجليزية وكل الماركات العالمية.

تجرعت لشهور أنواع الأدوية التي كانت تتركني كالجثة الهامدة، أصحو من النوم وقد تبلد وعيي وتخدرت أطرافي وكأنما أنا «سكرانة طينة» لا أكاد أعي أو أرى أو أدرك ما حولي ليجرجرني النوم مرة أخرى إلى أغواره السحيقة لساعات وساعات.

وأعقبتها شهور أخرى تعاطيت فيها الأدوية التي كانت تجعل كياني كله وكأنه كتلة من الأعصاب المتقدة المتحفزة، وكأنني أمشي على أطراف أطراف أصابع قدمي. وأكاد لا أختلف كثيرا عن منظر القطة عندما تواجهها المخاطر وقد تقوس ظهرها، وتسمرت عيناها، وتصلبت آذانها في تحفز وترقب. وتزداد أعصابي توترا في أدنى المواقف مدعاة

للتوتر، ويخاصمني النوم لأيام وأيام، وأعود لأرتمي على أعتاب الأطباء مرة أخرى؛ ليلقوا بي في أحضان الحبوب المنومة والمخدرة.

* * *

ولم يفارقني الصداع مطلقا مع كل هذه التجارب؛ فقد كان «**كاللزقة الأمريكاني**» وأفقدتني «تلامته» إيماني بالطب النفسي والمطببين.

وكفرت بطب البشر بعد أن تأكدت أنه سراب.

ورحت أنشد المساعدة من أرواح الموتى «أولاد الحلال» بغض النظر عما إذا كانوا بلدياتي، أو من بلاد الفرنجة، أو حتى من بلاد «الواق واق».

القس الذي أخذ بيدي إلى عالم الروح

لست أدري لماذا أرسلت أولى رسائلى إلى تلك الجمعية بالذات؟ هل لأنها كانت تتبع واحدة من أشهر الكنائس بمدينة لندن، وليست جهة مجهولة ذات أهداف غير معلنة وغير معروفة؟

هل كان ذلك امتدادا لولعي المبكر في سنوات عمرى الأولى بأفراح الكنائس؟ أم كان انتقاما من «علقة» أبي التي نلت منها الكثير بسبب تسللي المتكرر إلى الكنيسة المجاورة لبيتنا القديم؟

هل لجأت إليها بسبب ارتباط الكنائس في أعماق أعماقي بالسيدة مريم العذراء التي فضلها الله على نساء العالمين، وابنها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وما تم على يديه من معجزات البرء والشفاء.

في الحقيقة لست أدري. ربما كان ذلك لواحد من هذه الأسباب. ربما كان ذلك لجميع هذه الأسباب مجتمعة. وعلى أي حال فقد فتحت لي هذه الرسالة آفاقا جديدة. آفاق عالم الأرواح، ولكن بصورة أخرى جديدة.

* * *

كنت قد أرسلت خطابا إلى القس «دافيد هاول» بصفته رئيسا لإحدى الجمعيات الروحية، التي تضمنتها قائمة العناوين التي أرسلها لي الدكتور «شيفتل»، وشرحت للقس بإيجاز معاناتي. . . وسألته عما تستطيع جمعيته أن تقدمه لي.

وجاءني رده الرقيق بعد أسابيع قليلة يعتذر فيه عن عدم استطاعته مساعدتي، إذ إن الجمعية التي يرأسها تقوم بتقوية وإذكاء الجوانب الروحية للأفراد، ولا دخل لها بالعلاج الروحي، كما أبدى أسفه، وتعاطفه إزاء ما أعانيه من آلام، ثم كتب لي عنوان إحدى الجمعيات التي يعتقد أنها قادرة على مساعدتي، واختتم رسالته بكل الأمنيات الطيبة لي بالشفاء، واستعداده لتقديم أي خدمة في إمكانه تقديمها.

وفى نفس اليوم مباشرة قمت بإرسال بطاقة شكر إلى ذلك القس، كما أرسلت فى نفس اليوم أيضا خطابا آخر موجها إلى «جمعية بريطانيا العظمى للعلاج الروحى» التى أرسل لى عنوانها.

* * *

ولم تكن البطاقة التى أرسلتها إلى القس هى نهاية علاقتى به. قادتنى قدماى إليه وإلى كنيسته بعد ذلك بسنتين. لم أذهب إليه من أجل العلاج الروحى، بل لأجرب ما لديه من بركات.

وللحديث بقية.

أنا والأرواح القادمة من إنجلترا

كانت عقارب الساعة تقترب من العاشرة مساء عندما اتخذت مجلسي أمام المائدة الصغيرة التي تحتل جانبا من حجرة نومي ذات الضوء الخافت، بعد أن أحكمت إغلاق بابها وبعد أن شددت على أبنائي بعدم اقتحام خلوتي لأي سبب من الأسباب مهما كان، وكذلك بعد أن فصلت فيشة التليفون ضمانا لتوفير أقصى قدر من العزلة والهدوء.

وجلست في مقعدي في خشوع ممسكة بكوب مليء بالماء النظيف موضوع على المائدة أمامي، بينما انهالت شفتاي بتمتمة خافتة تردد كل ما أحفظه من آيات قرآنية وأدعية، بينما تسارعت وتعالت دقات قلبي ولفني الترقب والرهبة.

كنت في انتظار أن تحل في غرفتي الأرواح القادمة من إنجلترا.

* * *

كنت قد تلقيت في الصباح رسالة من «جمعية بريطانيا العظمى للعلاج الروحاني» أخبرني فيها مرسلها استعداد أعضاء الجمعية وسعادتهم بعلاجي «على البعد»، وأن هذه الطريقة قد سبق تجربتها كثيرا، وأن بعد المسافات والقارات ليس حائلا دون انتقال الأرواح من مكان إلى آخر للقيام بمهمة علاج المرضى، كما أشار إلى أن استخدام هذه الطريقة قد نجح في علاج بعض الحالات في الهند وأستراليا، وأنهى خطابه بقوله عن احتمالات عدم نجاح هذه الطريقة معي لسبب أو لآخر في الجلسات الأولى، وأن عليّ التحلي بالصبر والمداومة على اتباع جميع التعليمات التي ضمنها خطابه ولمدة عشرة أيام، ثم موافاته بما لدي من أخبار وتطورات داعيا لي بالشفاء وبكل الأمنيات الطيبة.

كانت أولى هذه التعليمات تنص على ضرورة توافر الوسط والجو الروحاني قبل بدء الجلسة وفي أثنائها، وأن أكون مهيأة بصورة كاملة لحضور الأرواح عن طريق الاستغراق والتأمل إلى هذه الحالة الروحية وفقا لعقيدتي الدينية التي أعتنقها.

ولذلك فقد راعيت تنفيذ هذه التعليمات بدقة بالغة، حيث اغتسلت وتوضأت وصليت في استغراق وخشوع، وحيث نفضت يدي تماما من كل مشاغل وماديات الحياة

اليومية، وخلوت إلى حجرتى بضوئها الخافت. . . ثم وضعت كوب الماء الذى أوصانى به أمامى على المائدة الصغيرة، وأخذت ذلك المجلس بدءا من الساعة التاسعة رغم أن التعليمات التى جاءت فى الخطاب أشارت إلى أن موعد الجلسة هو العاشرة.

وفى الواقع فإن تهيئى لهذه الجلسة كان قد بدأ قبل ذلك بعدة ساعات وفور أن انتهيت من قراءة خطاب الجمعية فى الصباح، حيث انتابتنى حالة من الترقب واللهفة الممزوجين بالأمل فى الشفاء من جانب والخوف والرهبة من ذلك المجهول الذى أترقبه من جانب آخر، وحيث أخذت أعد في ذهني لهذه الجلسة المرتقبة الموعودة وأتخيل كافة أنماط اللامعقول التى قد تترتب على لقائى مع الأرواح القادمة من العالم اللامرئى.

وبينما كنت فى جلستى الخاشعة وأنا أتمتم بكل ما أعرفه من أدعية وآيات قرآنية، وقبل أن تصل عقارب الساعة إلى العاشرة بعدة ثوان، وجدتنى أقفز من مكانى وكأنما قد لدغنى عقرب، واندفعت فى لهفة لأختطف المصحف الذى تعودت أن أضعه بالقرب من فراشى، وأخذت أقلب فيه وبسرعة بحثا عن الصفحة التى تقع بها آية الكرسى، وعدت إلى مكانى وقد وضعت أمامى المصحف مفتوحا على هذه الآية بجوار كوب الماء وأنا أتمالك أنفاسى اللاهثة، ولفنى على الفور هدوء غامر وأنا أشعر أننى فى حماية الله وحماية القرآن وآياته البينات من تلك المخلوقات القادمة من عالم الغيب.

وما أن بلغت الساعة العاشرة، حتى وجدتنى وقد تحولت إلى كتلة من الأعصاب المتحفزة المتوترة، وفارقتنى الحالة الروحانية الصوفية التى كنت أحاول الاستغراق فيها. وتحولت أذناى إلى جهازى رادار وأنا أتخيل أن هناك أصواتا خافتة هامسة تدور فى أرجاء الغرفة الغارقة فى السكون، بينما أخذت عيناى تنتقل فى رهبة وسرعة بين فراغ الغرفة وبين كوب الماء الذى وضعته أمامى، وتوقعت بين لحظة وأخرى أن ينشق أحد حوائط الغرفة عن القادم المجهول، أو أن يمثل أمامى فجأة من حيث لا أدرى كالأثير، أو أن ينبعث من داخل الماء ليتجسد لعينى كائنا مرئيا مجسدا.

وطالت اللحظات واستطالت الدقائق، ومضى ما يقرب من الساعة ولم أتشرف بالزيارة المرتقبة.

ونهضت من مكانى وقد أدركنى اليأس من عقم المحاولة، وغادرت حجرتى إلى حجرة التلفزيون حيث التفت إلىّ ابنى وابنتى فى لهفة، وحيث بادرتهم قبل أن ينطق أى منهم بكلمة واحدة وأنا أقول فى لهجة تمثيلية مازحة أخفى بها خيبة أملى:

ـ الأرواح بتسلم عليكم مزيد السلام، وكان نفسها تتعرف عليكم، إنما ما قدرتش تقعد أكثر من كده عشان عندها مشوار مهم.

وابتسم الاثنان وقد ارتسمت على ملامحهما آيات الرثاء عندما أدركا أنني أمزح، فقد كان يشقيهما ما أمر به من معاناة بقدر ماكان يشقيهما جريي وراء الخرافات والغيبيات وأنا أجرجر ورائي درجة الدكتوراه.

وضحكت في وجه ابني الذي كان في سنته الأخيرة بكلية الهندسة وأنا أقول ممازحة:

ـ تلاقي الأرواح يا أشرف مارضيتش تدخل بيتنا من تحت راسك، ما أنا عارفة إن الحاجات دي مش على مزاجك، ما إنته مالكش إلا في الآلات والتكنولوجيا.

والتفت إلى ابنتي التي كانت تدرس الأدب الإنجليزي بالجامعة وأنا أقول لها في محاولة لخلق جو من المرح:

ـ معلهش يا شيرين، كان نفسي أعمل صحبية مع الأرواح الإنجليز بالذات عشان يغششوكي في الامتحان، يا للاخيرها في غيرها.

وجاراني كلاهما في المزاح والمعابثة، وتطوعت شيرين بسرد بعض المبررات العلمية التي تتعارض مع الغيبيات التي أدت إلى عدم «تشريف» الأرواح لمنزلنا المتواضع.

وانتهى الحديث بقولي في لامبالاة ممتزجة بلهجة التبرير الساخر بأن هناك لبسا في الموضوع، حيث لم يشر الخطاب إلى فرق التوقيت بين مصر وإنجلترا، وأن الأرواح المسكينة ملتزمة بتوقيت جرينتش، وأنها ستأتي حتما الساعة الثانية عشرة بتوقيت مصر.

وغادرتهم إلى حجرتي، واتخذت مجلسي مرة أخرى أمام كوب الماء الموضوع أمامي على المائدة قبل الساعة الثانية عشرة بعدة دقائق. وجلست في انتظار القادمين من عالم الأرواح. وتكررت التجربة الفاشلة، و«اتعززت الأرواح». وجرجرت أذيال فشلي وأنا آوي إلى فراشي، وأعدت نفس الطقوس بحذافيرها في اليوم التالي ولمدة عشرة أيام، ولم «تعبرني» الأرواح، ولم تتنازل وتتكرم بزيارتي.

وأرسلت خطابا إلى الجمعية أحيطهم علما بما حدث من عصيان الأرواح لأوامرهم وتمردها ورفضها التعامل معي، وراودني الأمل في أن يجدوا لي روحا أخرى «طيبة وبنت حلال» قد تأخذها الشهامة وتأتي إلى مصر خصيصا من أجلي، وخيب ردهم ظني

ولم يشيروا من قريب أو بعيد إلى توافر هذه النوعية «الجدعة» من الأرواح فى بلادهم. بل أرادوا أن «يشتروا دماغهم» عندما أشاروا إلى أن العلاج الروحى على البعد يفشل فى بعض الحالات، وعندما أرسلوا لى عنوان إحدى الجمعيات الروحية بالقاهرة، والتى يعتقدون أن بعض المعالجين بها قادرون على مساعدتى.

ولم «أكذب خبرا»، توجهت على الفور إلى العنوان المذكور، وتبين لى أن هذا العنوان لا يبعد عن بيتى فى مصر الجديدة إلا عدة دقائق سيرا على الأقدام؛ فى إحدى العمارات الكائنة بشارع الميرغنى قريبا من ميدان روكسى، وغمرتنى موجة من الانتصار وأنا أخطو داخل العمارة الفخمة؛ فلن أحتاج بعد الآن للأرواح الأجانب طالما عرفت الطريق إلي أرواحنا المحلية وضغطت جرس الشقة المخصصة لمقر الجمعية، ولم يفتح لى الباب أحد وعدت أضغط على الجرس مرة أخرى فى استماتة وإصرار، وقطع محاولاتى صوت أقدام تهبط السلم، وسألنى صاحب الجلباب الأبيض الذى تبينت أنه البواب عما أريد، وعلمت منه أن الجمعية قد انتقلت مؤخرا إلى مقر آخر وذلك بعد وفاة الأستاذ الدكتور «عبد الجليل راضى»، الذى كان أستاذا بكلية العلوم بجامعة عين شمس ومؤسس الجمعية وصاحب الشقة؛ وذلك بناء على طلب ورثته، وأنه لا يعرف عنوان الجمعية الجديد، واستدرت للانصراف وقد ملأتنى خيبة الأمل، ولكن سرعان ما عدت إليه مرة أخرى وكلى أمل فى إقناعه بإعطائى رقم تليفون أى شخص ممن كانت لهم صلة بهذه الجمعية، حيث خيب أملى للمرة الثانية معتذرا بأنه ليس لديه أية أرقام تليفونية لهم وأن أصحاب الشقة يترددون عليها من وقت إلى آخر وبلا توقيت معلوم.

ولم أستسلم، ولم أيأس؛ أخرجت من حقيبتى ورقة وقلما وخططت رسالة موجزة دونت فيها رقم تليفونى، وطالبت فيها متلقيها بالاتصال بى فور الاطلاع عليها للأهمية، ودسست الورقة إلى داخل الشقة من أسفل الباب المغلق، وانصرفت وقد غمرنى الرضا بأننى لم أقصر في حق نفسى وأننى قد بذلت كل ما فى وسعى، وأن خطوتى التالية ستكون زيارة لكلية العلوم لجمع مزيد من المعلومات عن الدكتور عبد الجليل راضى وجمعيته ومريديه وأتباعه فى مجال العلاج الروحانى، فيكفينى أننى قد وصلت إلى بداية الخيط الذى سيقودنى إلى ذلك العالم الذى أتشوق إلى الولوج من أبوابه بحثا عن الشفاء.

وكأنما كان القدر بجانبى، ما هى إلا لحظات بعد عودتى للمنزل فى ذلك اليوم حتى ارتفع رنين التليفون، حيث كان أحد ورثة الدكتور «عبد الجليل راضى» على الطرف الآخر، والذى أخبرنى بأن الصدفة قد قادته إلى الشقة بعد انصرافى بدقائق، حيث وجد

الرسالة التى تحمل رقم تليفونى، ولم يتردد للحظة واحدة فى إعطائى عنوان المقر الجديد للجمعية، بعد أن شرحت له أمر ذلك الخطاب الذى تلقيته من جمعية بريطانيا العظمى للعلاج الروحانى.

* * *

وهكذا دخلت دنيا الأرواح مرة أخرى. واستغنيت عن الخواجات وأرواحهم عندما وجدت أن أرواح المصريين «أولى» بى من هؤلاء الأجانب، ولكن ذلك كان إلى حين؛ فقد صالحتنى الأرواح الإنجليزية مرة أخرى، وعدت للتعامل معها بعد ذلك، ولكن على أرض إنجلترا وفى لندن!

كيف... ؟

متى... ؟

تلك قصة أخرى.

وجها لوجه مع الأرواح المصرية

كان ذلك في أحد أيام الشتاء الباردة من عام ١٩٩٠ ، عندما أخذت أتخير مواقع قدمى في ذلك ا لشارع الضيق المظلم المليء بالحفر التي ملأتها مياه الأمطار الذى يتفرع من شارع رمسيس خلف مباني كلية الطب بالعباسية ، وذلك بعد أن ركنت سيارتي على رأس الشارع الغارق في العتمة ، واستدللت بسهولة على رقم المنزل الذي كنت أبحث عنه ، والذي أصبح المقر الجديد لجمعية الأهرام الروحية .

كان المنزل عبارة عن ڤيلا قديمة صغيرة ، يؤدى بابها الخارجي إلى ردهة مربعة مظلمة تنتهي بسلم شبه دائرى ضيق اختفت معالمه وراء الظلمة المطبقة ، والذي أخذت في ارتقائه بحذر وحرص وأنا أتحسس الحائط بإحدى يدى ، بينما كانت الأخرى تتشبس بسور السلم المتخفض ، وخالجني الشعور بالرهبة وأنا أشعر بأن رحلة الصعود لا تريد أن تنتهي ، وغمرتني قشعريرة من وجودى في ذلك المكان المعتم الذى تخيلت أنه يعج بالأرواح والأشباح ، وتوقعت بين لحظة وأخرى أن تمتد إلى وجهي أيدى وأذرع الأرواح الهائمة المنطلقة في المكان ، ووجدتني أطأطئ رأسي إلى أبعد مدى استطعته ، وكأن ذلك سيحمى وجهي ويحميني من هجوم الأرواح المرتقب أو أنه سيمنعني من مواجهة الكائنات المجهولة ، وتنفست أخيرا الصعداء ورفعت رأسي في لهفة إلى أعلى ، حيث بدأ بصيص من النور في التسلل من الشقة ذات الباب المفتوح والتي لم يعد يفصلني عنها سوى عدة درجات قليلة ، واجتزت الدرجات الباقية بسرعة في قفزتين أو ثلاث ، واندفعت داخل الشقة كالصاروخ وقد تهدجت أنفاسي من الانفعال والرعب .

وما أن وجدتني في مواجهة بعض الرجال والنساء والأطفال الجالسين في الصالة التي يؤدى إليها باب الشقة والتي بدت وكأنها مكان للانتظار في إحدى عيادات الأطباء ، حتى تمالكت نفسي بسرعة وأكملت خطواتي في هدوء وثقة وبطريقة مسرحية ، وقد رسمت ابتسامة على شفتي وأنا أنقل بصرى بين الجالسين وكأنما أنا صاحبة المكان .

كانت هذه الفيلا القديمة مكانا مهجورا لعدة سنوات مضت ، وقام صاحبها الذى كان عضوا بالجمعية بوضعها تحت تصرف الأعضاء للاستمرار فى أنشطتهم .

وقد كان من حظى الحسن فى أول زيارة لى لهذه الجمعية ، أن كان ذلك اليوم هو موعد الجلسة الروحية الأسبوعية لأعضائها ، وهم من المثقفين وأصحاب المراكز العليا فى مصر ، حيث كان يرأسها رجل وقور كان لواء سابقا بالشرطة ، وحيث كانت تضم نخبة متميزة من أساتذة الجامعة والصحفيين وبعض رجال الأعمال ممن كان بعضهم يتميز بالشفافية والروحانية ، التى كانت تؤهلهم للقيام بعلاج المترددين على الجمعية من المرضى وكذلك ممن يعانون من المس الأرضى .

وكان من حظى الحسن أيضا ، أن قابلت هناك واحدا من بين أعضائها والذى تبينت أنه يعمل فى إحدى كليات الجامعة التى أنتمى إليها ، حيث طلب منى فى استحياء عدم إذاعة أمر عضويته لهذه الجمعية داخل الجامعة ؛ لارتباط المعتقدات الغيبية بما فيها العلوم الروحية بالتخلف الفكرى والثقافى فى مجتمعنا المصرى ووصم أتباعها بالشطط وعدم الاتزان العقلى .

وكان أول ما طلبت منه فى ذلك اليوم إعطائى بعض المعلومات عن أهداف هذه الجمعية ، والكيفية التى يتم بها العلاج الروحى للمرضى ، حيث قام زميلى بتقديمى لرئيس الجمعية للرد على تساؤلاتى ، والذى دعانى بدوره إلى حضور جلستهم الروحية التى كانت على وشك أن تبدأ .

وما أن تلقيت هذه الدعوة حتى تصاعدت داخلى ابتسامة عريضة حبستها حتى لا ترتسم على شفتى ، إذ تذكرت جلسات تحضير الأرواح فى منزل الشيخ رافع فى حلوان إبان طفولتى ، وكيف أن القدر قد يسر لى الفرصة لاكتشاف أسرار هذه الجلسات التى كنت أتحرق شوقا إلى معرفة ما يدور فيها .

وعربدت داخلى أحاسيس الشماتة فى عم «محمد» ، الذى كان يقوم على خدمة ضيوف الشيخ رافع فى أثناء الجلسات منذ ما يقرب من الأربعين عاما ، والذى طالما وقف حائلا بينى وبين التعرف على هذا العالم المجهول ، عالم الأرواح .

* * *

كانت الحجرة المعدة للجلسات الروحية حجرة واسعة شبه خالية من الأثاث ، عدا

مائدة بيضاوية ضخمة من الخشب ذات لون بني داكن احتلت وسط الغرفة، والتي اصطف حولها عدد كبير من المقاعد الجلدية.

وما أن اتخذ كل منا مجلسه حول المائدة حيث قارب عددنا خمسة عشر فردا معظمهم من الرجال، حتى بدأ رئيس الجمعية بتوضيح أهداف هذه الجلسة لمن كان يحضرها لأول مرة، حيث قال إن هذه الجلسات بمثابة محاولة للوصول بالحاضرين إلى مرحلة من الاستغراق والتأمل الصوفي، وكذلك لاكتشاف الأشخاص ذوي الشفافية الروحية التي تؤهلهم لأن يكونوا وسطاء روحانيين، حيث لم يعد بين أعضاء الجمعية من يقوم بهذا الدور بعد وفاة آخر وسيط روحي فيها منذ سنوات، وأن أولى خطوات الكشف عن هذه الموهبة الإلهية يتم عن طريق التواصل الروحي للأشخاص ذوي الشفافية مع الأشخاص الآخرين، ومعرفة ما يدور بأذهانهم، وتفسير التداعيات الذهنية لهم في ضوء كونها رموزا لرسائل مبهمة تأتي من عالم الأرواح.

وطالب رئيس الجلسة الحاضرين بالعمل على الوصول إلى مرحلة عالية من الاسترخاء والتأمل والشعور بالتفرد، والانفصال عن الواقع المحيط بهم، والسمو على الأفكار المادية الحسية، وخلق حالة من الكينونة الروحية الصوفية.

ثم بدأ رئيس الجلسة في الإعداد لها . . . حيث تم إغلاق باب الحجرة وإطفاء النور اكتفاء بالبصيص الضئيل من الضوء المتسلل من خصاص النافذة، والذي كان يلقي ظلالا خافتة على جميع أنحاء الغرفة وعلى الجالسين بصورة غامضة مبهمة.

وقام كل منا بناء على توجيهات رئيس الجلسة بمد كلتا اليدين ووضعهما أمامه على المائدة، ثم أخذ في تلاوة الفاتحة وكذلك آية الكرسي لتحصين الجالسين من شرور الدخلاء من الجن والأرواح الشريرة، حيث أخذنا جميعا وفي صوت واحد نردد وراءه هذه الآيات.

وما أن انتهينا حتى ساد الحجرة صمت مطبق، بينما انحنت رءوس الجالسين جميعا إلى الأمام في خشوع واستغراق.

وبينما غرقت الحجرة في هذا الصمت الرهيب، الذي لم يكن يعكره سوى أنفاس الحاضرين، كنت أرفع عيني خلسة في ترقب وحذر، لأدور بهما في أرجاء الحجرة المعتمة بحثا عن أي مخلوقات غامضة أو ظاهرة خارقة تكون قد حلت بالمكان، ثم أعود لاختلس النظرات إلى أشباح المتحلقين حول المائدة بملامحهم الغامضة المبهمة، التي غلفتها الظلمة

والصمت المطبق بمسحة مخيفة، ثم أتمالك نفسى مرة أخرى فى محاولة لإرغامها على الاستغراق والاسترخاء والتأمل، وقد أغمضت عينى فى محاولة مستميتة للانفصال عن الواقع المادى والبلوغ بعقلى وذهنى وجسدى إلى مرحلة من النقاء والسمو الروحى والوجدانى.

وفجأة وربما بعد عشر دقائق منذ بدء الجلسة تصاعد من بين الجالسين صوت تثاؤب متكرر دوى فى أرجاء الحجرة الساكنة، والتفت نحو صاحب هذا الصوت فإذا بها سيدة فى الثلاثينيات والتى قيل عنها قبل بدء الجلسة إنها تتمتع بقدر كبير من الشفافية وإنها فى سبيلها لتكون وسيطة روحية مستقبلا.

وارتفع صوت السيدة مرة أخرى وهى تتساءل فى صوت ناعس ممطوط بينما ارتمى رأسها على صدرها فى صورة أقرب إلى الغيبوبة وقد أسبلت عينيها، عما إذا كان من بين الموجودين فى الحجرة شخص قد توفى أخوه منذ أسبوع؟ وأردفت قائلة إنها ترى بالحجرة روح شخص اسمه «محمد» توفى منذ أسبوع وأنه يريد توصيل رسالة إلى أخيه الجالس بين الحاضرين.

وانطلق صوت مأخوذ من أحد المقاعد يعلن أنه هذا الأخ، وأنه مستعد لتلقى الرسالة، وعادت السيدة تقول بصوتها الناعس المطوط إن روح أخيه المتوفى تطلب من أسرته عدم الاستمرار فى البكاء من أجله، وإنها سعيدة فى حياتها الجديدة فى عالم الأرواح.

ورغم أن السيدة التى كانت تنقل رسالة الروح سيدة متزنة وقورة رغم صغر سنها، إلا أنها لم تقنعنى تماما بصدق وعفوية رسالتها، حيث افترضت علمها السابق بوفاة هذا الشقيق وأن خيالاتها الخاصة جسدت لها هذه الروح التى تدعى وجودها بيننا.

وانطلق صوت السيدة مرة أخرى ليقطع أفكارى، ويهوى بشكوكى، عندما استطردت قائلة: بأن الروح تعلم أن أفراد الأسرة قد قلبوا البيت رأسا على عقب بحثا عن ورقة أو وثيقة معينة تركها المتوفى، وأن هذه الورقة موجودة فى جيب بدلته الكحلية ذات الخطوط الغامقة المعلقة داخل دولابه.

وتبين لى فى زيارتى للجمعية فى الأسبوع التالى وفى اليوم المحدد للجلسة الروحية التى تعقد كل أسبوع، أن ما ادعته السيدة على لسان الروح كان صحيحا حيث أخبرنى شقيق المتوفى شخصيا أنه قد عثر فعلا على هذه الورقة فى جيب البدلة بعد عودته إلى

المنزل بعد انتهاء الجلسة في الأسبوع الماضي ، وإن هذا الشقيق ليس عضوا بالجمعية ، ولم يسبق له التردد عليها ، وأن الصدفة المحضة ـ كما حدث معي ـ هي التي ساقته إلى حضور هذه الجلسة .

وفي تلك الليلة وقبل انعقاد الجلسة بوقت كاف طلبت من أحد المعالجين أن يقوم بعلاجي ، حيث صحبني إلى إحدى الحجرات الداخلية ، وهي حجرة فسيحة ساطعة الضوء مليئة بالمقاعد الجلدية وفي ركن منها كان يجلس أحد المعالجين في استغراق ، وهو يتمتم في همس كلمات لم تصل إلى سمعي ، وأمامه امرأة في منتصف العمر متشحة بالسواد تتلقى منه العلاج .

وأشار معالجي وهو أيضا أستاذ جامعي إلى ركن في الغرفة ، حيث جلست في مواجهته ، وحيث أخبرني في صوت هامس أنه شخصيا لا يتمتع بأي قوى خارقة ، وأنه ليس سوى وسيط تقوم الأرواح من خلال جسده بأداء دورها في العلاج ، وطلب مني أن أحاول في أثناء الجلسة أن أسمو بأفكاري على المحسوسات والماديات ، وأن أتجرد من المشاعر الدنيوية ، ثم أمسك بيدي وكأنه يصافحني . وراح يتلو بعض الآيات القرآنية والأدعية . وبعد ما يقرب من ربع الساعة ترك معالجي يدي ، وسألني عما إذا كنت قد شعرت بأي نوع من الذبذبات أو الحرارة في أثناء إمساكه بيدي ، وعندما أجبته بالنفي ؛ عاد يسألني ما إذا كان الصداع قد خفت حدته ، وعندما أجبته بالنفي للمرة الثانية ؛ قال إن المريض في بعض الأحيان قد لا يستجيب للعلاج إلا بعد عدة جلسات ، كما أن هناك أيضا بعض المعالجين الذين ينجحون في علاج بعض الحالات على حين يفشلون في علاج بعض الحالات الأخرى .

* * *

وتكررت محاولات العلاج مرة بعد أخرى . «وعصلجت» معي جميع الأرواح ، وأبوا أن يمدوا إلى أيديهم . ولم ينجح معي أحد من المعالجين سواء ممن كانوا يمسكون بيدي أو يكتفون بمواجهتي بهم في أثناء الجلسة . ومع هذا لم أيأس ، ولم أدر ظهري لهذه الأرواح «البراوية» التي رفضت مساعدتي . قررت أن أغزو عالمها بالقوة ، قررت أن أكون وسيطة روحية ؛ ولذلك أصبحت عضوا رسميا في الجمعية .

الإنسان روح لا جسد!

رغم فشلي في الحصول على العلاج الروحاني، ورغم عدم معايشتي لأي ظواهر غيبية خارقة خلال زياراتي المتكررة للجمعية، كتلك التي لمستها بنفسي خلال بعض تجاربي السابقة، مثل تحول المياه الصافية داخل «الحلة» إلى ماء عكر طيني وما احتوته «الحلة» من صلبان معدنية وقطع من الدوبار وكذلك الرسالة المرسلة إلى أعوان الشيطان والتي أشرت إليهما من قبل، رغم أنني لم أصادف مثل هذه الظواهر التي تصعب على الفهم إلا أن هذه الزيارات أثارت بعض التساؤلات داخلي. فإذا كان العلاج الروحاني لا يعدو كونه وهما في أذهان المعالجين، فكيف نفسر إقبال بعض الأفراد على مقر الجمعية لتلقي العلاج وزياراتهم المتكررة التي قد تتغير أسبابها من مرة إلى أخرى؟ وكيف نفسر شفاء بعض هؤلاء الأفراد رغم فشل الطب في علاجهم؟ وكيف يقبل هؤلاء المعالجين وجلهم من ذوي المراكز والمناصب الرفيعة أن يهدروا جهودهم وأوقاتهم فيما لا طائل من ورائه؟

وبدأت تساؤلات أخرى عديدة تدور في ذهني حول هذا العالم الغامض، وانطلقت أبحث وأنقب عن أسرار الروح ذلك المجهول اللامرئي، واكتشفت أنه في الواقع ليس مجهولا وليس لامرئيا، وأن جهلنا وقصور خبراتنا وضحالة أساليبنا العلمية حالت دون فهم هذا العالم وغزو مجالاته، كما كان الحال بالنسبة للفيروسات والميكروبات، تلك الكائنات الدقيقة التي لم ندرك وجودها إلا مع التقدم العلمي.

كان بعض زملائي من أعضاء الجمعية قد رشحوا لي إحدى الكتب المتخصصة في عالم الأرواح، وهو كتاب «الإنسان روح لا جسد» لمؤلفه الدكتور المرحوم «رءوف عبيد» الذي كان من كبار أساتذة القانون بكلية الحقوق بجامعة عين شمس، كما كان من أوائل الرواد في مصر الذين وهبوا حياتهم لاختراق أسرار عالم الروح.

وفوجئت عند طلبي للكتاب من إحدى المكتبات أنه مكون من ثلاثة أجزاء ضخمة، يقع كل جزء منه في نحو ١٥٠٠ صفحة.

وعدت بحملى الثقيل الوزن حسيا وعلميا إلى منزلى عند الغروب وقد تخدر ساعدى من ثقل وزنه ، وانزويت لفورى فى حجرتى ، وبدأت فى التهام سطور الجزء الأول منه ، ولم أضعه جانبا أو أتحرك من مكانى إلا إلى دورة المياه أو لتناول بعض المسكنات ؛ حتى انتهيت من قراءة آخر سطر فيه عند ظهر اليوم التالى ، واستكملت قراءة الجزأين الثانى والثالث فيما تلى ذلك من أيام .

سرقنى هذا المؤلف عندما سرق النوم من عينى ، وحملتنى سطوره وصفحاته فى رحلة غريبة عجيبة ، وأخذنى إلى دنيا خيالية سحرية ، وحلقت مع الأرواح فى عالمها اللامرئى واللانهائى وأنا أعيش فى كل تجربة علمية تمت فى أى مكان من العالم لاستحضار الأرواح بل تجسيدها .

ولن تتسع صفحات هذا الكتاب للاستفاضة حول هذا المؤلف العملاق الذى عكس كل سطر فيه قدرة وإعجاز الخالق ، وإن كان ذلك لا يمنع من محاولة إلقاء بعض الضوء عليه .

قام المؤلف بتخصيص أكثر من مائة صفحة تحمل عشرات القصائد الشعرية الرائعة بالعربية الفصحى ، ثم تلى ذلك بأن أشار إلى أن هذه الأبيات تم عرضها على النقاد والأدباء والشعراء والمتخصصين من أساتذة الأدب العربى فى الجامعات المصرية ، حيث أجمعوا على أن هذه الطريقة فى قرض الشعر من حيث الأسلوب والقوافى وفنون اللغة هى الطريقة التى يتميز بها شعر «**أحمد شوقى**» دون سائر الشعراء القدامى أو المحدثين ، وأنه من قبيل المستحيلات أن تكون هذه الأبيات من كتابة أى شاعر آخر ، كذلك فقد أكدوا أن هذه الأبيات لم يتضمنها تراث «**أحمد شوقى**» الشعرى ، ولم يسبق لأحد الاطلاع عليها أو العلم بوجودها من قبل .

وقد قام المؤلف فى الجزء الثانى والثالث بعرض ما يقرب من عشرين تقريرا ، بعضها تقارير فردية وأخرى جماعية لتلك المجموعة من الأدباء والنقاد والشعراء وأساتذة الجامعة المتخصصين .

ويضيف الدكتور «**رءوف عبيد**» فى كتابه مؤكدا أن هذه الأبيات بالفعل من شعر أحمد شوقى ، التى نظمتها روحه بعد وفاته بسنوات طويلة التى كتبتها وسطرتها على الورق وسيطة روحية ، بدأت حياتها كمعالجة روحية سنة ١٩٤٥ .

وكانت هذه السيدة زوجة لأحد كبار الأطباء فى مصر وهو الدكتور «**سلامة سعد**»

ولم تتح لها ظروفها سوى الحصول على الشهادة الابتدائية (نظام إنجليزى)، ولم تكن بالأديبة أو الشاعرة، ولم تنظم فى حياتها بيتا شعريا واحدا (فى غير حالتها الوساطية).

وبعد عملها كمعالجة روحية ببضع سنوات بدأت تظهر عليها فى الجلسات العائلية المغلقة المنتظمة التى كانت تعقدها فى منزلها عن طريق الجلاء السمعى Clairaudience . . . موهبة كتابة الأزجال، التى كان يمليها عليها روح أحد أقاربها المتوفين، إلى أن تحداها أحد كبار الباحثين أن تتلقى شيئا من روح أمير الشعراء حتى يقتنع بالمصدر الروحى لما تكتبه.

وفى أحد أيام أكتوبر سنة ١٩٤٩ طلبت هذه السيدة من أحد أرواحها المرشدة أن تجعلها تتصل بروح أحمد شوقى، وما هى إلا أيام حتى أمكن لروحه أن تتصل بها سمعيا، وأخذت قصائده تتدفق عليها فى غزارة منذ ذلك التاريخ.

وقد أشار الدكتور «**رءوف عبيد**» إلى تاريخ كل قصيدة تم إملاؤها على الوسيطة حتى تاريخ نشره للجزء الثالث من مؤلفه والذى صدر سنة ١٩٧٥، وكذلك ضمن الجزء الثانى من مؤلفه جزءا كبيرا من إحدى المسرحيات الشعرية لروح «**أحمد شوقى**»، والتى جاءت فى أكثر من ثلاثين صفحة بعنوان «عروس فرعون». والتى احتوت أكثر من مشهد يتعلق بالحقائق الروحية عن الخلود وعن المبادئ الخلقية السامية.

ويفسر الدكتور «**رءوف عبيد**» ذلك بما أسماه بالجلاء السمعى، حيث تقيم الروح قناة اتصالية بينها وبين بعض الأفراد ذوى الشفافية العالية من أصحاب الذبذبات التى تتفق مع ذبذبات الأرواح الأثيرية.

ثم بدأ المؤلف بعد ذلك بتوضيح حقيقة أن الإنسان روح لا جسد، لتفسير ظاهرة اتصال الأرواح سمعيا بالأحياء، أو تجسدها لهم فى صورتها الشفافة الأثيرية وهو ما يسمى بالجلاء البصرى، حيث يرى أن الإنسان ليس مجرد كيان يفنى ويتحلل وينتهى بانتهاء الحياة، وإنما هو فى جوهره يتكون من مكونين أساسيين أحدهما مادى والآخر أثيرى، وأن المكون المادى أى الجسد هو فقط الذى يفنى ويتحلل.

فعندما يدركنا الموت، ينفصل عنا غلاف نورانى شفاف مطابق لجسدنا الطينى وكأنه نسخة مكررة منه، وهو ما يسمى «**بالهالة**» أو «**الأورا**»، وأن هذا الغلاف الشفاف الذى يمثل شكل صاحبه، ينتقل من الحياة الدنيا للحياة فى عوالم البرزخ انتظارا ليوم الحساب، أى أنه باق لا يفنى، وهو ما يعرف بالروح.

ويذهب الروحانيون من خلال مؤلف الدكتور «رءوف عبيد» إلى أن الموت لا يزيد في الواقع عن «كونه تغيرا في سرعة الاهتزاز»، مرده قيام الذات أو النفس البشرية بتغيير ردائها أو جسمها، بمعنى انتقال الذات من مرحلة الاهتزاز البطيء في جسم عضوى من لحم ودم، لتأخذ مكانها وتمارس وظيفتها في جسم أثيرى، له اهتزاز أعلى وأسرع من سابقه.

ولأننا نتكون من جسم ونفس وروح، فإن «النفس» أو «الذات» عندما تغادر الجسم المادى، تأخذ معها جسما داخليا مرتفع الاهتزاز أو التذبذب يعرف باسم الجسم «الأثير» تمارس من خلال عملها على المستوى الأثيرى.

ويميز الروحانيون بين مراحل معينة للروح، وهى فى طريقها إلى الأبدية، متنقلة من مستوى إلى آخر من مستويات الوجود حيث تتطور رحلة النفس خلال سبعة مستويات أو مراحل، فبين كل فصل وآخر من فصول التجربة التى تحياها النفس، توجد حالة انتقالية تستعيد فيها الروح تجاربها الماضية، وتحدد اختياراتها التى تقرر فيها المسير إلى أعلى أو إلى أسفل سلم الوعى وهى:

١ ـ مستوى المادة Plane of Matter: وهو مجموع التجارب التى تمت للنفس فى شكل فيزيقى، أى فى الشكل المادى الذى يعرفه الإنسان.

٢ ـ مستوى الحالة الانتقالية Hades of Intermediate State: وهو عبارة عن حياة برزخية تفصل بين كل مستوى وآخر من مستويات الوجود السبعة.

٣ ـ مستوى الخداع أو الوهم The Plane Illusion: وتشير إليه فترة الأحلام المرتبطة بالحياة على مستوى المادة.

٤ ـ مستوى اللون The Plane of Colour: وهو المستوى الذى لا يكون الوجود فيه محكوما بالحواس، بل بالعقل، ومع ذلك يظل الوجود محتفظا بشكله وبمادته بعد أن تصبح المادة أرق كثيرا عن ذى قبل، حتى ليصبح وصفها بأنها عبارة عن «هواء أو بخار المادة».

٥ ـ مستوى الشعلة الخالصة The Plane of Flame: وفيه تصبح الروح متنبهة إلى حقيقة الدور المشرق الذى تقوم به فى تناسق الأبدية، وشاعرة بكل الحياة الشعورية التى تحياها الأرواح التى تغذيها نفس المشاعر.

٦ ـ مستوى «الضوء الخالص» The Plan of Light: وهو المستوى الذى تحصل فيه الأرواح على الإدراك الواعى لكل وجود سابق لها بين مجموعتها الروحية الخالصة،

إلى أن تحصل فيما بعد على الإحساس بكل مشاعر الحياة داخل «كيان العالم الأرضي» .

٧ ـ مستوى «حالة انعدام الوقت» Out Yonder, Timelessness : وهو الذي تندمج فيه الروح بكل عناصرها وتمتزج بالعقل الأعظم ، أو «بالتخيل الإلهي» حيث الإدراك العام الذي يطوي الأكوان المتعددة الواحد بعد الآخر ، ومراتب الوجود المختلفة والماضي والحاضر والمستقبل ، هناك كل شيء خالد ، هناك الحقيقة الكاملة .

ويستطرد الدكتور «رءوف عبيد» شارحا في مؤلفه ، أن أرواح الموتى في أثناء حياتها البرزخية تكون على نفس الشاكلة التي كانت عليها في أثناء الحياة الدنيا في العالم الأرضي ، وأن الله سبحانه وتعالى يجند الأرواح الخيرة المؤمنة بعد أن يزودها من سعته وعلمه ؛ لتقوم بتقديم العون والمساعدة للأحياء في هذه الدنيا بمختلف أشكالها ، ومن بينها العلاج الروحي عن طريق الوسطاء الروحانيين . وذلك بسبب عجز الجسد البشري العادي عن التآلف مع الذبذبات والشحنات الكهربائية الصادرة من الأرواح ، وبالتالي فإن جسد الوسيط المؤهل إلهيا يكون بمثابة الجسر أو المعبر الذي تتواصل من خلاله الروح مع الفرد العادي .

كذلك فقد أفرد المؤلف في كتابه بأجزائه الثلاثة مئات الصفحات التي تناولت مئات التجارب العلمية ، للتدليل على وجود الأرواح بل وتجسدها في جميع أنحاء العالم . وأن استخدام بعض أنواع الأشعة مكنت الباحثين في هذا المجال من التقاط صور الأرواح في أشكالها الأثيرية من النساء والرجال والأطفال .

* * *

وما كدت أنتهي من قراءة هذا المؤلف الضخم الغريب العجيب ؛ حتى أدركني الشعور بمدى تفاهتي «وهيافتي» وضحالة علمي وفكري ، وأخذت الآية الكريمة ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾ تبرق وتومض في عقلي وذهني . وقررت أن أنضم رسميا لعضوية الجمعية أملا في اكتساب المزيد من المعارف والخبرات عن هذا العالم المجهول .

وكان من بين الأسباب التي دفعتني إلى الانضمام إلى الجمعية رغم انتفاء المصلحة المباشرة الخاصة بعلاجي ، ما علمته من أحد الزملاء عن الاستعداد الكامن لدى بعض الأفراد لأن يكونوا وسطاء روحانيين ، ومدى أهمية الدور الذي تلعبه الجلسات الأسبوعية التي تقام للأعضاء داخل الجمعية في تأصيل هذا الاستعداد وتأهيله وإثرائه ، عن طريق

الاستغراق فى التأمل، وتغذية الجوانب الروحية للفرد للوصول به إلى درجة عالية من الشفافية، التى تجعله بمثابة القطب الذى يجتذب الروح إليه ليكون أداتها الدنيوية.

وداومت لمدة قد تزيد على السنة على المشاركة فى جلسات الجمعية الأسبوعية. وعايشت خلالها بعض الظواهر التى تدعو للتأمل، مثل أن يقطع الصمت فجأة صوت أحد الحاضرين ممن راحوا فى شبه غيبوبة؛ ليعلن أنه يرى من خلال عينيه المغمضتين صورة ذهنية لمكان ما لم يسبق له رؤيته من قبل، ويأخذ فى سرد تفاصيل ذلك المكان بأثاثه وديكوراته وتفاصيله الدقيقة، حيث سرعان ما يعلو صوت شخص آخر من بين الموجودين ليعلن أن هذا هو بيته، أو أنها غرفة نومه، أو . . . أو . . .

وتأكد لى من خلال مثل هذه الجلسات أن بعض الحاضرين من ذوى الدرجات العليا من الشفافية، والذين يتم تأهيلهم من خلال هذه الجلسات ليكونوا وسطاء روحانيين، لديهم القدرة على قراءة الأفكار وإن كان ذلك بصورة غامضة مبهمة.

فقد حدث أن سرح خيالى فى أثناء إحدى الجلسات حيث ساد الحجرة المظلمة صمت مطبق، وغرق الجميع فى تأملاتهم، وقد انتابتنى حالة من القلق على ابنى الذى كان يعانى من إحدى نزلات البرد، والذى أجبرته ظروف عمله كمرشد سياحى والذى فضله عن العمل فى مجال الهندسة على مصاحبة وفد صغير من السياح الأمريكيين المؤمنين بفكرة تناسخ الأرواح فى رحلة إلى الأقصر لزيارة معبد حتشبسوت على وجه الخصوص، حيث يعتقدون بأنهم فى حياتهم السابقة كانوا من الفراعنة الذين عاشوا بين جدران هذا المعبد.

وأخرجنى من شرودى صوت أحد الحاضرين وهو يعلن وقد أغمض عينيه أنه يرى معبدا فرعونيا لا يستطيع تمييزه، وأن الصورة التى يراها مهتزة ومشوشة ويجد صعوبة فى جمع تفاصيلها؛ حيث ارتفع صوت رئيس الجلسة يطالبه بمزيد من التركيز ومزيد من التعمق لجمع شتات الصورة الذهنية التى تمثلت له، وأخذ يستحثه بكلمات مشجعة رتيبة ترتب عليها فى النهاية نجاح صاحب الصورة الذهنية فى الوصول إلى وصف تفصيلى لذلك المعبد، الذى لم يكن إلا معبد حتشبسوت بطرازه الفريد، واستكمل الصورة بقوله إنه يرى مجموعة صغيرة من الكهنة بأزيائهم الفرعونية يقومون بطقوسهم الدينية وقد ركعوا رافعين أياديهم أمام المعبد، وسأله رئيس الجلسة عما إذا كان لهذه الصورة الذهنية أى معنى لديه. حيث أجاب بالنفى، وحيث عاد رئيس الجلسة يوجه نفس السؤال لجميع الحاضرين دون أن يجيبه أحد على سؤاله ـ وترددت لبرهة قبل أن أرد عليه. فلم أكن أعلم حقيقة ما إذا كان ذلك مجرد مصادفة محضة، أم أن ذلك له مدلول لا أستطيع أنا تفسيره،

ووجدتني أعلن للحاضرين عما كان يدور في ذهني حول ابني ورحلته إلى الأقصر مع ذلك الوفد الأمريكي وعن معتقدات أعضاء هذا الوفد الخاصة بتناسخ الأرواح .

وشرع رئيس الجلسة يفسر الصورة الذهنية لمعبد حتشبسوت في ضوء ما قلته ، حيث أشار إلى أن ذلك يعني أنني وصاحب الصورة الذهنية كنا على موجة أثيرية وذبذبات واحدة ؛ مما جعله يلتقط ما كان يدور بداخلي والذي تجسد في تلك الصورة الذهنية التي وصفها .

وتبين لي من خلال الجلسات أن ما قد يتراءى لبعض الحاضرين في هيئة صورة ذهنية مهما بدت تافهة ، قد تحمل بين طياتها بعض المدلولات الرمزية التي لا يستطيعون تفسيرها ، ومن ثم فقد كان على أي واحد منا أن يعلن للجميع عن الصورة الذهنية التي تتمثل له أيا كانت ، حيث كان رئيس الجمعية يتوجه للحاضرين بالسؤال عما إذا كانت تعني شيئا بالنسبة لأحدهم أو لصاحب الصورة الذهنية نفسه ، ثم يقوم بتحليلها وتفسيرها إذا كانت تتضمن بعض الرموز المعينة أو كانت ذات مغزى محدد .

وحدث أن تكررت صورة ذهنية ملحة في مخيلتي كلما استغرقت في عملية التأمل والانسلاخ عن العالم المادي في أثناء الجلسة ، والتي تتمثل في قاعة ضخمة ذات سقف عال بأرضها الخشبية المصقولة ، وقد تم تبطين جدرانها بالكامل بألواح خشبية داكنة ، على حين احتل الجدار الواقع في نهاية الغرفة مكتبة ضخمة من الخشب الثمين حوت مئات المجلدات الضخمة الأنيقة ، على حين امتد في فراغ الحجرة مائدة خشبية هائلة ، وقد جلس في طرفها المواجه لباب الغرفة رجل مسن وقور ذو هيئة أوروبية بوجهه النحيل المشرب الحمرة وعينيه الزرقاوين وابتسامته الهادئة وشعره الخفيف الأشقر ولحيته الصغيرة المدببة ، حيث كان يرتدي بدلة من «الكاروهات» البيج بالبني ، والتي يرجع طرازها إلى موضة أوائل القرن العشرين ، وحيث كان دائما خلال الصورة الذهنية ينظر إليّ من تحت نظارته الذهبية المستديرة نظرة بشوشة مرحبة .

ولم تختلف هذه الصورة مطلقا في ذهني في كل المرات من حيث تفاصيلها كافة ، سوى أنني كنت أرى ذلك الرجل في بعض الأحيان واقفا وقد تدلى ذراعاه إلى جانبيه ، أو أن أراه في أحيان أخرى جالسا في نفس المكان وقد مد ذراعيه أمامه على المائدة .

وعندم أشرت إلى هذه الصورة الذهنية في واحدة من جلساتنا الروحية ؛ فسرها رئيس الجمعية وبعض الحاضرين بأنها ربما تكون تمهيدا لعملية اتصالية روحية ، سوف تتم بين هذا

الشخص أو على الأصح بين روحه وبينى، وأن علىّ أن أبذل مزيدا من الجهد فى الاستغراق والتأمل، وأن أرتفع وأسمو روحيا عن الماديات والمحسوسات؛ بحيث أصل إلى مرحلة من الشفافية الروحية تتلاءم ذبذباتها وموجتها الأثيرية مع روح ذلك الرجل تمهيدا لعملية الاتصال، وأن ذلك الاتصال الذى قد يحدث فورا أو قد يستغرق بعض الوقت ربما يكون جلاء سمعيا، بمعنى أن صوته قد يصل إلى أذنى فقط، وربما يكون بصريا ذهنيا، بمعنى أننى قد أراه فى صورة ذهنية بصرية أكثر تنوعا وحركة، وكأنما أشاهد فيلما سينمائيا نشترك فيه سويا، كما أن الأمر قد يصل إلى حد أن أراه أمامى بنفس الهيئة التى يتراءى لى بها، ولكن فى كيان أثيرى.

وكعادتى «مكدبتش خبر» انتابتنى حالة من التحفز والحماس الزائد لخوض تلك التجربة إلى آخرها، وكان يدفعنى إلى ذلك عدة أسباب، الأول: أن ذلك الاتصال الروحى قد يكون أداة ووسيلة إلهية تنتهى على يديها معاناتى من آلام الصداع وفقا لما يذهب إليه الروحانيون من أن الله يزود الأرواح الخيرة بواسع علمه وقدرته، ثم يجندها لرعاية وحماية من يعانون فى الحياة الدنيا، ولإبعاد المخاطر والأذى عن الناس فى الأوقات العصيبة.

ولعل بعض المواقف التى يمر بها البعض منا خير دليل على أن هناك رحمة ورعاية إلهية، بل وحراسا مجندين من عند الله يحيطون بنا فى مواقف الخطر، كأن يندفع أحد الأشخاص إلى نهر الشارع دون أن ينتبه لسيارة مندفعة قادمة، وما أن يصبح قيد شعرة واحدة منها، حتى ينتبه قائد السيارة فجأة وكأنما هناك قوة خفية تدفعه إلى التوقف على الفور ليتفادى الاصطدام به، أو يتراجع ذلك الشخص فجأة قبل أن يتم الاصطدام، وكأنما هناك من شده بعنف إلى الخلف، وكذلك الأمر عندما ينجو أحد الأشخاص من موت محقق فى حالة سقوط عمود للإنارة أو سلك كهرباء أو حجر من أحد المبانى تحت الإنشاء على بعد بوصة منه، أو يتفادى فى آخر لحظة السقوط فى «**بالوعة**» مفتوحة لم ينتبه إليها، وما إلى ذلك من مخاطر يومية نتعرض جميعا لها. ولعل التعبيرات الشعبية والعبارات السائدة المتداولة مثل «المحروس ابنى» أو «فلان ربنا يحرسه» أو «العين عليها الحارس» لخير دليل على أن هناك جنودا وحراسا من عند الله.

أما ثانى هذه الأسباب، والتى قد يكون لها مغزى أو قد لا يكون والذى ومض فى ذهنى كالشرر فجأة فور أن قيل لى إن اتصال الأرواح بين البشر لا يتم إلا مع ذوى الشفافية.

فقد حدث أكثر من مرة أن قابلت بعض الأشخاص للمرة الأولى فى حياتى ، فى الوقت الذى أكون فيه على ثقة بأننى قد رأيته من قبل وجلست إليه ، بل وتحدثت معه .

أو أن يدور حديث معين حول قضية معينة ، بينما أكون موقنة من أننى قد سبق لى سماع ذلك الحديث بأدق تفاصيله .

أو أن أذهب إلى مكان ما للمرة الأولى وينتابنى شعور مؤكد بأننى كنت فيه من قبل .

وإن أنسى لا أنسى ما حدث فى أول زيارة لى إلى «ألمانيا» ، حيث اصطحبنى بعض الأصدقاء من الألمان لزيارة إحدى القلاع القديمة فى مقاطعة «**بافاريا**» .

وما أن هبطنا من السيارة متجهين سيرا على الأقدام إلى القلعة التى تراءت لنا على البعد ، حتى تسمرت فى مكانى فجأة وأنا أشير لهم بيدى ليتوقفوا ، حيث أخبرتهم أننى قد سبق لى رؤية هذه القلعة من قبل فى الحلم ، وأخذت أشرح لهم كيف أنها محاطة بخندق ملىء بالماء من كل جانب ، وأن هناك قنطرة صغيرة علينا أن نعبرها للدخول إلى القلعة ، وأن مياه الخندق مليئة بأسماك شبيهة بالسمك البورى ولكنها ذات لون أسود وأن أحجامها قد تصل إلى طول الذراع ، وأن هناك فناء داخليا بعد الباب الرئيسى مباشرة به سلم على الجانب الأيمن يفضى إلى برج القلعة ، على حين أن هناك سلما آخر على الجانب الأيسر يفضى إلى الأبهاء الرئيسية والحجرات الداخلية و . . . و . . . و . . .

ولم أكد أنتهى من الوصف التفصيلى للقلعة بمحتوياتها ، حتى تراجع الجميع فى دهشة وقد فغروا أفواههم ، فقد كان كل ما قلته صحيحا .

ورغم أننى قد أقسمت لهم أن هذه هى زيارتى الأولى على الإطلاق «لألمانيا» ، إلا أننى أعتقد أن بعضهم قد حاول مراجعة اسمى لدى الجهات المعنية للتأكد من صدقى ، فقد كان ذلك بالفعل شيئا يدعو إلى الحيرة وعدم التصديق .

كذلك فقد كان من بين الشواهد التى أقنعتنى أننى قد أكون على شىء من الشفافية والروحانية ، أننى كنت قد رأيت سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم فى المنام وأنا فى نحو الثانية عشرة من عمرى ، حيث بدا لى فى لباس أبيض وغطاء رأس أبيض وقد امتطى أيضا جوادا أبيض ، وتقدم ناحيتى وهو على ظهر جواده ووضع يده على رأسى يباركنى ثم انصرف عنى .

وعندما قصصت على أمى تلك الرؤيا فى الصباح ؛ قالت لى إننى محظوظة إذ رأيته فى الحلم ، حيث قال صلى الله عليه وسلم :

«من رآنى فقد رآنى»، أى من رآه فى نومه فكأنه رآه فى الحقيقة.

أما السبب الثالث: فهو يتعلق برغبتى الملحة منذ أيام الطفولة والصبا فى مساعدة المرضى والمحتاجين، حيث استقر فى نفسى أن ذلك الاتصال الروحى المرتقب سيكون أداتى وعصاى التى أتوكأ عليها لأداء رسالتى نحو الآخرين عندما أصبح وسيطة روحية، وأننى سأكرس حياتى لهم، وأكون راهبة فى محراب المعذبين فى الأرض.

* * *

وعلى هذا..

بدأت آخذ أهبتى لحمل الرسالة القادمة من السماء. تصدقت ودعوت وصليت وأطلت السجود. تعاليت على دنس المادة ودنس الحياة. أدرت ظهرى لجاه الدنيا الزائف الفانى.

وأخيرا.. استكملت لياقتى؛ للقاء روح الرجل القادمة من أوروبا.

الروح التى سكنت فى مطبخ بيتى

فى تلك المرحلة من حياتى كنت قد بدأت أعيش شبه وحيدة فى معظم الأحيان، وذلك بعد استقرار ابنى فى مدينة الغردقة، وانتقال ابنتى بعد زواجها إلى مدينة نصر، وغياب زوجى الطويل حيث كان يعود للقاهرة ثلاث مرات فى السنة فى إجازات قصيرة لمدة أسبوعين أو ثلاثة، وأخرى طويلة تستغرق شهرى الصيف.

واستمتعت بتلك الوحدة الإجبارية بصورة لا مثيل لها، وكأنما هى وحدة اختيارية محببة، فرغم ما أعانيه من آلام الصداع إلا أن حياتى كانت تموج بالعديد مما يستهلك كل دقيقة من وقتى فى الساعات القليلة التى تلى استيقاظى صباحا، وكذلك فى فترة ما بعد الظهيرة.

وكان بقائى فى المنزل لعدة أيام قد تصل إلى الأسبوع أو الأسبوعين بسبب ما أعانيه من متاعب صحية يتيح لى - إلى جانب مشاغلى العادية - فرصة الاستغراق فى العبادات والتأمل، والبعد عن ماديات ومغريات الحياة بصورة لا بأس بها. مما ملأ نفسى أملا وثقة فى أن أكون مجالا أثيريا مناسبا لاجتذاب تلك الروح التى تتجسد فى الصورة الذهنية التى تتمثل أمام عينى لذلك الأوروبى العجوز.

ورغم اللهفة والأمل والرغبة الملحة التى كانت تملأ نفسى للاتصال بتلك الروح إلا أننى كإنسانة عادية طبيعية، كان يلفنى مزيج من الخوف والرهبة والفزع من ذلك المجهول الذى قد يقتحم علىّ خلوتى وحياتى.

وبدأت حياتى ولمدة ما يقرب من الشهر تأخذ لونا جديدا، كنت فى غنى عنه وأبعد ما أكون حاجة إليه. أصبحت لا أكاد أغلق باب الشقة ورائى عند عودتى من الخارج إذا ما اضطرتنى بعض الظروف إلى الخروج، وحتى أسارع بإنارة كل حجرات الشقة. وأجوس فى سائر أنحائها وقد تملكتنى الرهبة والخوف، وكأنما سأفاجأ بوجود روح ذلك الأوروبى

العجوز ببدلته «الكاروهات» وذقنه الصغيرة المدببة ونظارته المستديرة بإطارها الذهبي الرفيع، وقد جلس مسترخيا في هيئته الأثيرية على أحد المقاعد. أو أنني سأراه ممددا على أحد الأسرة في غرف النوم.

وأصبحت أشعر باستحياء شديد عند الاغتسال أو في أثناء تبديل ملابسي. وأسعى إلى الانتهاء من ذلك وستر جسدي في عجلة وارتباك شديدين وكأنما هناك عيونا غريبة تراقبني، بل وتحاشيت ارتداء ملابس البيت التي تكشف عن بعض أجزاء جسدي، وراعيت ألا ينكشف عني الغطاء في أثناء نومي رغم حرارة الجو. وتحول كياني كله إلى أذنين كبيرتين كأجهزة الإنذار المبكر، أنتبه لكل حركة وكل حس داخل المنزل من أوله إلى آخره، وأرتجف هلعا إذا بلغ أذني صوت صرير باب من الأبواب، وأقفز فرقا ورعبا كلما تعالى جرس الباب، ومع كل مرة يرن فيها جرس التليفون، وأصبحت كتلة من الأعصاب المرهفة المتوترة خاصة بعد أن أصبحت أنام دون أن أطفىء نور الغرفة.

وطوال تلك الفترة ظلت الصورة الذهنية للرجل المسن الأوروبي كما هي دون تغيير أو تبديل، سوى أنني أراه تارة جالسا وقد مد يديه أمامه على المائدة، وتارة أخرى واقفا وقد أسدل ذراعيه إلى جانبه.

حتى جاء ذلك اليوم.

* * *

كان ذلك صباحا عندما دخلت المطبخ لإعداد كوب من الشاي كما تعودت كل صباح، وما أن أصبحت في منتصف المطبخ تقريبا، حتى انبعث فجأة صوت موسيقى ناعمة شجية، وانحنيت في دهشة على جهاز الراديو الذي احتفظ به على أحد الرفوف فإذا به مغلق، ثم اقتربت من شباك المطبخ ظنا بأن تلك الموسيقى قد أتت من الخارج حيث لم أسمع سوى صوت السيارات وهمهمات المارة القادمة من الشارع.

وعدت أنظر حولي وفي كل اتجاه وما زال صوت الموسيقى الناعمة ينبعث حولي، وانتهيت بسرعة وفي ثوان من صب كوب الشاي ومغادرة المطبخ في عجلة، وما أن خطيت باب المطبخ حتى توقفت الموسيقى تماما، وساد الصمت المطبق مرة أخرى.

وعدت أقف على باب المطبخ مرة أخرى، ومددت رأسي إلى الداخل في حذر، واستمر الصمت المطبق، وخطوت خطوتين أو ثلاث، وما زال الصمت سائدا، وما أن خطوت خطوة أخرى وأصبحت في وسط المطبخ وفي يدي كوب الشاي حتى انبعث

صوت الموسيقى الناعمة الشجية فجأة مرة أخرى ، وانتابتنى حالة من الرعب والهلع التى ارتجف لها جسدى ارتجافة شديدة أطاحت بكوب الشاى الساخن فى فراغ المطبخ بينما كنت أندفع كالقذيفة خارج المطبخ . وهرعت إلى حجرتى مرتعبة لاهثة وكأنما أفر من مطاردة ثور هائج فى حلبة لمصارعة الثيران .

وما أن دخلت الغرفة حتى التفت ورائى فى هلع ؛ لأرى ما إذا كان هناك من يطاردنى ، ولم أر شيئا ، لم يكن هناك ثور أو جنى أو عفريت ، كل شىء كما كان سابقا ، فالصمت يلف البيت كالعادة ، وقطع الأثاث هى هى لم تنتقل قطعة من مكانها ولم تتحرك قطعة من موضعها ، وجلبة الشارع لا تزال تصل إلى سمعى كعادتها .

وانهرت على أحد المقاعد لعدة دقائق تمالكت بعدها نفسى .

وأخذت أفكر بروية وتعقل أن تلك الموسيقى الناعمة الشجية لا يمكن أن تكون ضربا من التوهم أو التخيل ، فأنا آخر من يخضع للوهم أو الإيحاء ، وهى أيضا وبكل تأكيد لم تكن قادمة من خارج المطبخ ، فقد تأكدت تماما من ذلك . هل تكون هذه الموسيقى مقدمة أو تمهيدا لعملية الاتصال التى قد تتم بينى وبين روح الأوروبى العجوز الذى أراه فى الصورة الذهبية؟ هل هى بداية الاتصال بينى وبين تلك الروح وسيليها بعد ذلك أنماط اتصالية أخرى جديدة؟

وظللت متشبثة بمقعدى لما يزيد على الساعة ، ولم تواتنى الجرأة على الذهاب للمطبخ مرة أخرى لمعرفة ما يدور به ، أو لإعداد كوب شاى آخر ، وفجأة استجمعت شجاعتى ولملمت أعصابى وتوجهت إلى المطبخ .

كانت رأسى تسبقنى وأنا فى طريقى إليه ، وما أن بلغت عتبته حتى مددتها إلى أطول مدى ممكن وقد تراجع جسدى إلى الخلف لأستكشف ما بالداخل ، وكان كل شىء صامتا ساكنا ، وكل شىء فى مكانه تماما كما كان عدا الكوب الذى تناثر زجاجه على الأرض مع الشاى المسكوب ، وخطوت إلى الداخل فى حذر ، وأنا أتوقع بين لحظة وأخرى أن يرتفع اللحن الموسيقى ، ولم يخب ظنى ، فما أن توسطت المطبخ حتى تعالت تلك الموسيقى الناعمة الشجية مرة أخرى .

وبأعصاب متماسكة قررت أن أعيد التجربة مرة أخرى ، حيث خطوت متجهة خارج المطبخ وصوت الموسيقى يلاحقنى ، وما أن تعديت عتبته حتى توقفت الموسيقى تماما .

ووطنت نفسى على أن أتعايش مع ما يحدث انتظارا لخطوة الروح التالية ، ودخلت

المطبخ مرة أخرى، وانبعثت الموسيقى مرة أخرى وظلت تتردد فى فراغ المطبخ، وأنا أقوم بإزالة آثار كوب الشاى الذى تهشم على أرضيته وإعداد كوب شاى آخر حملته معى متوجهة إلى حجرتى، حيث انقطعت الموسيقى تماما كالعادة بمجرد مغادرتى للمطبخ.

واستمر الحال على هذا النحو لمدة يومين كاملين، مرت كل دقيقة فيهما وكأنها سنة «كبيسة»، أرتجف فزعا عند أقل صوت ويخيل لى أننى سوف أرى فجأة أمامى شيئا خارقا أو غير متوقع أنام لعدة دقائق لأصحو فجأة وقد توترت أعصابى وتصلب جسدى، يشط خيالى لأتساءل عما إذا كانت حجرتى تعج بكائنات شفافة غير مرئية.

ولم يطرأ أى جديد خلال هذين اليومين، كل ما هو مادى وما هو محسوس فى منزلى ومن حولى هو هو لم يتغير، ولم يتجسد عليه أى شىء سوى تلك الموسيقى الناعمة الشجية التى تنبعث فى فراغ المطبخ كلما خطوت إلى داخله عدة خطوات.

ولم أعد قادرة على كتمان ما أعانيه من وطأة تلك الظاهرة.

اتصلت بابنتى وقصصت عليها ما حدث، والذى كنت قد كتمته عنها فى أثناء اتصالاتنا العديدة فى اليومين السابقين، وانتهى لى صوتها الملهوف المرتعب وهى تلح علىّ بشدة وإصرار أن أعد حقيبة ملابسى وأن أغادر البيت فورا للإقامة لديها.

كانت ابنتى رغم عدم إيمانها بالغيبيات والكائنات الخفية اللامرئية تؤمن إيمانا مطلقا بى وبما يخرج من بين شفتى، كما كانت تؤمن بعدم إمكانية خضوعى أو وقوعى فريسة للهلاوس أو الخيالات المرضية؛ ولذلك فقد كان فزعها شديدا عندما أخبرتها بتلك الموسيقى القادمة من عالم المجهول.

وأخذت أهدئ من روعها، وأنا أتضاحك معها وأمازحها، قائلة إن هذه الموسيقى الجميلة سواء كان وراءها روح أو عفريت أو جنى لهى خير دليل على أن تلك الروح أو العفريت أو الجنى مخلوقات رقيقة «شيك» ذات حس فنى راق، وأنها وبكل تأكيد سوف تكون «لطيفة وظريفة» «وبنت حلال» إذا قررت أن تظهر لى أو تتعامل معى.

وأنهيت مكالمتى معها بأننى سوف أطلبها فور حدوث أى ظاهرة غريبة أو أحداث جديدة، بعد أن فشلت فى إقناعى بمغادرة المنزل.

وتوجهت بعد انتهاء المكالمة فورا إلى المطبخ الذى أصبحت لا أدخله تقريبا اكتفاء بالوجبات السريعة التى كنت أطلبها بالتليفون، وبدأت فى إعداد فنجان من القهوة، واستقبلتنى الموسيقى الناعمة الشجية كالعادة بمجرد بلوغى وسط المطبخ، وسيطرت على خوفى منها كما تعودت خلال اليومين الماضيين بمحاولتى التظاهر بالاستمتاع بها وأنا

أملأ «كنكة» القهوة وأضعها على النار، وتظاهرت باللامبالاة وأنا أستدير لأفتح إحدى ضلف دولاب المطبخ التى أضع بها الخزين بعد أن اكتشفت أن «السكرية» قد خلت من السكر.

وما أن فتحت الضلفة وأزحت بعض الأكياس من موضعها بحثا عن السكر، حتى تلاشت الموسيقى وتوقفت على الفور؛ مما جعلنى أتراجع إلى الخلف كالمأخوذة وأنا أتلفت حولى فى حيرة حيث لم أجد ما يثير الريبة على الإطلاق. وما أن عدت لأخطف كيس السكر وأعيد الأكياس الأخرى إلى مكانها وأنا أغلق الضلفة بسرعة، حتى انبعثت الموسيقى مرة أخرى، تلك الموسيقى الناعمة الشجية.

وتجمدت مكانى لبرهة وأنا أقف أمام الضلفة المغلقة، وقد أخذ قلبى يدق فى سرعة وعنف، بينما كنت أحاول أن أستجمع أطراف شجاعتى وأنا أعود وأقترب مرة أخرى من الدولاب فى بطء وحذر، وأنا أمد يدى فى تردد وخوف لأفتح الضلفة، وقد ملأنى الفزع والترقب، وكأنما سيقفز فى وجهى عفريت أو جنى أو روح ذلك الشخص.

وما أن مررت بعينى فى لهفة وبسرعة على ما وراء الضلفة فور أن فتحتها، حتى وجدتنى أقهقه وأضحك ضحكات هستيرية مدوية، بينما أخذت ألف وأدور حول نفسى كأبرع راقصة، وقد أخذت أضغط بكلتا يدى على بطنى وجنبى اللذين أوشكا على الانفجار من عنف الضحك والقهقة، وقد انسابت من عينى الدموع.

وحاولت أن أتمالك نفسى بمشقة وأنا لا أستطيع الكف عن القهقهة وأنا أتقدم من الضلفة المفتوحة، وقد مدت يدى لأقبض على رقبة ذلك الذى قلب حياتى.

وخرجت يدى من داخل الدولاب وهى تحمل «مج» من الصينى، والذى أخذت أقلبه فى يدى بينما استمرت قهقهتى ترن مدوية فى المكان.

كان ذلك «المج» أو الكوب المصنوع من الصينى قد تم تصميمه بحيث يصدر معزوفة موسيقية «ناعمة شجية» كلما تعرض إحدى زواياه للضوء، وكنت قد وضعته فى تلك الضلفة منذ شهور طويلة وربما سنوات، ونسيت أمره تماما ويبدو أننى كنت قد وضعت أمامه منذ وقت طويل بعض مواد الخزين التى كانت تحجب عنه الضوء تماما، وأن السيدة التى تجىء من أجل أعمال النظافة مرتين أسبوعيا قد غيرت موضعه لسبب أو لآخر، حيث أصبح انكسار الضوء كلما وقفت أمام هذه الضلفة التى تقع فى منتصف المطبخ عاملا من العوامل التى كانت تؤدى إلى انبعاث الصوت الموسيقى.

* * *

وجريت إلى التليفون وأنا ما زلت أقهقه ، لقد كنت أقهقه على نفسي . وطلبت ابنتي ، وأخبرتها بما حدث . وجاءنى صوت ضحكاتها المدوية على الطرف الآخر . كانت تضحك منى ، وكانت تضحك من أجلى . وعذرتها ، وعذرت نفسى ؛ عذرتها لأن ما حدث كان بمثابة مسرحية كوميدية هزلية ، كنت أنا بطلتها الرئيسية ، وعذرت نفسى لأننى كالغريق الذى يتعلق بقشة أى قشة .

وأخذت درسا من هذه الملهاة المأساوية . قررت وكأنما أنا صاحبة القرار بأننى لا أريد أن أكون وسيطة روحية بعد الآن ، وتوقفت عن قراءة كل ما يتعلق بالأرواح ، بل وتوقفت عن التردد على الجمعية .

ولكنى لم أتوقف عن التعامل مع الأرواح .

وإليكم تجربة أخرى.

رأيت قبل أن أبدأ الحديث عن تجربتى أو قصتى الجديدة أن أتناول بالتحليل تجربتى الهزلية السابقة . كان ذلك الوهم الذى عشته لعدة أسابيع والخاص بالصورة الذهنية التى كانت تلح علىّ لذلك الرجل الأوروبى بمثابة أمنية خفية لا شعورية ، فى أن أكون على صلة مباشرة مع تلك القوى اللامرئية دون أن أكون فى حاجة إلى وسيط بسبب تجاربى السابقة الفاشلة .

ومن الجائز جدا أن تلك الصورة الذهنية الملحة بالذات ترجع لشهور أو سنوات مضت ، وأن أكون قد رأيت هذه الصورة فعلا من قبل فى أحد الكتب ، وربما فى أحد الأفلام الأجنبية حيث استقرت فى منطقة اللاشعور ؛ لتنبعث مرة أخرى من مكمنها بعد انغماسى فى القراءات المتخصصة فى علم الأرواح ، والتى أشارت إلى مئات التجارب التى أجريت فى أمريكا وأوروبا بالذات ، والتى نجحت فى تحضير الأرواح بل وتجسيدها .

ويفسر ذلك ما قد يمر به البعض منا فى بعض الأحيان عندما يجد المرء نفسه وقد أخذت تتردد داخله مقطوعة موسيقية معينة ، أو جزء محدد من أغنية ، أو خاطر ملح معين ، أو صورة بصرية بعينها ، وذلك بطريقة ملحة ومتكررة قد تستمر لعدة دقائق وربما لعدة ساعات ، ثم سرعان ما تختفى تلك الظاهرة طال الوقت أم قصر .

وعلى أية حال ففى اللحظة التى أدركت فيها أن ذلك «المج» اللعين قد غرر بى وجعل منى أضحوكة ، حيث ما زلت حتى الآن أنا وابنتى نستغرق فى الضحك كلما وقعت أبصارنا عليه . أدركت أيضا أننى غير مؤهلة عصبيا أو روحيا أو صحيا للخوض فى بحار علوم الروح ، أو أن أصبح ذات يوم وسيطة أو معالجة روحانية ، وحيث ترتب على ذلك الإدراك أن اختفت تماما تلك الصورة الذهنية الملحة ، فقد أصبحت طموحاتى من حيث إقامة علاقة بينى وبين الأرواح أكثر تواضعا .

ولنبدأ التجربة الجديدة .

الشابة التى تزوجها الجنى !!

رأيتها للمرة الأولى عندما جاءت إلى الجمعية تستنجد بالأرواح الطيبة لإخراج ذلك «الجنى»، الذى تلبّس جسدها منذ أن كانت فى الثامنة عشرة من عمرها وعلى مدار خمس سنوات كاملة .

كانت شابة على قدر كبير من الجمال بشعرها الأسود الناعم الذى تهدل على كتفيها فى خصلات كثيفة ملتوية، وأحاط بوجهها الخمرى المائل للاستدارة والخالى من المساحيق، الذى يجذبك إليه بعينيها العسليتين الرائقتين كلون العسل الصافى برموشهما الطويلة الكثيفة وشفتيها المليئتين الحمراوين المحددتين .

كان ذلك بعد انضمامى للجمعية بعدة شهور عندما رأيتها تدلف إلى الحجرة المخصصة للعلاج، وقد طأطأت برأسها إلى الأرض فى استحياء وهى تجرجر جسدها المتناسق الممشوق فى تباطؤ، وكأنها تهم بالتراجع عن الدخول إلى الحجرة بينما أخذت تدفعها برفق سيدة وقورة على قدر من الأناقة .

وما هى إلا دقائق بعد اختفائها داخل الحجرة حتى تعالى من داخلها صوت وحشى لا آدمى؛ جعلنى أقفز من مكانى فى هلع لأطل برأسى من باب الحجرة المفتوح؛ لأرى تلك الفتاة وقد تكورت على الأرض وقد تهدل شعرها فى فوضى، وقد أخذ جسدها ينتفض انتفاضات تشنجية متتالية وهى تدور حول نفسها وقد عقدت ذراعيها إلى صدرها، بينما أخذت تحرك رأسها فى حركات هستيرية وكأنما ستنتزعها من عنقها فى الوقت الذى كانت تدوى فيه صرخاتها الوحشية . على حين أخذت السيدة المسنة بمعاونة الشخص الذى كان يقوم بعلاجها فى بذل محاولات مستميتة لشل حركتها، وشد أطراف ثوبها لتغطية الأجزاء التى كانت تتعرى من فخذيها وساقيها، فى الوقت الذى انسابت فيه من شفتى المعالج الآيات القرآنية التى يحاول السيطرة بها على ذلك «الجنى» الذى تلبس جسدها .

وغمرتني حالة من الأسى البالغ وأنا أرى على وجهها آيات العذاب والمعاناة والذى جسدته تلك الصرخات الوحشية ، وآلمني عجزى عن تقديم أى مساعدة ممكنة لها أو لغيرها ؛ حيث لم تكن تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها شخصا قد تلبسه «جنى» .

وصرفني عن متابعتها فى تلك الليلة بدء انعقاد الجلسة الروحية ، حيث أخذ صوت صرخاتها يصل إلينا عبر باب حجرتنا المغلق لما يزيد على ربع الساعة ، ثم تلاشى الصوت فجأة ليسود ويعم الهدوء والسكون .

ولم أعد إلى الجمعية بعد تلك الليلة إلا بعد عدة أسابيع حيث كنت قد سافرت إلى الإسكندرية حينما وصلت إلى مقرها بعد بدء الجلسة بدقائق ، حيث دخلت بهدوء إلى الحجرة المعتمة ، وحيث دلني بصيص الضوء الخافت إلى أحد المقاعد الخالية الذى شققت إليه طريقى فى حذر وهدوء .

وأدهشني فى تلك الليلة تلك المرأة التى كانت تجلس عن يميني ، والتى لم أتمكن من تبين ملامحها ، أو التعرف على صوتها الذى كنت أسمعه لأول مرة ، والتى دار ثقل الجلسة حولها ، حيث كانت تتميز بقدرة هائلة على تلقى رسائل الأرواح ، وحيث كانت الصورة الذهنية التى تتشكل أمام عينها وفى مخيلتها والتى تقوم بنقلها إلينا ، تبدو لنا وكأنها رسائل من عالم الغيب لا شك فيها .

فقد كان من بين ما قالته إنها ترى طفلا صغيرا على هيئة ملاك ذى أجنحة بيضاء ، يطير فى أنحاء الحجرة التى نجلس فيها ، وقد مد يديه إلى الأمام ، ثم عادت بعد لحظات من الصمت والاستغراق ؛ لتصف ملامح ذلك الطفل تفصيليا وكأنه قد تجسد لعينيها . . .

واستغرقت مرة أخرى فى شبه غيبوبة ، ليعود صوتها المتعب وكلماتها الثقيلة يعلن أنها ترى امرأة فى فضاء الغرفة قامت بوصف ملامحها ، وهى تتشح بالبياض وقد مدت يديها فى لهفة وتوسل ورقة ، وكأنها تبعد ذلك الملاك الصغير عن طريقها وقد ارتسم على وجهها آيات القلق والانزعاج ، بينما ظل ذلك الملاك طائرا متخبطا فى فراغ الغرفة ، حيث انفتحت فجأة طاقة مضيئة فى سقفها انطلق خارجا منها .

وما أن غادر الملاك الصغير الحجرة حتى ارتسمت على وجه المرأة المتشحة بالبياض تنهيدة ارتياح ، وارتخت ملامح وجهها المشدودة القلقة ، بينما علا شفتيها ابتسامة اطمئنان هادئة .

وإذا كنت قد سردت في إيجاز أحداث تلك الجلسة في عدة سطور ، إلا أن تلك الصورة الذهنية التي نقلتها لنا القادمة الجديدة استغرقت منها ما يقرب من الساعة ؛ لجمع شتات تفاصيلها التي انتهت مع انتهاء الوقت المقرر للجلسة .

وفور انتهاء الجلسة اندفع شبح أحد الحاضرين من مقعده منطلقا خارج الغرفة ، معلنا حاجته الملحة لإجراء مكالمة تليفونية .

وما أن أدار مفتاح الكهرباء وهو في طريقه إلى الخارج ، حتى دفعني حب الاستطلاع إلى الالتفات إلى القادمة الجديدة التي تجلس عن يميني ، حيث انتابتني دهشة بالغة ، فقد كانت هي تلك الشابة التي رأيتها منذ أسابيع قليلة ، وقد كورّها على الأرض ذلك «الجني» الذي يسكن جسدها بتلك الصورة التي تدعو إلى الشفقة والرثاء .

وأخرجني من دهشتي صوت رئيس الجلسة وهو يوجه كلامه لي قائلا : إن هذه القادمة الجديدة كانت تعاني من حالة تلبس شديدة عجز معها المعالجون في الجمعية عن علاجها ، مما دفعهم إلى تحويلها إلى «**الحاجة صفصف**» التي استطاعت طرد «**الجني**» الذي كان يتلبسها ، حيث اكتشفوا بعد شفائها أنها تمتلك قدرا كبيرا من الشفافية والاستعداد لتلقي الرسائل الروحية والذي عزز رغبتها في الانضمام لعضوية الجمعية .

وما أن بدأ الحاضرون في الانفضاض حتى دخلت في حديث جانبي مع جارتي الجميلة ، التي لم تكد تهم بقص حكايتها حتى قطع علينا الحديث ذلك الزميل الذي كان قد انصرف فور انتهاء الجلسة لإجراء مكالمته التليفونية الهامة . الذي أقبل علينا وقد تهلل وجهه وهو يوجه لها المديح والثناء على مقدرتها الخارقة في الاستشفاف ، فقد بدا له في أثناء وصفها للملاك الصغير والمرأة المتشحة بالبياض أنها إنما تتحدث بما لا يدع مجالا للشك عن زوجته الراحلة وعن طفله الصغير ذي الثلاثة أعوام الذي تركته وراءها ، مما أثار قلقه عليه ودفعه إلى الاتصال بمنزله تليفونيا للاطمئنان عليه حيث كان قد تركه في رعاية جدته ، وكيف أن الجدة قد أخبرته خلال ذلك الاتصال بأن ابنه كان على وشك الموت منذ لحظات ، عندما انحشرت في حلقه قطعة معدنية صغيرة كان يلعب بها ، حيث تحشرجت أنفاسه وازرق لونه وانتفخ وجهه وهو يحاول جاهدا طرد هذه القطعة من حلقه ، وحيث انتاب الهلع جدته التي أسرعت بالإمساك بقدميه ورفعه إلى أعلى في الهواء بينما اندفعت تربت بقوة على ظهره حتى تقيأ ما بداخله مصحوبا بالقطعة المعدنية .

وارتسمت آيات الدهشة البالغة على ملامح جارتي الشابة ، وهي تستمع إلى زميلنا وهو يحلل الصورة الذهنية التي نقلتها لنا في أثناء الجلسة ، وكيف أنها كانت تعبيرا رمزيا لما

كان يقع بالفعل وفى نفس اللحظة داخل منزله ، وأن المرأة المتشحة بالبياض هى روح أم الطفل الذى أوشك على الموت ، والذى تشكل فى صورتها الذهنية على هيئة ملاك صغير يتخبط فى فضاء الحجرة .

ولن أقف طويلا عند هذه الواقعة فربما يكون هذا التحليل سليما من وجهة نظر العلوم الروحية ، وقد يكون مجرد مصادفة بحتة لهلاوس ذهنية جسدها خيال جارتى الجميلة .

وعادت الشابة بعد أن غادرنا زميلنا تقص علىّ قصتها التى بدأت وهى فى نحو الخامسة عشرة ، عندما اعتادت أن تستيقظ فزعة من النوم ليلا على أنفاس ناعمة تلفح وجهها ، وما أن تضىء نور الحجرة التى تنام فيها بمفردها حتى تختفى هذه الأنفاس ، ومع الوقت اعتادت على هذه الأنفاس وأصبحت ترقبها ، وبدأت تشعر وهى بين النوم واليقظة ، بأن هناك جسدا دافئا يحيطها بذراعيه ويأخذها بين أحضانه .

وأصبحت تشعر بمتعة الأنثى الكاملة فى هذه اللقاءات التى أصبحت شبه دائمة ، حتى فوجئت فى إحدى الليالى وهى فى تمام يقظتها بأنها تعيش متعتها مع جسد هذا الشاب الذى تمثل لها لحما ودما والذى تاهت ملامح وجهه التى بدت لها وسيمة فى ضوء الحجرة الخافت !

وفى تلك الليلة سمعت صوته الهامس العذب لأول مرة ، وتحدث معها وتحدثت معه ، وعلمت منه أنه من «بنى الجن» ، وأنه كان يحبها وكان يريدها منذ أن كانت طفلة وأنها منذ الآن قد أصبحت له زوجة .

وظل ذلك الشاب يلازمها منذ حلول الليل وحتى مطلع الفجر ، لا تراه إلا عندما تكون بمفردها وفور أن تطفئ نورها ، حتى ولو كان ذلك بعد هبوط الليل مباشرة ، وأصبح يشاركها معظم جوانب حياتها داخل الحجرة ذات الضوء الخافت القادم من الشارع عبر النافذة ، بما فيها الطعام والشراب الذى بدأت تتسلل به إلى حجرتها بعيدا عن عيون أفراد أسرتها ، ويجلس بجوارها على الكنبة القائمة فى ركن الحجرة يضاحكها ويعابثها وقد لف ذراعه حول ظهرها ، وهو يسندها إلى صدره ، بينما تنبعث من جسده الدافئ رائحة عطرية لطيفة ، أو يتربع على أحد المقاعد وهو يبادلها الأحاديث وقد ارتدى بيجامته ، ويستمع إليها وهى تحكى له تفاصيل أحداث يومها فى المدرسة أو بعد أن دخلت الجامعة ، وهو يخطو بتفاصيل جسده الرشيق الغامض داخل فراغ الحجرة متنقلا من مكان إلى مكان ، ويراقبها وهى تلف شعرها أو عندما تتعطر له أو فى أثناء تبديلها ملابسها .

أصبحت حياتها مع ذلك «الجنى» وكأنها حياة زوجية شبه كاملة .

واستمتعت بقربه منها على مدار ثلاث سنوات ، واستطاعت بذكائها وبإرشاداته لها وتعاونه معها مع ما كانت تتسم به من هدوء وميل للطاعة ولين الجانب ، أن تتستر تماما على ما يجرى داخل غرفتها ، وأن تخفيه عن عيون أفراد أسرتها ، الذين كان يدهشهم منها نومها المبكر وكرهها لمشاهدة التليفزيون أو الخروج مع صديقاتها كما يفعل من هم فى مثل سنها ، وقضاء الساعات الطويلة بمفردها خلف باب حجرتها المغلقة ورفضها الدائم مغادرة المنزل خاصة بعد حلول الظلام ، وتجنبها الواضح لشقيقتها التى تصغرها بخمس سنوات والذى بلغ حد النفور والحدة ، رغم ما كانت تتسم به علاقتهما من قبل من ارتباط وتوحد شديدين .

واستمر الحال كذلك على مدى ثلاث سنوات كاملة ، عندما بدأت تفكر فى مصير تلك العلاقة العجيبة ، وما تعنيه من حرمانها من الزواج ، وقد أوشكت على التخرج من الجامعة ، وأصبحت لا تمتنع عن مقابلة الخطاب الذين أصبحوا يترددون على بيت أسرتها بعد أن كانت ترفض فكرة الزواج تماما .

وكان صديقها «الجنى» يدخل معها فى البداية فى حوارات ومناقشات هادئة لإقناعها باستمرار علاقتهما كما كانت فى السنوات الماضية وإثنائها عن فكرة زواجها من إنسى ، ثم بدأ الحوار يتطور بينهما ليأخذ شكل الرفض التام من جانبه لقطع تلك العلاقة وإنهاء ما بينهما ، وإصراره على عدم مفارقتها وملازمتها بالقوة . والذى بلغ حد التهديد بإلحاق الأذى بمن تسعى إلى الارتباط به .

ولم تأخذ الفتاة تهديده لها مأخذ الجد ، وعزمت على أن تتخلص من ذلك القيد الذى يقيدها إليه وتضع حدا لتلك العلاقة التى لن تجنى شيئا من ورائها سوى إهدار سنوات شبابها واستلاب حقها فى الأمومة ، خاصة بعد أن كشف لها ذلك «الجنى» عن الجانب المظلم والمؤذى منه من خلال محاولاته السيطرة عليها وإخضاعها له بالقهر والقوة والتهديد .

وأصبحت ترغم نفسها على قضاء أطول فترة ممكنة بين أفراد أسرتها أو خارج المنزل مع أصدقائها ، وهى تقاوم فى استماتة رغبتها العارمة فى الرجوع عن قرارها والاستسلام لذلك «الجنى» الذى فجر أحاسيس الأنثى فيها ، وتعودت ألا تنام إلا إذا أضاءت نور حجرتها ؛ حتى لا تتيح له فرصة التجسد لها ، وعادت مرة أخرى إلى سابق علاقتها مع

شقيقتها، حيث أخذت تتوددها وتلاطفها وتتقرب إليها، بل وبدأت تهجر حجرتها، وتنام على السجادة بالقرب من فراش أختها في حجرتها الصغيرة.

وتحدد موعد حفل الخطبة الذي تقرر إقامته في منزل أسرتها على نطاق ضيق، وما إن اكتمل عدد المدعويين، وبدأ العريس في وضع خاتم الخطبة في أصبع خطيبته، حتى انطفأ النور فجأة في نفس الوقت الذي انبعث فيه من عداد الكهرباء المجاور لباب الشقة شرر قوي محدثا دويا هائلا أفزع سائر الموجودين، وساد الهرج والمرج للحظة اكتشفوا بعدها أن العداد قد تحول إلى كتلة سوداء من التفحم، وقد تآكلت كل أسلاكه بفعل الاحتراق.

وانطلق أحد الجيران من بين المدعويين ليفتح باب الشقة ليسمح لنور السلم بإضاءة المكان، ثم توجه إلى شقته المجاورة وغاب فيها للحظات عاد بعدها وهو يجر وراءه سلكا كهربائيا طويلا تدلت منه لمبة كهربائية كبيرة مضيئة، قام بتعليقها في حذر مكان إحدى الصور التي قام بإنزالها من مكانها.

وعاد الجميع إلى ما كانوا عليه من مرح وانطلاق، بعد أن تأجل موعد تقديم الشبكة لحين حضور الكهربائي الذي أرسلوا في طلبه، والذي جاء على عجل وأخذ يبدي دهشته وتعجبه للحالة التي وجد عليها عداد الكهرباء، حيث لم يسبق له طوال حياته رؤية هذا القدر من التخريب والتلف، وحيث أخبرهم بضرورة استبدال العداد بآخر، ثم قام مؤقتا بمد عدد من الأسلاك الكهربائية من الشقة المجاورة إلى جميع أنحاء الشقة حيث يقام الحفل، والمتصلة بأعداد كبيرة من اللمبات الكهربائية.

واستأنف الجميع الاحتفال بتقديم الشبكة، حيث تقدم على الفور أحد الجرسونات الذين تم استقدامهم من «جروبي» للقيام على خدمة المدعويين، وقد حمل بين يديه صينية فضية عليها كأسان من شراب الورد.

وما كاد ينحني أمام العريس ليجعل الكأس في متناول يده بعد أن تناولت العروس كأسها في يدها، حتى انقلبت من يده الصينية بما عليها على العريس الذي اصطبغ قميصه بلون الشراب الأحمر الوردي، بينما اخذت قطراته تنساب على جاكتته وبنطلونه بعد أن هب واقفا في حرج بالغ وانزعاج.

وساد الهرج والمرج مرة أخرى، بينما تعالى صوت الجرسون بالاعتذار، وهو يقسم أيمانا مغلظة بأن هناك من قد ركله في ساقه.

وانتبهت العروس فجأة في هلع إلى مغزى ما يحدث، وأدركت أن ذلك «الجنى»، حبيبها الجنى المهجور قد بدأ في تنفيذ تهديداته بينما اندفعت تشد خطيبها من يده وهى تتوجه إلى الحمام بالداخل في محاولة يائسة لتنظيف آثار الشراب المسكوب على ملابسه، وعادت به بعد قليل وقد زرر جاكتته في محاولة لإخفاء البقع التي لم يفلحوا في إزالتها أو إخفائها، حيث توجهت به إلى مكان البوفيه.

وأخيراً وبعد منتصف الليل بقليل أخذت العروس تتنفس الصعداء، بينما كانت تقف أمام باب شقتها مودعة خطيبها وأفراد أسرته بعد انتهاء الحفل. وهى تحمد الله على أنه قد ستر أخيرا، وأن الليلة قد انتهت على خير، ولم يكد خطيبها يلتفت إليها مودعا للمرة الأخيرة وقد بلغ منتصف السلم حتى رأته يرفع يديه إلى أعلى صارخا في فزع، وهو يفقد توازنه فجأة ويهوى متدحرجا على السلم إلى أن استقر جسده على البسطة، وهرع الجميع إليه وهم يحاولون مساعدته على الوقوف وتنظيف ملابسه التي اتسخت، وما كاد يستوى واقفا حتى انهار مكانه مرة أخرى، وهو يتأوه في ألم معلنا أن ساقه لابد وأن تكون قد كسرت، وتبين بعد ذلك أن ساقه بالفعل قد كسرت.

كسرها له الجنى، حبيبها القديم الذى هجرته.

وبدأ «الجنى» حربه المعلنة.

أصبحت النار تشب فجأة وتشتعل في بعض أماكن من المنزل دونما سبب واضح، ثم سرعان ما تنطفئ من تلقائها دون أن تترك أى آثار للحريق الذى اندلع. وبدأت أصوات اصطفاق الأبواب فجأة وفتحها تلقائيا تبدو شيئا روتينيا. وأصبح اختفاء الأشياء من موضعها شيئا عاديا.

وامتدت يد «الجنى» إلى المطبخ ليلا عندما كان أفراد الأسرة يهبون من نومهم في رعب وفزع على صوت دوى هائل صادر من المطبخ، ليكتشفوا أن كل الأوانى والحلل والأطباق التى كانت داخل الدواليب قد تناثرت في فوضى في أرجائه وقد امتلأت أرضيته بكل ما كان في بطون الأكياس والعلب والبرطمانات، بينما خلت أرفف الدواليب من كل ما كان خلف ضلفها المفتوحة على اتساعها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، لم يكد خطيبها يبرأ مما كان قد ألم بساقه بعد أن نزع عنها الجبس، ولدى أول زيارة له لبيتها بعد ليلة الخطبة حتى كاد أن يموت حرقا. أراد قتله «الجنى»، الحبيب المهجور.

فما أن أخذ يهدئ من سرعة سيارته في تلك الليلة ؛ ليتخير مكانا يركنها فيه أمام منزل خطيبته التي أخذت تلوح له من شرفة شقتها مرحبة به ، حتى اندلعت النار فجأة في موتور السيارة التي أسرع بإيقافها في الحال ، بينما أخذت النار تمتد إلى خارجها وهو يحاول جاهدا مغادرتها دون جدوى ، وكأنما هناك من قام بإحكام غلق الباب المجاور لمقعده .

وهرع إليه كل من كانوا بالشارع التجاري المزدحم ، بعضهم يحاول إطفاء النار المشتعلة التي لم تزدها محاولاتهم إلا اشتعالا ، على حين أخذ البعض الآخر في محاولات مستميتة فاشلة فتح باب السيارة لإخراجه منها ، حيث أوشكت النيران على الوصول إليه وقد انخرط في نوبة متصلة من السعال الشديد من أثر الدخان الذي ملأ المكان ، والذي بدأ في مهاجمة رئتيه ، مما أدى إلى اختناقه وفقدانه لوعيه .

وشرع الجميع وقد يئسوا من إخماد النيران المتأججة ، وفشلوا في فتح باب السيارة ، في جذب جسده من نافذة السيارة بعد أن حطموا زجاجها الذي تناثرت شظاياه على أرضية الشارع وداخل السيارة ، والتي استقر بعضها في وجهه وذراعيه وصدره ، واستماتوا في جذب جسده المسجى إلى الخارج مبتعدين به بسرعة إلى الرصيف الآخر ، بينما امتدت النيران إلى باقي أجزاء السيارة في سرعة خاطفة . إلى أن وصلت إلى خزان البنزين الذي انفجر لتوه في صوت مدو اندفعت على أثره ألسنة اللهب التي أتت على باقي السيارة وأكلتها عن آخرها حتى تفحمت تماما .

وأدركت العروس الشابة وهي تجلس إلى جوار خطيبها في سيارة الإسعاف وهم في طريقهم إلى المستشفى أن حرب «الجني» ، حبيبها المهجور لن تنتهي ، وأن انتقامه قد أصبح أشد عنفا وأكثر ضراوة .

ولم تجد مفرا من مصارحة والديها وخطيبها بحقيقة الأمر بعد أن استفحل الأمر ، ورفضوا جميعا في البداية تصديق ما صارحتهم به ، ولكن سرعان ما تراجعت شكوكهم أمام الظواهر غير الطبيعية والمنافية للعقل والمنطق خاصة مع تكرار حدوث تلك الأصوات المدوية التي كانت تصدر من المطبخ ، وما كان يصاحبها من فوضى هائلة ، وكأن ثورا هائجا قد اقتحمه وقلبه رأسا على عقب .

ووقف خطيبها إلى جانبها ، وازداد تمسكا بها ، وشاركها وأمها رحلاتهم الطويلة الفاشلة بين الدجالين والمشعوذين والمدعين ، حتى قادتها قدماها إلى الجمعية الروحية بعد

ما يزيد على العامين اللذين امتلأا بكل أنواع الشقاء والمعاناة من انتقام الجنى الذى انقلب عليها .

وحاول المعالجون فى الجمعية طرد ذلك «الجنى» الذى حول حياتها جحيما ، وباءت كل محاولاتهم بالفشل . ولم يبق أمامهم إلا الاستعانة بـ «الحاجة صفصف» ، وذهبت إليها فى شبرا .

وطلبت منها «الحاجة صفصف» بعد أن دارت بيديها فى الهواء حول جسدها دون أن تلمسها أن تعود فى تلك الليلة للنوم فى حجرتها ، ومع شقيقتها فى فراش واحد .

وحدثت المعجزة فى نفس الليلة .

واختفى «الجنى» من حياتها وإلى الأبد .

* * *

كانت قد أوت إلى فراشها فى تلك الليلة فى ساعة متأخرة من النوم ، وفى رفقتها شقيقتها التى كانت تجهل تماما قصتها مع «الجنى» ، والتى أخذت تتأوه وتتوجع من آلام المغص الكلوى الذى كان يهاجمها من وقت إلى آخر .

وكانت صاحبة قصتنا الشابة قد أقنعت شقيقتها بالانتقال معها إلى حجرتها بدعوى أنها أكثر دفئا من الحجرة الأخرى .

وأخذت تتقلب على جنبيها وقد أدركها التوتر والقلق ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى منذ ما يزيد على السنتين التى تنام فيها فى حجرتها ، حيث كانت والدتها قد وضعت لها بعد إلحاح سريرا آخر صغيرا فى حجرة أختها ، وكانت قد قامت بإخلاء حجرتها من معظم متعلقاتها ، وأصبحت تتحاشى دخولها ليلا أو نهارا إلا فى حالات الضرورة القصوى ، حيث تتسارع دقات قلبها وهى تختطف فى عجلة ما جاءت من أجله ؛ لتندفع بعدها فى رعب وهلع خارج الغرفة وكأنما شيطان يطاردها .

وحاولت وقد أغمضت عينيها خوفا ورعبا مما قد يبرز لها من ثنايا الظلمة التى تلف الحجرة أن تستمد من وجود شقيقتها بجوارها الاطمئنان والقوة ، فلن يجرؤ ذلك «الجنى» على الظهور لها بينما تتمدد شقيقتها بجوارها على الفراش ، كما أن ثقتها فى «الحاجة صفصف» وما أشيع عن قدراتها الروحية ؛ بعثت فى نفسها الأمل فى أن يتوقف «الجنى» ذلك الحبيب المهجور عن التعرض لها .

ولم تدر ما إذا كانت قد راحت في إغفاءة أم لا ، إذ خيل إليها فجأة أنها ترى «الحاجة صفصف» وهي تتقدم إلى فراشها ، وقد التف حولها أربعة أشخاص يتشحون جميعا بالملابس البيضاء وقد اختفت ملامحهم في عتمة الغرفة ، وأنهم تناوبوا جميعا تمرير أياديهم في الهواء حول جسدها المستلقي على الفراش .

واختفى الزائرون الغامضون فجأة كما جاءوا فجأة ، وتنبهت إلى أنها لم تكن في إغفاءة حقيقية ، عندما وجدت أختها تهزها بشدة ، وتسألها في خوف وهلع عن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا بالحجرة منذ لحظات ، حيث لم تستطع الاستغراق في النوم من شدة الألم ، والذين قاموا بتمرير أياديهم في الهواء حول جسدها أيضا ، وأن آلام الكلى قد اختفت وتلاشت تماما .

ومنذ تلك الليلة ذهب «الجنى» ولم يعد .

* * *

وقبل أن أترك جانبا هذه القصة التي سمعتها من فم صاحبتها ، فإنني أود أن أشير إلى أن بعض التفاصيل التي كتبتها هنا كانت بناء على الأسئلة والاستفسارات التي كنت أقاطع بها بين الحين والآخر محدثتي في أثناء سردها لقصتها ، حيث كنت أتوقف أحيانا أمام بعض النقاط التي كانت صاحبة القصة تحاول أن تتجاوزها بسرعة ؛ ظنا منها بعدم أهميتها من جانب ، أو خجلها منها من جانب آخر .

وبغض النظر عن جوانب الصدق أو عدمه في هذه القصة ، استنادا إلى ما يذهب إليه علماء النفس ، من أن تلك العلاقة التي يدعيها البعض عن وجود علاقات زواجية بين الإنس والجن ، لا تعدو كونها ضربا من ازدواج الشخصية . والهلاوس والوساوس القهرية أو الصرع ، وذلك فيما يختص بعلاقة هذه الشابة مع هذا «الجنى» حيث تناولت بالحديث والتحليل مثل هذه الظواهر مع أحد كبار الأطباء النفسيين ، الذي قال إنه قد نجح مع بعض المريضات في علاجهن من تلك الظاهرة باعتبارها ضربا من الهلاوس عن طريق أدوية الصرع . . . على حين رفض البعض منهن الخضوع لذلك العلاج بدعوى تمتعهن بتلك العلاقة الغريبة سواء كانت حقيقية أو كانت ضربا من الهلاوس ، في الوقت الذي فشل فيه تماما رغم استخدام كافة أنواع الأدوية في القضاء على هذه الظاهرة لدى البعض الآخر .

وإذا كان الطب النفسي قد تشكلت لديه بعض النظريات أو التجارب العلاجية التي تنفي وجود هذه الظاهرة التي تتصل بالزواج أو المعاشرة بين «**الإنس والجن**» . . . فإن العلم ما زال يحبو فيما يختص بتبرير وتفسير بعض الظواهر الخارقة والقوى الغيبية والتي تبتعد تماما عن إمكانية تناولها من منظور قوانين الصدفة والاحتمالات .

ولذلك ذهبت إليها في شبرا . ذهبت إلى «**الحاجة صفصف**» . أراكم تتساءلون . هل نجحت «**الحاجة صفصف**» فيما فشل فيه الآخرون؟ هل استطاعت أن تطرد ذلك الجني الذي يعربد في رأسي؟

إليكم قصتي معها .

مع الحاجة «صفصف»
أشهر معالجة روحية في مصر

بدأ اسم «الحاجة صفصف» يتردد أمامي بكثرة مع بداية ترددي على الجمعية، بوصفها أقوى وأشهر المعالجين الروحيين في مصر، ولعلكم تتساءلون عن السبب الذي تخليت من أجله عن حذري فيما يختص بكتابة أسماء من قمت بالتردد عليهم خلال بحثي عن الشفاء سواء كانوا من الدجالين أو الأدعياء أو الصالحين أصحاب النفحة الإلهية.

الأمر بسيط . . .

أولاً: فقد انتقلت «الحاجة صفصف» إلى رحمة الله منذ سنوات قليلة.

ثانيًا: أن «الحاجة صفصف» كانت علمًا من أعلام العلاج الروحاني، حيث تناولتها كظاهرة فريدة العديد من التحقيقات الصحفية، بل واستضافتها بعض البرامج التليفزيونية.

ثالثًا: كانت «الحاجة صفصف» وعلى مدار سنوات عمرها مقصداً لوجهاء وكبراء الدولة وأثريائها ومثقفيها، بل وبعض من كانوا على قمتها.

كنت قد سمعت عنها منذ عدة سنوات، وأخذتني قدماي بعيداً عن بابها طوال هذه السنين، إلى أن قادتني إليها عندما علمت أن أحد أعضاء الجمعية يعمل مساعداً لها في جلسات العلاج، والذي يشجعني على الذهاب إليها بعد أن فشل هو شخصيّاً في علاجي.

وأخذت منه موعداً، واتفقت أن أقابله في منزلها بشبرا حيث تقيم، وأنه سوف يترك اسمي لدى من يقفون بالباب حتى يسمحوا لي بالدخول.

وذهبت وكأنني أطير.

حملتني آمال الشفاء على جناحيها.

* * *

كان بيتها عبارة عن فيلا من طابقين، وتقع فى أحد الشوارع المتفرعة من شارع خلوصى بشبرا.

وظننت أننى سوف أتخبط كثيرًا قبل أن أتعرف على عنوانها، ولكن ما أن دلفت إلى ذلك الشارع الجانبى حتى شعرت كأننى فى أحد الموالد حيث رأيت أعدادًا كبيرة من الرجال والنساء والأطفال، وقد افترش بعضهم أرض الرصيف، على حين تحلق الآخرون حول رجل كان يتناول من أيديهم بعض الخطابات المغلقة أو قصاصات الورق.

وعلمت أن «الحاجة صفصف» أصبحت تقوم بالعلاج عن بعد، بعد أن ازداد الإقبال عليها، ولم يعد لديها القدرة على مقابلة كل أصحاب الحاجات والمرضى، وأن على من يرغب فى الحصول على مساعدتها أن يكتب اسمه وعنوانه ومشكلته تفصيليًا ويرسله لها فى خطاب، أو يقوم بتسليمه إلى أحد معاونيها.

وشققت طريقى بين الجموع المحتشدة التى تداخلت وتعالت أصواتهم، وتدافعوا بالمناكب لتوجيه أسئلتهم أو تسليم خطاباتهم إلى ذلك الرجل الذى راحت محاولاته لتهدئتهم وتنظيمهم أدراج الرياح.

وتوجهت إلى الباب الحديدى الذى يفضى إلى حديقة صغيرة ذات سلم عريض ينتهى إلى شرفة واسعة صفت على جوانبها عدد من المقاعد التى امتلأت عن آخرها، وفى جانب منها تم وضع مكتب جلس خلفه أحد المساعدين، الذى قام من مكانه ليقودنى إلى باب كبير فى آخر الشرفة يفضى إلى القاعة المخصصة لجلسات العلاج بعد أن أخبرته باسمى، حيث قابلتنى بالباب سيدة مسنة تميل إلى الامتلاء وإن تميزت بخفة الحركة والنشاط، والتى لازمتنى حتى جلست على المقعد الذى أشارت إليه.

ودرت بعينى فى المكان المريح الدافئ الذى اصطف فيه على شكل الدائرة عدد من المقاعد الوثيرة، وبدت القاعة مريحة للعين من حيث تجانس ألوان أغطية المقاعد والستائر مع السجادة العملاقة التى كادت أن تغطى أرضية القاعة الرحبة الواسعة ذات السقف المرتفع والنوافذ العالية المغطاة بالستائر، والحوائط التى ازدانت بمجموعة من اللوحات الجميلة.

كانت القاعة تدل على عز وثراء قديمين، وقد غمرها ضوء أحمر خافت انبعث من «أباجورة» ثمينة وضعت على منضدة صغيرة في أحد الأركان، بينما تعالى من جنباتها صوت موسيقي لآلة الأورغون أقرب ما تكون إلى الموسيقى الكنائسية، وقد أخذت تنبعث من جهاز تسجيل قد تم وضعه على إحدى الموائد الجانبية والذى كانت تتولى مهمة التحكم فى صوته، وقلب الشريط بمجرد انتهائه تلك السيدة الممتلئة التى قادتنى إلى مقعدى.

وجلست أتصفح وجوه الموجودين رجالا ونساءً فى ثيابهم الأنيقة، وجلستهم المرسومة الرشيقة، وكأنما أنا فى حفل خاص فى أحد البيوتات الثرية العريقة، حيث امتلأت القاعة بنحو ثلاثين شخصًا لم يبد لى بينهم سوى ثلاثة أو أربعة أشخاص ممن ينتمون إلى الطبقة الدنيا أو الشعبية.

وعلمت من سيدة أنيقة جميلة كانت تجلس بجانبى أن معظم الجالسين إما من بين المقربين «للحاجة صفصف» شخصيًا، وإما ممن أتوا إليها بناء على توصيات أقاربها وأصدقائها، أو بعض الشخصيات البارزة والهامة فى المجتمع، حيث لم تعد تفتح بيتها لمثل هذه الجلسات إلا لمجموعة من الصفوة المختارة.

ودخلت علينا «الحاجة صفصف» أخيرًا وبصحبتها زميلى عضو الجمعية الروحية بعد أذان العشاء بنحو عشر دقائق، امرأة نحيلة رقيقة فى السبعينات من عمرها، ذات وجه ملائكى نورانى بشوش، وشعر قصير أبيض فى لون الثلج، واتجهت فى خطوات بطيئة إلى أقصى القاعة، حيث أسرعت السيدة الممتلئة بوضع مقعدين أمامها وأمام زميلها.

وظننت أن «الحاجة صفصف» ورفيقها سوف يجلسان على هذين المقعدين، ولكنهما لم يجلسا عليهما، بل ظلا واقفين خلفهما، بينما ارتفع صوت «الحاجة صفصف» الناعم الهادئ وهى تلقى على الموجودين تحية المساء، وناشدت الموجودين الهدوء ومراعاة أن تلك الجلسة جلسة روحية لابد وأن يكون لها احترامها وقدسيتها. وأنهما سوف يبدآن العلاج على التوالى واحداً بعد الآخر وفقًا لأماكن جلوس الحاضرين. وأن على صاحب الحاجة أن يتوقع الشفاء أو عدمه وفقًا للمشيئة الإلهية، وأنها تقوم بعد الانتهاء من علاج آخر مريض من بين الحاضرين بالاختلاء فى حجرتها والاستغراق فى الصلاة والعبادة، وأن الأرواح المرافقة لها ـ تقوم فى هذه الأثناء بمصاحبة روحها بزيارة المرضى فى منازلهم لاستكمال علاجهم فى أثناء نومهم، وأن قليلاً من هؤلاء المرضى يرون تلك الأرواح حول أسرتهم، وكأنما هى شبه رؤيا أو حلم غامض غير مكتمل التفاصيل.

وأسرعت السيدة الممتلئة إلى جهاز التسجيل وأدارته مرة أخرى، على حين أشارت **«الحاجة صفصف»** إلى أول شخصين يجلسان عن يمينها ليأخذا مكانهما في المقعدين اللذين أمامها وأمام زميلها.

وساد القاعة صمت مطبق واتسعت عيناى وأذناى عن آخرهما وأنا أراقب **«الحاجة صفصف»** وقد أغمضت عينيها في استغراق، وقد وضعت كفيها خلف رأس الرجل الذى جلس أمامها على المقعد في مواجهتنا دون أن تلمس رأسه، بعد أن تلاشى صوته الخفيض الذى جاءنا عبر القاعة الساكنة وهو يشرح لها آلام ظهره التى استعصى علاجها على الأطباء، وبدأ كفا **«الحاجة صفصف»** ينزلان تدريجيًا خلف رأسه حتى كادا أن يحيطا بكتفيه ثم ظهره، بينما كان رفيقها يقوم بنفس الطقوس مع المريض الذى جلس أمامه وقد أطبق عينيه بدوره.

وما هى إلا أربع أو خمس دقائق حتى فتحت **«الحاجة صفصف»** عينيها وكأنما قد عادت من رحلة بعيدة، وهى تطلب من مريضها مغادرة المقعد متمنية له الشفاء في الوقت الذى أشارت فيه إلى المرأة التى حل عليها الدور في العلاج للجلوس مكانه.

وتناوب الحاضرون الجلوس أمام **«الحاجة صفصف»** وزميلها حتى حل دورى، حيث مررت بنفس الطقوس التى مر بها الآخرون، وحيث عدت إلى مكانى مرة أخرى انتظارًا لانتهاء **«الحاجة صفصف»** وزميلها من آخر الحالات، لاصطحاب الأخير في سيارتى لتوصيله إلى منشية البكرى وأنا في طريقى إلى منزلى في مصر الجديدة كما اتفقنا من قبل.

❊ ❊ ❊

ما كدت آخذ مكانى أمام مقعد القيادة حتى انهالت أسئلتى حول **«الحاجة صفصف»** وحول المترددين عليها، وحول طريقة علاجها، وأخذ زميلى يقص على قصتها وقصة شقيقتها التى تبين لى أنها تلك السيدة المليئة التى كانت تقوم بتنظيم الجلسة.

كان والد **«الحاجة صفصف»** من كبار القضاة عندما بدأ يلاحظ أن ابنته صفصف التى لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها تتمتع بدرجة عالية من الشفافية والارتقاء الروحى، وأنها لا تشارك من هم في مثل عمرها لعبهم ولهوهم واهتماماتهم الطفولية.

ثم بدأ يلاحظ بعد ذلك عندما كان يتصادف وجودها بجوار أحد المرضى من أفراد الأسرة أنهم كانوا يتخلصون من آلامهم وأمراضهم في كثير من الحالات بمجرد لمسها لهم بل وأحيانًا بمجرد جلوسها بجوارهم.

وشاعت قدرات الصبية الصغيرة بين الأقارب والجيران بل وفى الأحياء المجاورة؛ فأصبحت مقصد المرضى على اختلاف أنواعهم.

ويبدأ والد «الحاجة صفصف» فى تكريس كل الجهود لإعداد ابنته دينيّا وروحيّا، مستعينًا فى ذلك بالإضافة إلى نفسه شخصيًا بمجموعة من الشيوخ والمتصوفة والروحانيين.

واستمرت كرامات «الحاجة صفصف» التى عزفت عن الزواج، ووهبت حياتها لعلاج المرضى، وطرد الجن من أجساد المعذبين وإبطال جميع أنواع الحسد والسحر. بعد أن أصبحت على درجة عالية من السمو والشفافية الروحية التى يسرت لها بلوغ مرحلة الجلاء السمعى بل والبصرى، والتعامل مع الأرواح الخيرة والاستعانة بهم.

وفضلت «الحاجة صفصف» أن يمضى بها قطار العمر فى صورة أقرب إلى حياة الرهبنة، تساعدها فى ذلك شقيقتها التى لم تتزوج هى الأخرى، حيث قررتا الإقامة بالدور العلوى للفيلا التى يمتلكانها، وتخصيص الدور الأول منها لاستقبال أصحاب الحاجة وعقد جلسات العلاج.

وظلت «الحاجة صفصف» على مدار عشرات السنوات تكرس كل وقتها وطاقتها لخدمة كل من يقصدها، إلى أن أصبحت مع تقدمها فى السن غير قادرة على الاستمرار فى نفس النهج الذى كانت تسير عليه خاصة وأن بلوغ مرحلة الكمال الروحى كانت تتطلب منها الاستغراق الشديد فى العبادات والصلوات لساعات طويلة، إلى جانب ضرورة تطهير الجسد بالصوم والامتناع عن الأكل تمامًا تمهيداً لجلساتها الروحية للعلاج، مما حدا بها فى النهاية إلى استخدام طريقة العلاج الروحى عن بعد، والاكتفاء بجلسات العلاج التى قامت بتحديد يومين محددين لها من كل أسبوع.

وعلمت من مرافقى أن «الحاجة صفصف» فى بعض جلساتها تستعين ببعض الوسائل المادية الملموسة، التى تزودها بها الأرواح لعلاج بعض الحالات، كأن تجد فجأة فى يدها معلقة مليئة بالدواء الذى تجرعه لمريضها، أو أن تجد فى يدها حقنة تقوم بغرسها فى جسد المريض وكأنما هناك قوة خفية تقوم بتحريك يدها تلقائيًا.

وعندما توقفت عند هذه النقطة لمناقشتها نظراً لعدم اقتناعى بها علميًا، أخذ رفيقى يقسم أقسامًا مغلظة أنه قد مر شخصيًا بمثل هذه المواقف أكثر من مرة حتى فى بعض الأماكن والأوقات غير المخصصة للعلاج الروحى، حيث أخذ يروى ما حدث فى إحدى

المرات عندما كان بمكتبه فى مبنى التليفزيون، وعندما أقبلت عليه الراحلة الفنانة زوزو نبيل وقد انحنى ظهرها من شدة الألم الذى كان يعصف بعمودها الفقرى. حيث وجد نفسه يتحرك واقفًا خلفها وهو يطلب منها عدم الحركة، وإذا به وقد أمسك من حيث لا يدرى بحقنة قام بغرسها فى ظهرها من فوق ملابسها، وإذا بها تصرخ ألما وهى تعتدل بقامتها وتلتفت إليه وهى تتساءل فى دهشة عن مصدر تلك الحقنة التى شعرت بها وهى تخترق عظامها معلنة انتهاء آلامها تمامًا، ومدى ما تشعر به من راحة بعد تلك الوخزة الشديدة، ونظر رفيقى فى دهشة إلى الحقنة الفارغة فى يده، وهو يقسم لها أنه لا يعلم أى شىء عنها، وأنه لم يسبق له فى حياته أن قام بتجربة إعطاء الحقن لأى كائن من كان.

وعلمت من خلال مناقشاتى فيما تلى ذلك من أيام مع المعالجين الروحانيين أن الوسطاء الروحانيين فى جلسات العلاج فى مختلف أنحاء العالم وكذلك فى مصر، يقومون فى بعض الأحيان بعلاج المرضى بالعديد من أنواع الأدوية والحقن التى تصل إلى أيديهم من خلال الأرواح اللامرئية القادمة من العالم المجهول.

❊ ❊ ❊

وآويت إلى فراشى فى تلك الليلة وقد أوشك الفجر على البلوج بينما لفنى شعور غامض من الخوف والتوتر، وأنا أترقب مجيء زوار الليل من الأرواح والأشباح. وفشلت لعدة مرات فى إبقاء عينى مغمضتين، حيث كان يخيل إلىّ كلما أغمضتهما أن هناك أصواتًا خافتة يتردد صداها فى فراغ الحجرة، وما أن أفتح فى ترقب ووجل عينى لأختلس نظرة سريعة إلى الفضاء المحيط حتى تتلاشى تلك الأصوات، وتصافحها المعالم الباهتة للحجرة الخالية من أى أرواح أو أشباح والتى تتضح بعض تفاصيلها من خلال ذلك الضوء الهزيل الذى يتسلل إليها من خصاص النافذة.

وكان النوم أرحم بى من أرواح وأشباح «الحاجة صفصف» عندما أغرقنى بنعومة ودون أن أدرى فى أحضانه، لأصحو على صوت مدوى فجأة فى فزع وخوف شديدين طرحا بى من أعلى فراشى وتركانى مكومة على الأرض، حيث اعتدلت بسرعة وفى حركة بهلوانية، لأجلس متربعة على الأرض بينما كانت ضحكاتى الهستيرية تدوى فى فراغ الغرفة عندما أدركت كنه ذلك الصوت.

لم يكن ذلك الصوت المدوى قادمًا من أرواح «**الحاجة صفصف**» وأشباحها كما اعتقدت، بل كان صوت المنبه الذى كان يرقد بسلام بجوار سريرى على «**الكمودينو**»

❊ ❊ ❊

وهكذا خذلتنى أرواح «الحاجة صفصف». خذلتنى كما خذلنى الطب والأطباء. ولم أعد مرة أخرى إلى أعتابها. ولكنى عدت لأرتمى على أعتاب أخرى جديدة.

من...؟

كيف...؟

أين...؟

هاكم حكاية أخرى.

بركات قسيس الكنيسة المعلقة

من . . . ؟

قسيس اسمه أبونا (ف) .

أين . . . ؟

كنيسة «مار جرجس» .

كيف . . . ؟

هذه هي الحكاية .

***

كان القطار يطوى المسافة من محطة سراى القبة متوجهًا إلى حلوان فى صباح ذلك اليوم البارد من شتاء ١٩٩٠ ، وقد أخذت المشاهد تتسارع وتتسابق وتطوى أمام عينى التائهتين من خلال زجاج النافذة المغلق ، بينما كنت أسند رأسى الثقيل الذى يضج بمعزوفة الألم فى إعياء وتخاذل شديدين إلى زجاج النافذة .

وكان علىّ أن أغادر القطار فى محطة «مار جرجس» ، لألتقى بأحد أصدقاء العائلة المسيحيين من سكان حلوان ، والذى كان يربط بين عائلته وعائلتى علاقة جيرة وصداقة دامت لعشرات السنين ، وذلك للتبرك بأحد قساوسة الكنيسة المعلقة .

وإن نسيت فلن أنسى ذلك اليوم وكأنه كان بالأمس ، فقد كنت فى ذلك الوقت أجرب «صنفًا» جديداً من الأدوية ، وكأنما أجرب صنفًا جديداً من أصناف البقالة التى تباع فى السوبر ماركت ، حيث أصر الطبيب الذى كان يعالجنى على تعاطيه لمدة ثلاثة أشهر كاملة رغم عدم جدواه مطلقًا فى تخفيف حدة الصراع الذى كان يعصف برأسى ، ورغم شكواى الدائمة من تلك الحالة من عدم الاتزان وتغييب الوعى التى كنت أصاب بها .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى أجرب فيها أمثال هذا الدواء ، ولكنها كانت المرة الأولى التى «أكابر» فيها وأغادر منزلى وكأننى مثل «مخاليق الله» ، بل وأقود سيارتى فى

الشوارع المزدحمة المكتظة بالمارة، رغم ذلك الغلاف السميك الذى كان يغلف وعيى، ورغم اهتزاز المرئيات أمام عينى.

ولم «أكابر» فى ذلك اليوم طويلا فما هى إلا ناصيتين أو ثلاث، حتى أدركت أننى لا أقود سيارة، وإنما أقود سلاحًا قاتلاً قد يطوى تحت عجلاته جسدًا آدميا، أو يعانق فى حميمية سيارة أخرى فى الطريق.

وركنت سيارتى على الفور وغادرتها، ثم أشرت إلى إحدى سيارات الأجرة وأنا أستجمع قواى لأخفى تلك المرأة التى لا تكاد ترى ما أمامها والتى تهتز «وتتطوح» داخلى كالمخمورة، وطلبت من السائق التوجه إلى محطة مترو الأنفاق بسراى القبة. وغادرت السيارة إلى داخل المحطة لأستقل للمرة الأولى فى حياتى ذلك القطار الذى أصبح يصل ما بين المرج وحلوان.

ولست أدرى كيف شققت طريقى فى ذلك اليوم إلى شباك التذاكر، وكم استغرقنى من الوقت وأنا أبحث عن اللوحة المضيئة التى تعلن عن المحطات التى سيتوقف عندها القطار القادم كما كان هو الحال عندما كنت أستقل القطار أيام كنت أسكن بحلوان، ولا ما إذا كان الركاب ينظرون إلىّ فى سخرية واستغراب وكأننى أصبحت «فرجة»، أم أنهم لا يشعرون حتى بوجودى، وقد طوح الخدر رأسى الذى أسندته إلى النافذة وأنا أقرب إلى السكرى أو المغيبة، ولا كيف كان يعمل وعيى الذاهل عندما أدركت أن المحطة التالية هى محطتى المقصودة عندما أخذ القطار يهدئ من سرعته، ولا ماذا قلت أو قال لى صديق العائلة وهو يستقبلنى على رصيف المحطة.

وعبرت الشارع معه كالتائهة أو المنقادة ونحن نتجه إلى تلك الكنيسة الأثرية بمبانيها الضخمة التى التحمت مع الكنيسة المعلقة، بينما غرقت فى بحر من التهيؤات وأحلام اليقظة، حيث تخيلت أننى سأغادر الكنيسة بعد قليل وقد خلقت خلقًا جديدًا، وعدت كما كنت قبل ما يقرب من العشر سنوات، وحيث انتابنى ما يشبه الإيمان المطلق بأن الله سبحانه وتعالى بواسع رحمته وعلمه، سيرسل روح السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام صاحب المعجزات؛ لتحل فى جسد الأب (ف.) ذلك القس الذى جئت من أجله، والذى طالما سمعت عن قدراته وبركاته؛ لينتشلنى من تلك الآلام التى تعربد فى رأسى، ومن سموم تلك الأدوية التى تعصف باتزانى ووعيى.

ورغم أننى كنت قد سمعت الكثير عن كرامات ذلك القس، إلا أن ما قيل لى من أن

الزحام الشديد للمترددين عليه قد يمنعنى من مقابلته إلا بعد عدة أيام؛ جعلنى أحجم عن خوض تلك التجربة .

ولكن حدث أن اتصل بى صديق العائلة الذى أشرت إليه عندما علم من أمى أننى أمر بواحدة من تلك المراحل المرضية الصعبة التى أصبحت جزءًا من حياتى ، والتى كانت تلقى بى إلى الفراش أحيانًا لعدة أسابيع ، وطلب منى خوض تلك التجربة التى لن تضر إن لم تنفع .

وأمام عجزى عن قهر ذلك الجنى الذى يعربد فى رأسى ، وأمام عجز الطب والأطباء عن الأخذ بيدى ، وأمام رغبتى الملحة الجامحة فى الحصول على الشفاء وجدتنى أنصاع له فى تهلل واندفاع ، وكأنما أنا غريق طال صراعه مع الأمواج العاتية ، والذى ما أن كادت تخور قواه حتى برزت له من طيات الأمواج الهادرة مجرد قشة صغيرة بعثت فيه الأمل بالنجاة .

وهكذا استجمعت قواى الخائرة ، وجرجرت جسدى المنهك ووعيى المغيب بسموم الأدوية وآلام الصداع ، وذهبت إليه .

* * *

كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها هذه الكنيسة عن قرب فطالما شاهدتها من نافذة القطار وأنا فى طريقى من حلوان إلى القاهرة أو بالعكس قبل زواجى ، ولكن الظروف لم تيسر لى فرصة زيارتها أو التعرف على معالمها .

وأخذنى صديق العائلة فى جولة سريعة مبتورة داخلها ، فقد كنت فى لهفة لمقابلة الأب (ف) ، بنفس القدر الذى كنت أتلهف به للعودة إلى بيتى وحجرتى وفراشى؛ كى يأخذنى النوم فى أحضانه .

وما أن خرجنا من باب الكنيسة ، حتى توجه بى مرافقى يمينًا إلى ممر حجرى ضيق ، يحده من الجانبين سوران حجريان شاهقان يخفيان ما وراءهما ، وما إن انحرف بنا ذلك الممر إلى جهة اليسار حتى رأيت بابا خشبيًا منخفضًا أفضى بنا بعد أن اجتزناه إلى فناء داخلى ذى أرضية حجرية ، وقد غص بأعداد غفيرة من الناس على اختلاف مستوياتهم من الرجال والنساء والأطفال ، حيث اصطفوا فيما يشبه الطابور انتظاراً لمقابلة الأب (ف) الذى كان يقوم باستقبال مريديه فى تلك الحجرة الوحيدة التى كانت تقع فى منتصف الفناء .

وتقدم مرافقي من باب تلك الحجرة التي كان بابها منفرجًا، وانحنى على أذن رجل مسن كان يسد الفراغ الباقي من الباب بجسده، وهمس شيئا في أذنه؛ قام على إثره الرجل بالنظر إلى في سماحة في نفس الوقت الذي خرجت فيه من الحجرة سيدة شابة تحمل طفلا على ذراعها، حيث أعقب تلك النظرة بإشارة من يده مؤذنًا لي بولوج الحجرة.

كانت الحجرة تتميز بضيقها الشديد وبسقفها المنخفض، وبتلك الطاقة الصغيرة المرتفعة التي تسلل من خلال زجاجها المعشق الملون ذلك الضوء الشبيه بألوان الطيف، والذي ألقى ظلاله على قامة ذلك القس العجوز بملابسه السوداء ولحيته الكثيفة التي غزاها الشيب، ووجهه الوقور الذي تنقل لك ملامحه حالة تلقائية من الشعور بالسلام وابتسامته الهادئة الرزينة.

كان يقف في منتصف الحجرة تقريبًا، حيث كانت تفصلني عنه منضدة صغيرة منخفضة من الخشب، بينما كان يقف وراءه مساعده الشاب الذي كان في نحو الثلاثين من عمره.

وشرحت للقس العجوز بإيجاز أوجه معاناتي، وارتسمت في عينيه نظرة تفهم وتعاطف، بينما اتسعت ابتسامته الهادئة وهو يتناول من يد مساعده زجاجة الزيت المقدس ليأخذ نقطة منه على إصبعه، الذي رفعه ليمس به جبهتي، وما أن مد يده بالزجاجة ليعيدها إلى مساعده حتى تناول بسرعة خاطفة كوبًا مليئًا بالماء كان موضوعًا أمامه، وما كدت أتابع يده وهي ترفع الكوب إلى شفتيه حيث تناول منها رشفة واحدة كبيرة ووجدته يميل عليّ فجأة رغم المنضدة التي تفصلنا وهو يطلق من فمه رذاذا من الماء الذي ملأ به فمه، ليغطي وجهي ويتخلل شعري ويتناثر على ثوبي.

وأخذتني المفاجأة التي جعلتني أتراجع إلى الوراء في فزع، بينما أسرعت أزيل بأصابعي قطرات الماء التي سالت على وجهي واستقرت على عيني وأهدابي، في الوقت الذي تناهي إلى سمعي ولأول مرة صوت الأب (ف) الرتيب الشبيه بالتراتيل، وهو يدعو لي بالشفاء بعد أن حييته مودعة.

والتفت إلى مرافقي فور أن غادرنا الحجرة الصغيرة، وهو يتساءل في تفاؤل عما إذا كانت حدة الصداع قد خفت قليلا، حيث أجبته بالنفي، وأنا ما زلت غارقة في ذهولي، لذلك «الدش» الذي أخذته للتو بملابسي، والذي لم يكن في الحسبان، بينما اخترت بقعة مشمسة في الفناء الحجري، وقفت فيها لعدة دقائق، وأنا أجفف وجهي ورقبتي.

ويبدو أن ذلك «الحمام» الذى أخذته على يد الأب (ف) كان له فعل السحر فى إيقاظ وعيى وتنبيهى إلى ما يدور خارج حجرته، وإلى طبيعة ذلك الجمع الذى احتشد فى ذلك الفناء، فقد أدركت من خلال بعض العبارات التى تناهت إلى سمعى أن معظمهم قد قدموا من بعض المدن والقرى البعيدة سواء من الدلتا أو الصعيد، بل وأدركت أن البعض منهم لم يأت بصورة فردية، وإنما جاءوا فى مجموعات، حيث لفت نظرى مجموعة مكونة من نحو عشرة أفراد من المسلمين والمسيحيين قد أتوا جميعا من مدينة الإسكندرية فى «ميكروباص» واحد، وكان من بينهم شاب فى مقتبل العمر حبسه مرض الشلل فى مقعده المتحرك، وكذلك طفل فى نحو العاشرة يعانى من التخلف العقلى الشديد والذى بدا واضحًا من تكوين رأسه وملامحه واهتزازات جسده المتشنج الصغير . . . وقد سال اللعاب من جوانب فمه.

وأدركت أن مشكلاتهم ومعاناتهم على اختلاف أنماطها قد صهرتهم جميعا فى بوتقة واحدة وهدف واحد، رغم اختلاف دياناتهم ومشاربهم، حيث أخذ البعض فى سرد ما سمعوه عن كرامات القس العجوز، وكأنها حقائق مؤكدة عايشوها بأنفسهم.

وعلمت أن هناك من ينظم الرحلات للقادمين من خارج القاهرة ممن قهرهم المرض والعجز عن مواجهة وحل مشكلاتهم، وكأنهم مجموعة من الحجيج، يستوى فى ذلك الوجهاء والبسطاء، المسلمون والمسيحيون، حملة الدكتوراه من المساكين أمثالى والذين لا يعرفون الألف من «كوز الذرة» وكيف أنهم تسلحوا جميعا بسلاح الإيمان بالغيبيات والمعجزات، لمواجهة ذلك العجز والقهر الذى يمارس سطوتـه على مقدراتهم وحياتهم وصحتهم.

وأصر مرافقى، صديق العائلة فى ذلك اليوم على أن يقلنى بسيارته حتى منزلى فى مصر الجديدة بعد أن فشلت فى ارتداء قناع المرأة الخارقة، وعندما لاحظ مدى ما أعانيه من تعب وإرهاق وعدم اتزان، حيث اتصلت بزوج ابنتى تليفونيا وطلبت منه إحضار سيارتى من المكان الذى تركتها فيه فى الصباح.

وآويت فوراً دون أن أستبدل ملابسى إلى الفراش، رغم أن الساعة لم تكن قد جاوزت الثانية عشرة ظهراً إلا بقليل، حيث كان النوم أرحم من الماء والزيت المقدس الذى باركنى به الأب (ف)، وحيث أخذت «مزيكة حسب الله» التى تدوى فى رأسى فى الخفوت تدريجيا إلى أن سرقنى النوم منها تمامًا.

واستيقظت من النوم بعد ما يقرب من الثلاث ساعات . واستيقظ معى الجن الذى يسكن فى رأسى بمجرد مغادرتى الفراش . وبدأت معزوفة الألم تعربد فى رأسى . واستعدت فى ذاكرتى أحداث الصباح . وابتسمت فى مرارة ، وأنا أتذكر الماء والزيت المقدس . واتسعت ابتسامتى المرة عندما أيقنت أن أبواب السماء ما زالت مغلقة «بالضبة والمفتاح» أمام ابتهالاتى ودعائى ، وأن الأب (ف) وروح سيدنا عيسى عليه السلام قد خذلاتى وتخليا عنى .

ومع ذلك اغتسلت وتوضأت وصليت ودعوت .

وظل الجنى الذى يسكن فى رأسى «يتعفرت» و«يتنطط» و«يتشقلب» .

إلى أن كان يوم.

وخذلني ملك الجان!

عاد الصداع «يجرجرني» مرة أخرى إلى أبواب أطباء الأمراض النفسية .

وعدت «أبلبع» الحبوب المهدئة «وأبلبع» المسكنات .

إلى أن دخلت حياتي تلك الفتاة التي أخذتني إليه .

إلى الأب (ب).

* * *

كانت تلك الفتاة شابة في نحو الخامسة والعشرين من عمرها ، وكانت قد انتهت من دراستها الجامعية عندما بدأت تتردد على منزلي ، حيث كان يربطنا وأسرتها علاقة قديمة .

وبدأت أجد في ترددها المستمر نوعًا من الأنس خاصة بعد سفر زوجي وانشغال أبنائي بحياتهم الخاصة .

وحدث أن أجريت عملية جراحية استدعت بقائي في الفراش لفترة ، حيث أصرت تلك الفتاة على البقاء معي لرعايتي بعد عودتي للمنزل ، وحيث أصبحت بعد ذلك تفضل المبيت في بيتي عن المبيت لدى أسرتها .

وكنت أعلم منذ مدة طويلة أنها تعاني من بعض الهلاوس والخيالات ، واصطحبتها أكثر من مرة إلى أطباء الأمراض النفسية دون جدوى ، وآمنت الشابة بفكرة أن هناك «جني» بدأ في مطاردتها في أحلامها ، ثم أصبح حقيقة لا ريب فيها .

وأصبح بيتي بالنسبة لها هو المكان الوحيد الذي لا يطاردها فيه الجني الذي كانت تدعي أنه سكن جسدها وأنه قد أحال حياتها جحيمًا ، فأينما تضع جنبها ليلا كان هذا الجني يقتحم أحلامها بصورة مزعجة وحادة ، وأصبحت مع الوقت غير قادرة على الفصل بين الحلم والواقع ، فهي ترى الجني جالسا على طرف الفراش بصورته المرعبة وهو يحملق

فيها، وتقفز من الفراش صارخة في رعب تستنجد بمن حولها ويطمئنها الجميع أنه لم يكن إلا مجرد كابوس، وتقسم أغلظ الأيمان أنه كان حقيقة لا ريب فيها. وتراه مرة أخرى وقد تحول إلى فأر كبير تستيقظ على أنفاسه وهو يجثم فوق وجهها، ثم تعود مرة أخرى لتراه قزمًا يحكم قبضته على رقبتها أو يكتم أنفاسها أو يكبل أقدامها بسلاسل حديدية، وتطور الأمر إلى أن أصبحت بعد كل موقف من تلك المواقف تصاب ببعض الأعراض المرضية، فهى تفقد النطق لعدة أيام تارة، وتصاب بالشلل الكلى وتفقد القدرة على المشى لعدة أيام تارة أخرى.

وبدأت رحلة معاناتها ومعاناة أسرتها البسيطة رقيقة الحال بين الأطباء النفسيين والدجالين والمشعوذين، وفشلت كل المحاولات فى تحريرها من قبضة المرض النفسى الذى كان يدعيه البعض، أو من قبضة الجنى الذى يسكن جسدها كما كان يدعيه البعض الآخر.

وكان بيتى المكان الذى لا يصل فيه إليها الجنى الذى يلازمها، وأصبحت تقيم معى إقامة شبه دائمة، ولا تفارقنى إلا إلى المدرسة التى أصبحت تعمل بها لتعود إلىّ بعد الانتهاء منها.

وأقنعتنى الشواهد وأحاديثى معها أنها تعانى من بعض الأمراض النفسية رغم فشل الأطباء فى علاجها، وقاومت كثيرًا إيمانها بأن جنيًا يتلبس جسدها، ولكنى فى نفس الوقت تعاطفت معها، بل وجاريتها أحيانًا؛ فقد كانت معاناتى من قهر آلام الصداع لا تدعنى أرى بابًا للشفاء إلا طرقته حتى ولو كان هذا الباب شَرَكًا أو سرابًا، وما كانت أكثر الشراك، وما كانت أكثر الآمال وأحلام الشفاء سرابًا.

لاحظت لعدة أيام أن فتاتنا قد بدأت تتأخر فى العودة إلى المنزل مساءً، ثم بدأت ألاحظ أنها تبكر فى الخروج صباحًا بلا أسباب واضحة، ثم بدأت تقضى بعض الليالى خارج بيتى بدعوى أنها تبيت لدى أسرتها.

واكتشفت بعد عدة أسابيع أنها كانت تراوغنى طوال الوقت حيث أخبرتنى فى لحظة من لحظات صفائها أنها تتردد على بيت الأب (ب)، وهو رجل مسيحى مسن قام بإعداد شقة يملكها فى شبرا لتكون مقرًا له يستقبل فيه المرضى والممسوسين وأصحاب المشكلات على اختلاف أنواعها كالعقم والخلافات الزوجية وما إلى ذلك، وأصبح يقيم فيها قداسًا فى الصباح الباكر يوميا، وأنه قد أكد لها أنها ملبوسة وأن طرد الجنى الذى يتلبسها سوف

يستغرق الكثير من الوقت، وأن عليها أن تصبر وأن تستمر في التردد على مقره حتى يأذن الله لها بالشفاء.

ومع طول فترة ترددها عليه تكون لديها اليقين بأنه منقذها، فبدأت كلما ضاقت بها السبل تتصل به في أي ساعة من ساعات الليل والنهار، وتستنجد بكراماته التي كانت تعتقد أنها بلا حدود رغم عدم تأكدها من هذه الكرامات سوى ما كانت تسمعه من أفواه من كانت تقابلهم في مقره، والتي لا تخرج عن كونها من باب الصدفة، وتطور الأمر بأن أصبحت تشعر بالأمان والحماية في ظل وجودها معه، فأصبحت تتردد عليه في بيته وتقوم على رعايته وخدمة أفراد أسرته، بل وأصبحت تقضي معظم لياليها لديه.

ولم أستطع أنا أو أسرتها إقناعها بعدم جدوى المضي في ذلك الطريق الذي لم تجن من ورائه أي شيء على مدار عدة شهور، لكنها استخدمت إحدى الوسائل الضاغطة، حيث هددت بالانتحار حرقًا إذا ما أصرت أسرتها على منعها من التردد عليه.

ولاحظت في الفترات التي كانت تقضيها لدى أنها قد توقفت عن الصلاة والتردد على المساجد كما كانت تفعل من قبل، حيث كانت تتوهم أن الجني الذي يتلبسها جني مسيحي، وأنه يمنعها من الصلاة، وأن ترددها على الكنائس وعلى **الأب** (ب) الذي لم يكن في واقع الأمر قسيسًا أو راهبًا يرضى ذلك الجني الذي يتلبسها، والذي يتوقف عن التعرض لها وتعذيبها بظهوره لها في أحلامها أو يقظتها كلما أكثرت من التردد على الكنائس وعلى **الأب** (ب).

وبذلت فتاتنا جهودها المستميتة لإقناعي بزيارة **الأب** (ب) الذي سبق لها أن قصت عليه قصتي مع الصداع، وأنه قد أخبرها بأن علاجي شيء سهل ويسير ولا يستدعي مني سوى زيارة واحدة له.

وظللت لعدة شهور أرفض تمامًا فكرة تلك الزيارة، حتى دفعني حب الاستطلاع في أحد الأيام إلى رؤية ذلك الرجل والتعرف على تلك القوى العجيبة لديه، التي استطاع بها أن يسيطر على عقل فتاتنا الشابة وذهبت إليه.

وكان المقر عبارة عن شقة واسعة تحتل طابقًا أرضيا بإحدى العمارات بحي شبرا، وفوجئت بأعداد من الرجال والنساء تكاد تتجاوز العشرين فردا، وقد جلسوا في انتظار عرض مشكلاتهم عليه، حيث كان يجلس إلى مائدة كبيرة تتوسط الصالة الواسعة بينما رصت المقاعد التي احتلها الحاضرون على جانبي الصالة.

وقدمتنى فتاتنا إليه، وأدركت أنه يعلم عن ظروفى الشىء الكثير عندما أخبرنى أنه قادر على علاجى، وأن علىَّ مجاراته والانصياع له ولتعليماته حتى يأذن الله بالشفاء، وأنه يبذل كل جهده لعلاج فتاتنا، وأن عليها الصبر وإعطائه مزيداً من الوقت حتى يخلصها نهائيًا من الجنى الذى يتلبسها.

وبينما كنت أجلس بجواره على المائدة الكبيرة، حيث كان يقوم بعمل بعض الأحجبة وإعطائها لكل صاحب حاجة كل فى دوره مع تعليماته بما يجب عليه عمله من حيث استخدام البخور أو الاغتسال أو كيفية حمل الأحجبة، كنت أرقب بملاحظاتى النقدية نمط المترددين عليه من مسلمين أو مسيحيين وأنواع مشكلاتهم ومدى إمكانيات ذلك الرجل الروحية، التى يسرت له استقطاب هذا العدد من الناس، والتأثير على البعض منهم إلى درجة إيمانهم المطلق به.

وحل وقت القداس أو الصلاة، وخيرنى بين حضور الصلاة أو انتظاره لحين الانتهاء منها، ووجدتها فرصة سانحة لمعرفة ما يدور خلال تلك الصلاة، حيث توجهنا إلى حجرة أخرى كبيرة بها بعض المقاعد الوثيرة ذات الخشب المذهب، وحيث وقفنا جميعًا فيما يشبه الحلقة، عدا بعض المسلمين الذين رفضوا حضور الصلاة دون أى محاولة من الرجل العجوز لإغرائهم أو الضغط عليهم لحضورها.

وبدأ **الأب** (ب) الصلاة التى لم تتعدى بعض الأدعية وتلاوة بعض آيات الإنجيل. بينما استغرقت أنا فى تلاوة ما أحفظه من آيات القرآن الكريم.

واستغرقت الصلاة نحو ربع الساعة حيث خرجنا جميعًا إلى الصالة مرة أخرى وحيث عدت معه للجلوس إلى المائدة.

ووجدت **الأب** (ب) قد استغرق لبعض الوقت فى إعداد بعض الأحجبة واللفائف التى لم أدرك تمامًا محتواها، ووضعها جميعًا فى حزمة صغيرة واحدة، والتفت إلى يناولنى إياها، قائلا إن سر هذه اللفافة سر «باتع» وإنها عبارة عن رسالة إلى **«ملك الجان»**. يأمره فيها بتسخير كل قواه للقضاء على الصداع الذى أعانى منه، وأن علىَّ أن ألقيها فى وسط النهر بنفسى وليس قريبًا من الشاطئ، وأننى سأرى بنفسى وللتو مدى تأثير تلك الرسالة ومفعولها الأكيد.

وتناولت منه اللفافة وأنا أكتم ابتسامتى، فقد جئت من أجل فتاتنا وإذا بقدمى تنزلق كما انزلقت فتاتنا من قبل، أو على الأقل كما يعتقد هو فى قرارة نفسه.

وغادرت المقر بعد أن أكد عليَّ ضرورة التردد عليه لاستكمال العلاج والشفاء . حيث يحتاج الأمر مني مداومة التردد عليه وعدم التوقف عن هذا التردد بمجرد اختفاء الصداع .

وما أن أخذت مكاني أمام عجلة قيادة سيارتي وفتاتنا الشابة إلى جواري ، حتى بدأت في تحليل الموقف وتشخيص الأب (ب) نفسه ، حيث أدركت من خلال تدقيقي الشديد في هيئته وملامح وجهه وطريقته في الحديث أن لديه قوة هائلة في التأثير على من يتعامل معه ، فقد كان رغم اقترابه من سن السبعين تقريباً ذا هامة ضخمة متناسقة ، وكان بشعره الكثيف الذي غطاه المشيب وملامح وجهه الحادة ، يوحي بشيء من المهابة والسيطرة ، كما كانت نظراته وعيناه الحادتان المؤثرتان تنمان عن قدرة هائلة على الإيحاء الذي قد يصل إلى حد استلاب الإرادة والاستقطاب .

وظلت فتاتنا صامتة في انتظار تعليقي على هذه الزيارة ، حيث حاولت إقناعها بلا جدوى أن كل ما يقوم به هو عملية إيحائية للمترددين عليه بقدرته على حل مشاكلهم . وأن قوة الإيحاء والإيهام في كثير من الأحيان لها قوة السحر في استنفار مقاومة الجهاز المناعي للفرد ، وكذلك في مواجهة معظم المشاكل .

ولم تقتنع مرافقتي الشابة بكل مبرراتي التي سقتها إليها في حكمي عليه ، وظلت تقنعني بأن تلك هي فرصتي الذهبية للتخلص من الصداع ، وأن الأمر لن يستغرق مني سوى عدة دقائق لإلقاء اللفافة التي أعطاني إياها في النيل ، وأن اختفاء الصداع سيكون الوسيلة الوحيدة لإقناعي بقدرات وكرامات الأب (ب) التي تؤمن به إيماناً مطلقاً .

وجاريت فتاتنا وأنا أبتسم لها في استخفاف ، حيث أدركت أن هذه التجربة التي أيقنت مسبقاً بفشلها من خلال تجاربي الفاشلة الطويلة قد تكون خطوة لاقتلاع إيمانها بهذا الرجل .

وتوجهنا سوياً بسيارتي إلى القرب من كوبري الجامعة ، حيث ركنت سيارتي وحيث قطعنا المسافة من أول الكوبري إلى منتصفه سيراً على الأقدام ، وما أن وصلنا إلى هدفنا ، حتى انتابني شعور هائل بالخجل «والكسوف» وأنا أرقب السيارات العابرة ، حيث خيل لي أن كل راكبي السيارات والمارة يراقبون تلك المرأة المجنونة «التي هي أنا» وهي تلقي برسالتها إلى ملك الجان من وراء ظهرها ، فقد كان من بين تعليمات الأب (ب) أن أقف

وقد أدرت ظهرى إلى النيل، ثم ألقى باللفافة من فوق كتفى إلى أقصى مدى فى النيل، وكأنما هو يخشى علىّ من مواجهة ورؤية ملك الجان الذى قد يخرج لى من أعماق المياه ليتلقف الرسالة.

وفعلتها، أدرت ظهرى إلى سور الكوبرى الذى التصقت به وأمسكت باللفافة فى يدى وأنا أرقب فى خجل واستحياء تدفق السيارات، وما هى إلا لحظة قصيرة توقف فيها تدفقها، حتى أسرعت فى عجلة ولهفة فى «تطويح» اللفافة من فوق كتفى إلى النيل.

وانتابتنى فى تلك اللحظة ـ وبينما غابت اللفافة فى طيات مياه النيل ـ رغبة هائلة وأمل كبير رغم شكوكى فى جدوى ما قمت به وخجلى منه بل وخجلى من مجرد مراودة مثل تلك الأفكار لذهنى، أن يكون هناك فعلا ملك للجان وأن يتلقف فعلاً ذلك الملك رسالتى، وأن يمد ذلك الملك يده لينتزع ذلك الألم من جذوره.

وعدنا أدراجنا إلى حيث تركت سيارتى، حيث توجهنا إلى مصر الجديدة، بينما كانت فتاتنا الشابة لا تفتأ بين لحظة وأخرى عن النظر إلىّ وسؤالى عما إذا كان قد ذهب الصداع؟

* * *

ووصلنا مصر الجديدة. وصعدنا إلى شقتى، وكان الصداع ثالثنا.

ألم أقل إنه قد وقع فى غرامى؟

عندما ظهر لنا الجنى

كان الأمر مفاجأة لي . وكان أيضًا ضربًا من التجارب المثيرة . وبقدر ما كان مثيراً كان مؤسفًا وكان حزينًا.

وإليكم ما حدث.

* * *

توقفت فتاتنا الشابة عن التردد على الأب (ب) ، ولكن ذلك كان إلى حين . أخبرتني أنها قد أصبحت تتردد على إحدى جمعيات العلاج بالقرآن، التي أسسها حزب الأحرار في مقره الكائن في مواجهة قصر القبة ، وأن المعالجين هناك قد تمكنوا من استثارة الجنى الذي يسكن جسدها ، وأنه قد ظهر لهم ، وأنهم قد عرفوا «أصله وفصله» .

وجاريتها غير مصدقة ، ثم جرفني حب الاستطلاع المتأصل في شخصيتي والذي دعمه كوني أستاذة في علم الاجتماع .

ولذلك، ذهبت معها.

ورأيت...

وسمعت...

وتألمت...

كان مقر «حزب الأحرار» عبارة عن قصر قديم متميز في مواجهة قصر القبة . وأدهشتني تلك الأعداد الغفيرة من المترددين على الجمعية التي أفرد لها جانب من الدور الأرضي .

وأذهلني وجود أميني الشرطة ، كانا ينظمان عملية دخول المرضى إلى قاعة العلاج ،

التي كان ينبعث منها تلاوة قرآنية يبدو أنها مسجلة على شريط . وتعجبت عندما دخلت القاعة ورأيت ذلك العدد الكبير من المقاعد المجهزة خصيصًا لجلسات العلاج .

كانت تلك المقاعد التي رصت بجوار الجدران أقرب ما تكون إلى المقاعد التي تراها في محال الحلاقة أو «الكوافير» ، وكانت تتميز عنها بتلك السيور الجلدية المتصلة بها ، ورأيت مجموعة من الرجال والفتيان قد التصقوا بتلك المقاعد حيث تم تكبيل أيديهم إلى أذرع المقاعد بتلك السيور الجلدية ، كما التفت هذه السيور حول صدورهم لتربطهم إلى ظهر المقعد ، كما التفت أيضًا حول أقدامهم .

وجلست إلى جانب الشيخ المعالج شبه مشدودة ، أحاول السيطرة على فمي حتى لا أفتحه عن آخره ، وحتى لا أبدو «كالبلهاء» أو «العبيطة» ، وأخذت أتأمل تلك الفتاة خارقة الجمال التي أخذت تتلوى بطريقة تشنجية هستيرية في مقعدها الذي ربطت إليه بالسيور الجلدية بينما تم تثبيت سماعتين كبيرتين على أذنيها ، وقد ارتسمت على ملامح وجهها آيات العذاب والمعاناة ، بينما أخذت تردد عبارات ثابتة متكررة في صوت رجولي وحشي ، وإن كانت تخرج في كل مرة بنغمات وترددات مختلفة تتباين بين إقرار بالواقع ، غضب ، استرحام وتوسل ، ذلة ومسكنة ، ضعف ووهن ، استجداء :

ـ أنا بحبها ، أنا ساكن جواها ، أنا مش حاسيبها ، لو خرجتوني من جسمها حاأخرج من قلبها ، وحاموتها معايا .

وسألت عنها المعالج الشاب وكذلك أمها التي كانت تمسك برأسها بشدة حتى لا تكسر التشنجات الشديدة عنقها ، بينما كانت في فترة الهدوء التي تعقب كل نوبة وأخرى وعندما تقوم أمها بإبعاد السماعات عن أذنيها ، والتي لم تكن تستمر لأكثر من دقيقة أو اثنتين ، تقوم بإعطائها بعض الماء أو العصير .

قالا لي إنها في السنة الثالثة بكلية الهندسة ، وإن جنيا يتلبس جسدها منذ عدة سنوات ، وإنها كانت تشعر بوجوده بصورة غير محسوسة ، وعندما بدأ بعض الخطاب يترددون عليها بدأ النوم يجافيها لأيام وأيام ، مما أثر على تحصيلها الدراسي خاصة بعد أن أصبحت تقع مغشيًا عليها بلا سبب واضح ، وأن محاولات أطباء العلاج النفسي كلها راحت أدراج الرياح ، وأن أقدام الفتاة وأمها ساقتهم إلى هذه الجمعية منذ عدة أسابيع ، حيث بدأ الجني الذي يتلبسها يظهر عليها مع سماعها لآيات القرآن ويعترض ويتمرد على الخروج من جسدها .

وعلمت من ذلك المعالج أن حالات التلبس تعالج عن طريق بعض الآيات القرآنية، وأن استخدام السماعات يتم بهدف وصول صوت التلاوة إلى الأذن مباشرة خاليًا من أى ضوضاء أو أصوات جانبية داخل الحجرة.

وظللت أرقب الباقين، بينما كانت فتاتنا الشابة التى جئت بصحبتها تجلس مقيدة فى مقعدها، وقد وضعت السماعات على أذنيها فى انتظار ظهور الجنى الذى يتلبسها.

ولفت نظرى وجود صبى فى نحو العاشرة من عمره، تتضح على وجهه سيماء التخلف العقلى، والذى استقر فى مقعده فى استسلام دون حركة وقد ثبتت على أذنيه السماعة التى يستمع من خلالها إلى القرآن.

وكان المعالج الشيخ يترك المريض لمدة ساعة أو ساعتين وقد تم وضع السماعات على أذنيه بعد تكبيله بالسيور الجلدية، وعندما ينقضى الوقت دون أن يظهر الجنى الذى يتلبسه، يطلب منه مغادرة المقعد والحضور فى اليوم التالى؛ ليحل محله فى المقعد مريض آخر.

وتحدثت مع الفتاة الجميلة طالبة الهندسة ذات الصوت اللطيف الهادئ والنبرات المحببة بين بعض النوبات والأخرى، ووجدتها على قدر من الثقافة والذكاء، حيث كان عقلها العلمى يرفض كل ما يتصل بالتحليل غير المادى وغير العلمى لحالتها، إلا أن عجز الأطباء عن علاجها أدى بها إلى اللجوء للغيبيات، وأنها على استعداد لخوض أى تجربة مهما كانت شاقة وعسيرة للعودة إلى حياتها الطبيعية.

ووجدتنى أردد فى سرى فى أسى «ومين سمعك».

وتعاقب على فى تلك الزيارة التى بدأتها فى نحو السابعة مساء عدد لا يستهان به من الأطفال والنساء والرجال المرضى، حيث كان البعض منهم يترك مكانه بعد ساعة أو أكثر قليلا لغيره عندما لا يظهر الجنى الذى يتلبسه، على حين كان البعض الآخر يستمر فى مقعده طالما تكررت النوبات التى كانت تشبه إلى حد كبير تلك التى تتعرض لها الفتاة الجميلة طالبة الهندسة.

وأدركت من خلال تلك الزيارة أن النساء المريضات يتلبسهن جنى من الذكور، وأن الرجال المرضى يتلبسهم جنية من الإناث ومن المضحكات المبكيات ذلك الرجل ذو الشنب الضخم الذى تم تقييده إلى المقعد والذى أخذ يتحدث فى صوت نسائى ناعم، عندما ظهرت الجنية التى تتلبسه.

وربما يعتقد البعض أن تلك الأصوات النسائية أو الرجالية تكون أصواتًا غريبة تمامًا وبعيدة عن النبرات الأصلية لصوت صاحبها، إلا أن الأمر وما فيه أنها تبدو وكأن الرجل «الملبوس» يقلد صوت امرأة، وكأن المرأة «الملبوسة» تقلد صوت رجل، أى أن الهوية الجنسية بالنسبة للصوت تكون موجودة لا ريب فى ذلك.

واستمرت فتاتنا الشابة التى اصطحبتنى فى هذه الزيارة فى جلستها الصامتة لعدة ساعات، وقد أخذت بين الوقت والآخر ترفع السماعات عن أذنيها؛ للتحدث معى قليلا أو مراقبة من حولها أو الاستماع لما يقولون، ثم تعود لوضعها مرة أخرى.

وفى نحو الساعة الثانية عشرة مساءً، حيث كنت قد شاهدت ما فيه الكفاية، طلبت منها أن ننصرف.

وبينما كنت أصافح الشيخ المعالج، وقد وقفت إلى جانبى فتاتنا الشابة استعدادًا للانصراف، اقترحتُ عليه أن يرفع صوت السماعات المثبتة فى الحائط حتى يرج ويزلزل المكان بكلمات الله البينات، وإذا بفتاتنا الشابة تلتفت لى بحدة وغضب، وقد اتسعت عيناها وتطاير منها نظرات وحشية غاضبة، ثم صاحت فى هياج وهى تتساءل قائلة فى استنكار هائل:

ـ يزلزل؟ يزلزل؟ ده بيزلزلنى أنا... ده بيزلزلنى أنا...

ورأيتها للتو تتهالك على الأرض فى شبه إغماءة، حيث أسرع الشيخ المعالج إليها وهو يصيح فى تهديد ووعيد متساءلاً:

ـ أهلاً، هو إنته حضرت؟ يا مرحب يا مرحب.

وارتمت فتاتنا على المقعد وقد انثنى رأسها تحتها، بينما تردد فى فضاء الحجرة صوت طفولى رفيع صادر فيها، وهو يقول فى حدة وإصرار إنه لن يتخلى عنها، وإنه سيظل داخل جسدها إلى الأبد، وأن آيات القرآن كلها لن تقدر على اقتلاعه!

وأخذ الشيخ المعالج فى توجيه أسئلته إلى الجنى الصغير، بينما أخذت فتاتنا وهى شبه نائمة تتكلم بذلك الصوت الطفولى «المسرسع»، وعلمنا أنه طفل مسيحى من الجان يسكن جسدها، وأن أمه وأفراد أسرته فى نفس البيت الذى تسكنه أسرة فتاتنا.

ورأيت الشيخ يمسك بسلسلة المفاتيح فى يده، بينما ارتفع صوته الآمر المهدد المتوعد، وهو يأمر الجنى بالخروج فوراً من جسدها.

وما أن انتزع يد الفتاة إلى جانبها وأخذ يضغط بقوة وشدة بطرف أحد المفاتيح التى كان يمسكها بيده على ظفر أصبعها السبابة، ويغرزه بقسوة بين سنت الظفر واللحم، حتى ارتفع صوتها الطفولى صارخا وهو يقول:

ـ خلاص، خلاص، حأخرج أهه، أنا خارج خلاص، كفاية، سيبنى عشان أخرج!

وما أن يتوقف الشيخ عن إيلام أظفرها، حتى يعود الصوت الطفولى إلى العناد، ويعلن أنه لن يخرج من جسدها مطلقًا.

ويعود الشيخ فى غضب وقد تعالى صوته الهادر ليغرز طرف المفتاح فى لحم منبت ظفرها وهو يأمره بالخروج. ويأتى صوتها الطفولى مرة أخرى ليعلن فى تهديد، أنه سوف يخرج من عينيها إذا أصر الشيخ على الاستمرار فى إيذائه والإصرار على إخراجه، وأنه سيصيبها بالعمى.

ويتراجع الشيخ قليلاً عن تشدده وإصراره للحظات، ثم يعاود الضغط مرة أخرى على ذلك الجنى الصغير المتمرد.

واستمرت القصة تتكرر لعدة مرات بنفس الأسلوب وبنفس الصوت، وأشفقت على فتاتنا من ذلك العذاب الذى تعانيه، فقد كانت تلك المنطقة التى يقوم بغرز المفتاح فيها بكل ما أوتى من قوة منطقة حساسة مليئة بالأعصاب التى يسبب الضغط عليها آلامًا هائلة لا تطاق.

ولم يجد الشيخ المعالج بدا من التوقف، وتأجيل إخراج الجنى إلى جلسة تالية، بعد أن انبثق الدم من نهاية أظفرها.

وانتبهت فتاتنا فجأة وكأنها كانت فى سبات عميق، ولم تذكر مما دار فى الجلسة بخصوصها أى شىء على الإطلاق.

وانصرفنا . . .

* * *

وحاولت فيما تلى ذلك من أيام أن أقنع فتاتنا الشابة أن ما حدث أمامى سواء بالنسبة لها أو بالنسبة للفتاة الجميلة طالبة الهندسة أو للآخرين، لا يعدو كونه نوعًا من أنواع الصرع ولا صلة له بالتلبس، وأن أيا منا قادر على تغيير نبرات صوته ليصبح كأصوات الرجال أو أصوات الأطفال، وأن هناك مشكلة معينة فى منطقة اللاشعور، بالإضافة إلى

بعض التغيرات الكيميائية التى تحدث فى المخ تؤدى إلى حدوث هذه التشنجات أو الإغماءات، وما يصاحبها من هذيان وهلاوس، وأن التحليل النفسى قادر على علاج هذه الحالات.

ولم تقتنع فتاتنا الشابة. ورفضت تمامًا أن آخذها إلى أى طبيب نفسى من أجل العلاج. ورفضت أن تعود إلى جمعية العلاج بالقرآن، فقد كان الألم ثمنًا للشفاء مما تعانيه... ولم تعد قادرة على تحمل الألم.

وعادت ترتمى على أبواب الأب (ب) وحتى الآن.

وعدت أنا لأرتمى على «أعتاب» أخرى جديدة.

وإليك قصة هذه «العتبة».

الأذان يطرد الجان

كنت قد حرصت على أن يظل سرى الصغير الكبير الخاص بمعاناتى من آلام الصداع فى أضيق نطاق ممكن، إلى أن كان ذلك اليوم عندما كنت فى زيارة أسرة زميل لى فى الجامعة فى بورسعيد، حيث تشعب بنا الحديث إلى حالات «التلبس» بالجن، وحيث أشادوا بقدرات أحد الشباب المتدينين من أقارب الأسرة، وكيف أنه قد نجح فى طرد الجنى الذى كان يجثم فوق ظهر ابنة جيرانهم الشابة والذى كان يسبب لها آلامًا هائلة فى منطقة العمود الفقرى، والتى فشل الأطباء فى بورسعيد والقاهرة فى علاجها.

وبدأ عقلى «يزقزق» عندما استفاضوا فى ذكر قدراته وإمكانياته وكراماته، وعن استعانته ببعض الآيات القرآنية لطرد الجنى.

وتخليت عن حرجى وطلبت منهم أن يصطحبونى إليه أو يستقدمونه إلىَّ، فربما يكون مرد تلك الآلام التى حار فيها الأطباء والمتصلين بالأرواح وطاردى الجن وجود جنى «مزرجن» قد تربع فى رأسى، ولا يستطيع زحزحته من مكانه إلا شخص قوى من أصحاب الكرامات.

وما هى إلا أيام حتى اتصل بى زميلى فى القاهرة وأخبرنى أنه قد حدد موعدًا لى فى منزله مع قريبه الشاب المتدين «طارد الجن».

وكالعادة «ماكدبتش خبر» فما أن انتهيت من محاضراتى فى ذلك اليوم، حتى هرعت إلى الفندق الذى تعودت على المبيت فيه عندما تضطرنى الظروف للمبيت فى بورسعيد، حيث آويت إلى الفراش لأحصل على بضع ساعات من النوم، والتى أصبحت شيئًا مقررًا كالمقررات الدراسية، وغادرت الفراش بعد حوالى ثلاث ساعات وقد ملأنى النشاط الذى ولده الأمل فى الشفاء القريب.

وتوجهت إلى منزل أسرة زميلى فى نحو السادسة مساء حيث وصل بعدى بدقائق ذلك الشاب «قاهر الجن والعفاريت».

كان شابًا في نحو الثلاثين من عمره ذا لحية سوداء كثيفة، يرتدي سروالا ضيقًا أبيض وفوقه جلباب قصير أبيض اللون أيضًا، ويغطي رأسه بطاقية صغيرة بيضاء لم تخف إلا جزءًا صغيرًا من شعره الأسود الناعم.

ونظر الشاب إليَّ نظرة سريعة خاطفة قبل أن يأخذ مكانه على المقعد أمامي في حجرة الصالون، ثم أرخى بعد ذلك عينيه وهو ينظر بهما إلى الأرض. وظل لا يرفعهما في أثناء حديثه إلا إذا كان يوجه كلامه إلى رب الأسرة.

ولم يصبر الشاب ذو اللحية حتى ينتهي من احتساء كوب الشاي الذي قدمته لنا زوجة زميلي، حيث أعلن وكأنه طبيب شهير في طريقه لإجراء عملية جراحية خطيرة، أن وقته أضيق من أن يتسع لتكملة كوب الشاي، وأن هناك عددًا من الحالات التي تعاني من المس الأرضي في انتظاره، وأن عليه البدء فورًا في العمل على إخراج الجني الذي يسكن في رأسي.

وحبست ابتسامتي الساخرة داخلي وأنا أكاد أن أقول: «**كان غيرك أشطر**»، وأنا أدلف معه إلى إحدى الحجرات الداخلية وبصحبتنا السيدة زوجة زميلي، وأشار الشاب الملتحي إلى الفراش الذي يحتل منتصف الحجرة وطلب مني أن أستلقي على جانبي الأيسر، بعد أن طلب من السيدة أن تسارع بإلقاء أحد الأغطية على ساقي اللتين لم يفلح ارتدائي للبنطلون في إخفائهما تمامًا.

واستلقيت وقد فتحت عيني على سعتهما، بينما تحفزت أعصابي وتصلب جسدي في انتظار الخطوة القادمة، أنصت بلهفة إلى الشاب الملتحي الذي ركع بجوار السرير قريبًا من رأسي وهو يتلو بعض آيات القرآن، التي ما أن انتهى منها حتى شعرت بأنفاسه وهي تلفح جانب وجهي، وقد اقترب بشفتيه من أذني، وإذا به يصيح مؤذنًا بصوت جهوري مرتفع؛ خشيت منه أن «**يخرق**» طبلة أذني، وتوقف بعد الأذان لمدة دقيقة أو دقيقتين، وقد نهض واقفًا، وسألني عما إذا كنت أشعر بأي تغيرات في جسدي داخليًا أو خارجيًا أو بأي آلام في أطراف أصابع قدمي أو يدي، حيث طلب من مضيفتي أن ترفع الغطاء عن قدمي ليرى ما قد يكون قد حل بهما، كما طلب مني أن أمد يدي ليرى أظافري، وعندما أخبرته أنني لا أشعر بأي شيء على الإطلاق، عاد مرة أخرى ليركع بجانبي ويقرب شفتيه من أذني ليعيد الأذان المدوي مرة أخرى.

ونهض الشاب واقفًا بعد أن كرر الأذان للمرة الثالثة وهو يعلن لي ـ وقد سدد عينيه إلى الأرض ـ أن جسدي بريء من وجود أي جني «**معشش**» فيه براءة الذئب من دم يوسف،

وأن الجنى الذى يسكن أى مكان فى الجسد مهما بلغت قوته وسيطرته ، يغادر فوراً بمجرد سماعه صوت الأذان جسد الشخص «الملبوس» عن طريق أظافر اليدين أو القدمين ، حيث يتدفق الدم من أحد هذين المكانين ، إثر خروج الجنى من الجسد .

وغادرنا الشاب الملتحى متوجها لعلاج حالة أخرى ، بعد أن علمت منه أنه يستخدم دراجة فى تنقلاته لعلاج الحالات المختلفة ، كما علمت أيضاً أنه «مأمور» بألا يتقاضى أى أجر نظير ما يقوم به ، وأن تلك الهبة الإلهية جاءته عن طريق ما لقنه إياه أحد المتصوفة .

فقد حدث أن وقع فى يده أحد الكتب التى تتناول كيفية تسخير الجن ، وأنه لجأ إلى أحد المتصوفة فى القاهرة لتوضيح بعض الأمور التى استغلقت على فهمه ، حيث نهاه المتصوف عن السعى لتسخير الجن ، ووعده بتلقينه أسرار طرد الجان ؛ إذا تمكن من حفظ القرآن الكريم .

وانقضى نحو أربعة أعوام حتى تمكن الشاب من حفظ القرآن عن ظهر قلب ، وعاد الشاب إلى ذلك المتصوف الذى أوفى بوعده ، ولقنه مختلف الآيات البينات والأدعية التى استطاع بها شفاء العديد من الحالات ، حيث أصبح يقضى معظم ساعات يومه بعد انتهائه من العمل فى أحد المصالح الحكومية فى تلاوة القرآن أو علاج من يعانون من المس الأرضى ، دون أن يتقاضى أى مقابل مادى نظير ذلك .

* * *

وغادرت منزل زميلى وقد ملأنى الأسى ، بعد أن دخلت وقد ملأنى الأمل . وأدركت أن ذلك الجنى الذى يعربد فى رأسى ، أقوى من ذلك الشاب الملتحى ومن شيخه الصوفى . واستمررت فى بلبعة الأدوية من كل لون وصنف . إلى أن قادتنى قدماى إليه فى إحدى قرى الصعيد . **إلى الشيخ (س). ذلك الفلاح، «عفوا» رجل الأعمال!**

وإليكم مغامرة أخرى جديدة.

الفلاح صديق الجان

كان ذلك في الصباح الباكر من أحد أيام الصيف الحارة عندما قدت سيارتي من مصر الجديدة وسلكت طريق صلاح سالم متجهة إلى منطقة المنيب في الجيزة.

وسألت عندما اخترقت بسيارتي شوارع المنيب عن موقف سيارات الأجرة المتجهة إلى بني سويف، حيث ركنت سياراتي بالقرب من الموقف، واستقللت إحدى سيارات الأجرة التي تعمل بنظام «النفر»، وحيث اتخذت مجلسي في المقعد الأمامي مع السائق بجوار النافذة، والذي دفعت له أجر «نفرين» حتى يترك الجزء الذي يفصل بيني وبينه خاليًا.

ومررت في ذلك اليوم بتجربة فريدة كانت الأولى من نوعها في حياتي، حيث أدركت أن حركات الأكروبات البهلوانية ليست حكرًا على العاملين في عروض السيرك فقط، وإنما يشاركهم فيها بل ويتفوق عليهم سائقو سيارات البيجو على ذلك الطريق الملتوي الضيق الرديء الذي يربط بين القاهرة والصعيد.

وأدركت أيضًا أن تلك العبارات التي يكتبها أصحاب السيارات على سياراتهم لمنع الحسد، وكذلك ما يعلقونه داخلها من تعاويذ وأحجبة والأكف الزرقاء «والشخاليل»، كانت تحول «بقدرة قادر» دون سحق المواشي والفلاحين الذين كانوا يعبرون الطريق جريًا من جانب إلى آخر، وكأنهم على ثقة من أن سيقانهم أكثر سرعة من عجلات السيارات، وأن تلك الأحجبة والتعاويذ بسرها «الباتع» تجعل قائدي السيارات يمرون على قيد شعرة من الترعة الموازية للطريق، وهم يبذلون جهدهم لتفادي الاصطدام بالسيارات المسرعة المجنونة صاحبة الحركات الأكروباتية.

ورغم أنني من هواة المناظر الطبيعية ومن العاشقات للريف المصري، إلا أن تلك الرحلة خلت تمامًا من أي وجه من وجوه المتعة، فقد توارت متعتي أمام ذلك التوتر الهائل الذي شملني وأنا أتابع الطريق بكل ما في كياني من تركيز، بينما كان سائقنا يصيح لاعنا السيارات التي كانت تتجاوزه وتتخطاه، ثم يعود ليصيح مهللاً كلما نجح بحركة من

حركاته الأكروباتية التى كانت تطيح بركاب السيارة ذات الشمال أو ذات اليمين فى تجاوز السيارة التى أمامه .

ولعنت يومها الطب ولعنت ألف لعنة ذلك الجنى الذى يعربد فى رأسى ، والذى جرجرنى وراءه إلى أعتاب الدجالين والمعالجين بالأرواح وطاردى الجن والعفاريت ، فقد كنت فى ذلك اليوم فى طريقى إلى واحد منهم .

* * *

كان قد حدث فى أثناء مواظبتى على حضور جلسات جمعية الأهرام الروحية أن عرض علينا رئيس الجمعية أمر طلب أحد الأشخاص الانضمام إلى الجمعية ، بدعوى قدرته الخارقة على العلاج بالأرواح ، وأن هناك توصية من قبل أحد كبار المحامين لمنحه هذه العضوية ، وأنها ستكون مستنداً هاماً لذلك الشخص فى القضية المرفوعة ضده لممارسته الطب بدون ترخيص .

واتفق الحاضرون على إجراء مقابلة شخصية له للتعرف على مستوى ونوع قدراته .

وغادر الحجرة أحد الزملاء الذى عاد بعد لحظات وبرفقته شاب متوسط الطول ذو جسد ممشوق برأسه المرفوع فى شموخ ، فى نحو الثلاثين من عمره يرتدى جلباباً فلاحياً نظيفاً رمادى اللون ، ويغطى رأسه بطاقية من نفس لون الجلباب ، وينتعل «بلغة» من الجلد الأسود جيدة الصنع .

وأشار إليه رئيس الجمعية بالجلوس بالقرب منه على أحد المقاعد الخالية ، حيث أخذ يشرح له بإيجاز أهداف ونشاط الجمعية ، بينما كنت أتابع بشغف كل مجالات الحديث بينهما ، وقد أخذت أتأمل وجه ضيفنا الوسيم بملامحه الدقيقة ، الذى كان ينصت فى اهتمام إلى شكوى رئيس الجمعية من بعض الأمراض التى يعانى منها شخصياً ؛ للتعرف على مدى قدرة هذا الضيف على تشخيص وعلاج هذه الحالة .

ونهض الفلاح الشاب واقفاً على الفور ، وقام بمد يده اليمنى ليضعها على رأس رئيس الجمعية ، ووقف صامتاً وقد أغلق عينيه فى حالة من التأمل للحظات ، ثم عاد إلى مقعده ، وهو يشخص المرض بدقة ، حيث قال له إنه يعانى من ارتفاع حاد فى ضغط الدم وتصلب الشرايين ، وأعقب ذلك بأن طلب ورقة وقلماً قام بالكتابة عليها ، أسماء الأدوية اللازمة لعلاج تلك الحالة .

ومد رئيس الجمعية يده إلى الورقة التى نظر فيها بإمعان قبل أن يطويها ويضعها أمامه وقد خلت ملامح وجهه من أى تعبير ، ثم أشار إلى سيدة ممتلئة ذهبية الشعر بين

الموجودين، وهي صديقة لي على قدر عال من الثراء، حيث كانت تعاني من الشلل الرعاش، الذي لم يكن لأحد أن يلحظه وقد وضعت يدها على حجرها.

وغادر الشاب مقعده وخطا تجاه صديقتي، حيث وضع يده على رأسها، وقد استغرق في تأملاته للحظات وقد أغمض عينيه، ثم عاد في ثقة وكبرياء ليجلس على مقعده في شموخ، وهو يؤكد أنها تعاني من الشلل الرعاش، وأن أسبابه هي كذا . . . وكذا . . . . وأنه قادر على علاجها عن طريق الأدوية وجلسات خاصة للعلاج الروحي التي قد تستغرق عدة أشهر.

ولفتنا جميعًا الحيرة حيال تلك الثقة الزائدة التي كان يتحدث بها، وحيال مدى صحة تشخيصه لكل من الحالتين، حيث انتشلنا من حيرتنا رئيس الجمعية الذي طلب من الفلاح الشاب مغادرة الحجرة والانتظار خارجها للحظات.

وما إن تم إغلاق الحجرة بعد مغادرته لها، حتى فتح رئيس الجمعية الورقة المطوية وهو يعلن للجميع أن تشخيص ذلك الفلاح لمرضه يتطابق تمامًا مع تشخيص كبار الأطباء الذين يتولون علاجه، بل إن الأدوية المكتوبة في الورقة هي نفس الأدوية التي وصفها له أطباؤه.

وتحول رئيس الجمعية إلى صديقتي التي تبدى ذهولها البالغ على صفحة وجهها، وهي تقول في دهشة إن تشخيص حالتها الذي تم في الدقائق الماضية هو نفس التشخيص الذي أكدته كافة الفحوص التي أجرتها في مصر وفي أمريكا.

وبدأت الأسئلة تنهال من الحاضرين على رئيس الجلسة حول مدى شفافية ذلك الفلاح الشاب وقدراته الروحية، حيث اقترح أن يطلب منه العودة إلى الحجرة مرة أخرى لاستجلاء بعض النقاط الغامضة.

وما أن عاد الشاب إلى مقعده حتى أخذ الجميع في توجيه شتى أنواع الأسئلة والتي كشفت لنا عن جانب كبير من نشاطه في مجال العلاج.

* * *

كان هذا الشاب كما جاء على لسانه ينتمي لإحدى الأسر متوسطة الحال في إحدى القرى التابعة لمحافظة بني سويف، وتلقى تعليمه أولاً في كُتاب القرية ثم انقطع عن المدرسة وهو في السنة الثانية الابتدائية، ومرت فترة طفولته كأي طفل آخر في مثل سنه حتى إذا بلغ الخامسة عشرة من عمره، بدأت بعض الأرواح التي تتحدث باللغة السوريانية في الاتصال به وعلمته تلك اللغة.

وما هى إلا سنوات قليلة حتى أخبرته تلك الأرواح أنه قادر على اكتشاف الأمراض وعلاجها عن طريقهم، حيث ذاع صيته فيما تلا ذلك من سنوات، وحيث أصبح مقصداً للمرضى والمصابين بالمس الأرضى من شرق البلاد وغربها، وأنه لا يتقاضى أى مقابل مادى من هؤلاء المرضى حيث يعمل مع والده وأخواته فى تجارة القمح، وأن عدد المرضى الذين يترددون عليه فى قريته يصل إلى ما يقرب من المائة فرد يوميًا كما أن مواعيده كلها محجوزة مقدمًا لمدة سنة كاملة، وأن هناك بعض الحاقدين من أهل القرية الذين أبلغوا الشرطة عن ممارسته الطب بدون ترخيص، وحيث أحيل إلى النيابة التى أقامت ضده الدعوى المطروحة حاليًا أمام القضاء.

وما أن غادرنا الشاب بعد أن وعده رئيس الجمعية بالنظر فى أمر انضمامه إلى الجمعية، حتى بدأ كل منا يلقى بدلوه، ويعقب ويحلل على كل ما جاء على لسانه.

وانتهى الموقف بإجماع الآراء على رفض عضويته، حيث استقر الرأى على أن ذلك الشاب يستعين بالجن الذى قد يكون مؤمنًا وقد يكون كافرا، وليس بالأرواح الأثيرية الخيرة.

وما أن انفض جمعنا وانصرفنا مغادرين المكان، وقد اصطحبت صديقتى فى سيارتى متوجهين إلى منزلها، حتى راحت تبدى دهشتها وتعجبها لتلك الظاهرة الخارقة، وكيف تيسر لذلك الفلاح شبه الأمى كتابة أسماء الأدوية، وكيف أنه استطاع تشخيص مرضها شديد التعقيد، كما أبدت أسفها لحجب عضوية الجمعية عنه بينما كان فى وسعه علاج كلانا، وأعربت عن حسرتها لانصرافه دون أن تعرف مكان إقامته.

وطمأنتها وأنا أنظر إليها نظرة متخابثة، وقد علت ضحكاتى وأنا أقول:

ـ اطمنى ما تخافيش، ده أنا نادية والأجر على الله، هوه حيروح منى فين؟

وأخبرتها أننى قد أخذت منه رقم تليفونه، بعد أن وافق على علاجنا، وأنه سوف يحدد لنا موعدا فور اتصالى به.

وكعادتى دائمًا «ما كدبتش خبر» فأنا ضعيفة أمام إغراءات الجن والأرواح لطرد ذلك الجنى «الشقى» الذى يعربد فى رأسى، بعد أن اتضح أنه أقوى بكثير من الأدوية والطب والأطباء.

واتصلت به تليفونيًا بعد مقابلتنا الأولى بنحو الشهر، حيث حدد لى الموعد واليوم الذى علىَّ أن أذهب فيه إلى قريته.

وذهبت إليه.

الفلاح الذى صنعت منه الجان رجل أعمال!

وكان الاتفاق أن أذهب إلى قرية ذلك الفلاح الشاب ، أنا وصديقتى الشقراء بسيارتها التى يقودها سائقها الخاص . وخذلتنى صديقتى ولم تذهب معى ، بل على الأصح خذلتنى تلك الأنفلونزا التى أصيبت بها . ولكنى تمردت عليها وعلى تلك الأنفلونزا اللعينة ، وقررت أن أذهب بمفردي، وقد فعلت .

* * *

ما أن وصلنا إلى بنى سويف التى كنت أذهب إليها للمرة الأولى فى حياتى ، حتى سألت عن موقف سيارات الأجرة التى تعمل بين بنى سويف وبين القرية التى يسكن فيها شيخنا الشاب ، حيث علمت أن وسيلة المواصلات الوحيدة التى تذهب إلى هذه القرية هى سيارات نصف النقل ذات الصندوق الخشبى .

ولم يعجزنى أن «أتشعبط» خلف السيارة لأقفز «كالبهلوان» داخلها دون أن يساعدنى أحد ، ولم يضيرنى أن أنحشر بين الفلاحين من الرجال والنساء والصبية والأطفال ، وأنا أتخذ مجلسى على واحدة من الدكتين الخشبيتين المثبتتين على جانبى السيارة ، ولم يزعجنى بعد أن امتلأت السيارة عن آخرها أن تلقى امرأة من الواقفين بطفلها الرضيع فوق ركبتى وقد ابتلت ثيابه التى تركت آثارها الكريمة على ثوبى ، أو تلك القفة التى ظن صاحبها أنه يحملها على حين استقر معظم ثقلها على كتفى ، وتحملت فى صبر تلك الروائح التى امتزجت فيها رائحة العرق والروث الذى علق بأحذية الركاب .

ولكنى أعجزنى وأضارنى وأزعجنى وذهب بصبرى أن اكتشفت أن تلك الرحلة من بنى سويف إلى القرية ، والتى ظننت أنها لن تستغرق أكثر من عشر دقائق قد طالت واستطالت إلى نحو الساعة ، وأن السائق فى مقعده الوثير المريح الذى «لا يكتم نفسه» أحد الركاب يتوقف عند رأس كل «غيط» ؛ لينزل أحد الركاب ليركب مكانه اثنين أو ثلاثة ، بينما تعالت الأصوات و«الزعيق» و«الزق» والتدافع بالمناكب بين الواقفين

والهابطين والصاعدين، وأصبح ذيل ثوبى الواسع حائراً بين الهابطين الذين كانوا يأخذونه معهم في هبوطهم، وبين الصاعدين وهم في طريقهم إلى داخل العربة.

ثم زاد الطين بلة عندما وجدت قفصًا من الحمام وقد استقر على فخذى الأيسر، بينما كانت أم الرضيع التى كانت قد استردت وليدها الذى علا صراخه، وقد جلست مكان الراكب الذى كان عن يمينى بعد أن تنازل لها عنه . . . والتى لجأت إلى إسكاته بإعطائه ثديها الذى سترته بطرحتها، تجلس أو تكاد على فخذى الأيمن.

وشعرت بأن الهواء داخل السيارة لم يعد كافيًا إن لم يكن قد أصبح فاسدًا، وأخذت قطرات العرق تسيل على رقبتى ووجهى لتتسلل إلى عينى، بينما عجزت عن تحريك ذراعى المحشورتين لتجفيف عرقى.

وبدأت أفكر جديًا فى مغادرة تلك العلبة أوالقبر من أجل بعض الهواء النقى، حتى ولو أدى بى الأمر إلى أن أستكمل طريقى إلى القرية سيراً على الأقدام.

وكأنما كان القدر معى فقد توقفت السيارة فجأة، عندما بلغ تفكيرى إلى هذا الحد، ليخبرنى سائقها من خلال الطاقة الصغيرة التى تفصل بين كابينة القيادة وصندوقها، أن هذه هى القرية التى أقصدها.

وبذلت محاولات مستميتة وأنا أشق طريقى داخل السيارة دون أن أترك ورائى جونلتى التى انحشر جزء من ذيلها الواسع بين الجالسين على يسارى وعن يمينى، وأدركت آنذاك وأنا محشورة بين الركاب مدى معاناة سمك «السردين» عندما يعبئونه فى تلك العلب الصغيرة، وإن كانت معاناة ذلك السمك الذى يكون قد مات قبل تعليبه لا يقاس بمعاناتى أنا ومن حولى، فماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟

ونجحت أخيراً فى أن أقفز قفزة بهلوانية إلى الأرض، وأنا أسوى ثيابى، «وأهوى» بيدى على البصمة الكريمة المبتلة التى تركها الطفل الرضيع على حجرى، وأحشر البلوزة مرة أخرى داخل الجونلة، بعد أن برزت بعض الأجزاء من ذيلها فى فوضى، وأفرد فى محاولات يائسة تلك الأجزاء التى تجعدت و«تكرمشت» خلال ساعة الحشر التى قضيتها فى السيارة، والتى جعلت ملابسى تبدو وكأننى قد أخرجتها من «فم كلب».

وأخذت أسوى شعرى المنكوش المتطاير المتمرد بأصابع يدى وأنا أتحسس وأدلك فخذى اللذين تخدرا من ثقل أم الرضيع وثقل قفص الحمام.

كانت بوابة المنزل تفتح على فناء واسع يقع فى آخره ذلك المنزل الأنيق ذو اللون الأبيض بنوافذه الخشبية المغربية الطراز وسلمه الرخامي الذى يؤدى إلى الدور العلوى. وقد تم تبليط أرضية الفناء كله بالرخام الأبيض الذى كاد أن يختفى لونه تحت طبقات «الجلخ» والسواد، على حين صفت أسفل جدرانه أصص نباتات الزينة والورود.

وعبرنا ذلك الفناء متجاوزين باب المنزل الذى يفضى إلى الدور الأرضى، متجهين إلى السلم الرخامى الذى أفضى بنا إلى الدور العلوى، حيث دلفنا إلى حجره استقبال فسيحة فرشت عن آخرها بالموكيت الفاخر ذى الوبرة الناعمة الطويلة وكأنه فراء ثمين. بينما انحشر فيها عدد كبير من الأرائك والمقاعد الوثيرة المذهبة والمحفورة «بالأويما» المغالى فيها، والتى كسيت بالأقمشة الفاخرة ذات الألوان المتضاربة المزعجة.

وفى صدر الغرفة قبعت مكتبة هائلة شبه خالية سوى من جهاز ضخم للتلفزيون وكذلك جهاز للفيديو، وفى أعلى رف منها أطلت علينا عروس ضخمة من حلوى المولد النبوى بملابسها الورقية المزركشة، بينما تناثر فى الغرفة بعض المناضد المذهبة الفاخرة التى وضع على كل منها جهاز حديث وثمين من أجهزة التليفونات.

وبينما كنت أقلب بصرى فيما حولى فى تلك المتناقضات، انتظاراً لمقدم الشيخ (س)، تناهى إلى سمعى صوت أقدام تصعد السلم الذى ارتقيته لتوى، ثم دخل علىّ الشيخ (س) مرحبًا فى جلباب ثمين من اللون البيج وهو يعتذر عن تأخره بسبب بعض المشاغل والأعمال الخاصة، والتى منعته مؤخراً عن استقبال المرضى، مما فسر لى خلو الفناء أو المنزل من المترددين كما اعتذر أيضًا عن غياب زوجته وأطفاله الذين كانوا فى إحدى زياراتهم العائلية داخل القرية.

واستأذنت من الشيخ (س) فى استخدام الحمام، حيث قادنى إلى الداخل مشيراً إلى الحمام فى زهو وافتخار.

ولاحظت أن ذلك الحمام البديع الذى تكلف عدة آلاف من الجنيهات، لم يسلم هو أيضًا من القذارة وسوء الاستخدام.

ولاحظت من خلال حجرات النوم الثلاث المفتوحة الأبواب على نفس الردهة التى بها الحمام، أنها قد حوت أغلى وأثمن قطع الأثاث التى بدت متنافرة مع بعضها البعض ومع تلك الستائر المصنوعة من الساتان بألوانه الغامقة، ولون الموكيت الذى تبدت قذارته رغم جودة وغلاء نوعه.

وبينما كنا فى انتظار وصول الشاى الذى أمر به، بدأ الشيخ (س) وكأنه فى عجلة من أمره فى القيام بالكشف علىّ لمعرفة سبب الصداع، حيث وضع يده اليمنى على رأسى وقد أغمض عينيه للحظات وكأنه فى حالة من الاستغراق، ثم رفعها وهويعود إلى مقعده، ليخبرنى أننى فى حاجة إلى علاج روحى وأن ذلك العلاج لن يكون عن طريق الأدوية، وإنما عن طريق الوساطة الروحية، وأنه غير مستعد حاليًا للبدء فى ذلك العلاج، وأن علىّ الاتصال به بعد أسبوع لتحديد موعد آخر.

ولم ألح عليه ولم أعترض على تأجيل موعد العلاج، ولم أشر من قريب أوبعيد إلى رحلتى العجيبة الغريبة، كان يكفينى أنه قد وعدنى بالعلاج.

وانصرفت بعد أن شكرته، وأنا أفكر فى عذاب رحلة العودة وعذاب رحلتى التالية من القاهرة إليه فى الأسبوع القادم.

ولعنت الصداع، ولعنت ذلك اليوم الذى زارنى فيه، ولعنت الطب الذى خذلنى. وعدت إلى القاهرة وأنا أحمل لعناتى.

* * *

ومرت ستة أيام من الانتظار، وحل اليوم السابع عندما اتصلت به. وذهبت إليه فى الموعد الثانى الذى حدده لى، وتكررت تفاصيل رحلتى الأكروباتية الهزلية. ولم أجده، استدعت بعض الظروف سفره إلى القاهرة.

* * *

دخلت على زوجته فى ذلك اليوم فى الدور الأرضى ورأيتها للمرة الأولى، شابة على قدر من الجمال ترتدى الملابس الفلاحية بألوانها الزاهية، وتلف رأسها بمنديل رأس أحمر اللون، بينما جلست على الأرض على حصيرة بلاستيكية منقوشة تم فرشها على سجادة من الموكيت الفاخر الممتدة من الحائط إلى الحائط، وإن بدت الأماكن الظاهرة منها وقد علاها الوسخ والبقع.

وتربعتُ جالسة على الأرض بالقرب منها بعد أن رفضتُ أن تستضيفنى فى الدور العلوى بحجة أننى من هواة الجلوس على الأرض، وبدأت أشاركها تنقية تل الأرز الذى افترش الطبلية التى كانت أمامنا، بينما أخذ أطفالها الأربعة الذين تراوحت أعمارهم بين الستتين والسبع السنوات فى الجرى واللعب والصياح فى الفناء ذى الأرض الرخامية، وقد ساروا جميعًا حفاة رغم برودة الجو.

ولاحظت أن أصغر طفلين لا يرتديان ملابسهما الداخلية، وقد أخذا يشاركان في الصخب واللعب، ولمحت واحدا منهما من خلال الباب المفتوح وهو يقضي حاجته على رخام الفناء الثمين، بينما قلبت الطفلة الأخرى أحد أصص نباتات الزينة وأخذت تعجن طينها على الأرض الرخامية، وتشكل منها بعض العرائس الطينية.

وعلمت من الزوجة أن هذا المنزل قد تم بناؤه منذ شهور فقط، حيث كانا يسكنان وأولادهما مع عائلة زوجها في بيتهم الطيني، وأن زوجها قد أصبح دائم التردد على القاهرة لقضاء بعض مصالحه، وأنه لم يعد يمارس العلاج إلا في أضيق الحدود بسبب تلك القضية التي أقيمت ضده لممارسته الطب بدون ترخيص، وأن عليّ الاتصال به مرة أخرى لتحديد موعد جديد.

وغادرت القرية وأنا أنوء بخذلاني متجهة إلى القاهرة. **خذلني الطب والأطباء، وخذلتني الأرواح كما خذلني الجان، وخذلني الفلاح الشاب «المودرن» الشيخ (س).**

* * *

وعدت مرة أخرى إلى القرية في الأسبوع التالي بعد أن أكد لي الشيخ (س) تليفونيًا عزمه على علاجي هذه المرة. ولم أجده في انتظاري. ولم تقابلني زوجته الشابة الجميلة، أو أطفاله نصف العرايا. وقال أحد الجيران إنه قد سافر إلى القاهرة في اليوم السابق، وأن زوجته وأطفالها في زيارة لأسرتها بالقرية المجاورة.

وأقبلت قبل أن أغادر مكان البوابة سيارة مرسيدس سوداء من أحدث طراز، وهبط سائقها مسرعًا ليفتح الباب لرجل أسمر في زيه الخليجي، وتبعته في خفر وحياء شابة نحيلة سمراء غطت رأسها بغطاء سميك أسود، وارتدت عباءة سوداء فضفاضة، كشفت في أثناء مغادرتها للسيارة عن ثوب رائع ثمين تحتها.

وارتسمت على وجوههم علامات خيبة الأمل عندما علموا بغيابه عن المنزل، قائلين بأنهم قد جاءوا إليه خصيصًا من بلدهم البعيد، بعد أن سمعوا عن قدراته الخارقة في علاج العقم الذي عجز أطباء العالم عن علاجه.

وغادرت القرية في طريقي إلى القاهرة، وتركتهم ورائي وقد جلسوا في السيارة أملا في معجزة من السماء تسوقه إليهم.

* * *

ولم أعرف ولن أعرف مطلقًا ما إذا كانت المعجزة قد تحققت أم لا . ولكنني عرفت سر المبنى الفخم والأثاث الثمين والرخام الذى لم أر شبيهًا له إلا حول الكعبة المشرفة . **وعرفت لماذا يتهرب مني. عرفت ذلك عندما شاهدت زواره الخليجيين. فأنا لا أمتلك سيارة مرسيدس على آخر طراز، ولا أمتلك بئر بترول.**

* * *

وبعد أن عرفت؛ قررت ألا أعود إليه وإلى قريته مرة أخرى . ولكن حدث أن رأيته خمسة أعوام، ولم يكن يشبه ذلك الفلاح الذى أعرفه عندما رأيته ، كان يقود سيارة دس من أحدث طراز .

قابلته صدفة فى أحد شوارع القاهرة، وأخبرنى أنه يقيم فيها إقامة دائمة ، بعد أن أصبح ن رجال الأعمال، وأنشأ شركة باسمه فى أحد أحيائها الراقية . وعلمت منه أنه لا يزال يمارس العلاج . وتذكرت شحططتى من القاهرة إلى قريته . وشيعته بابتسامة ساخرة ، وأنا أمزق الكارت الأنيق الذى يحمل اسمه وأرقام تليفونات شركته .

ووجدتنسى أقهقه عندما تذكرت ابنه وهو يقضى حاجته على الرخام الفخم الثمين!

عندما دفعت ثمن العلقة!

أصبحت قصة هذه «العتبة» من القصص التى تثير ضحكاتى الهستيرية كلما تذكرت تفاصيلها. فقد عبرت هذه «العتبة» وجسمى «صاغ سليم». **وخرجت منها وأنا أقول... آه...**

* * *

طاردت صديقتى تليفونيًا عشرات المرات حتى تأخذ منه موعدًا؛ لنذهب سويًا إلى ذلك الشيخ الذى لم أعد أذكر اسمه.

كان زميلاً لنا فى كلية الآداب، ولم أكن أعرفه عن قرب، ولم يسبق لى رؤيته إلا بصورة عابرة رغم أنه كان صديقًا لزوجى فى بعض الفترات.

وأخبرتنى صديقتى عن مرض والدته الحاد، وكيف أن ذلك الشيخ قد تمكن من علاجها، بعد أن يئست من الأطباء ويئسوا منها.

وتناسيت الأمر لعدة شهور. إلى أن مررت بمرحلة من التمرد على الطب والأطباء، وعلى الأدوية التى كنت أتعاطاها من كل صنف وشكل ولون، لذلك اتصلت بها.

* * *

كان زميلنا يتردد أسبوعيًا على أسرته التى تقيم فى إحدى قرى المنوفية، وحدد لصديقتى موعدًا، بأن ننتظره آخر كوبرى بنها ليصحبنا إلى ذلك الشيخ الذى يعتقد فى كراماته وقدراته.

وقُدتُ سيارتى وربما لأول مرة فى الطريق الزراعى ذلك الطريق المجنون، الذى لا ضابط ولا رابط فيه للسيارات الخرقاء المسرعة.

والتقطنا زميلنا من المكان الذى تم تحديده والذى أقسم أغلظ الأيمان، بأن والدته قد أعدت الفطير المشلتت خصيصًا من أجلنا، وأن علينا أن نعرج أولاً على قريته للتعرف على

والدته، وتناول الطعام، ثم نتوجه بعد ذلك إلى القرية التى يقيم بها ذلك الشيخ الذى نقصده.

وعدت بعد أن خرجنا عن الطريق الزراعى الرئيسى. أقود سيارتى فى الطرقات الفرعية المتربة، وأنا أحاول إيهام نفسى بأننى فى نزهة خلوية وإرغامها على الاستمتاع بمنظر الحقول الخضراء المترامية، التى تلتقى فى الأفق مع صفحة السماء الزرقاء الصافية، وحاولت أن أتناسى ما ينتظرنى من آلام ومعاناة إذا ما بلغ الصداع أقصى مداه، وعندما يكون النوم أو على أقل تقدير الاستلقاء على الفراش، مخرجى الوحيد.

وتأكد لى خلال تلك الرحلة أننى سائقة ماهرة، فلم أصطدم بسيارتى بأى من الأبقار أو الحمير التى كانت تفضل السير فى وسط الطريق، أوتلك التى كانت تعبر الطريق فى بطء وهى تنظر إلينا فى لامبالاة، ولم تطو عجلات سيارتى فرخة أو كتكوتًا أو أوزة تحتها وأنا «أفركش» تجمعاتها فى وسط الطرق الضيقة الملتوية، ولم تنزلق عجلات سيارتى إلى ذلك المصرف، الذى لم يترك لنا سوى ذلك الممر الترابى الضيق الذى أخذت فى اجتيازه «على الشعرة» كما يقولون.

ويبدو أننى قد أصبحت «فرجة» بحكم العادة، فقد لاحظت كلما هدأت من سرعة سيارتى أن الفلاحين الذين مررنا بهم وهم يعملون داخل حقولهم قريبًا من الطريق، يتركون ما بأيديهم؛ ليتطلعوا تجاهى فى استغراب وأنا أقود السيارة، وأن النساء اللائى كن مشغولات بغسل ملابسهن وأوانيهن عند «حرف» الترعة، ينهضن فى عجلة واقفات وقد انصرفن عما كان يشغلهن؛ «ليبحلقن» فى اندهاش ممزوج بحب الاستطلاع لهؤلاء الأغراب الذين يتوجهون إلى قريتهن، ثم يتابعننا كما كنت أراهن فى مرآة السيارة، وقد أخذن يظللن بأياديهن على عيونهن حتى بلعتنا أزقة القرية واختفينا عن الأنظار.

ووصلنا إلى منزل زميلنا الذى كان يشرف من بعض جوانبه على الحقول الخضراء المترامية، حيث قابلتنا والدته المسنة البسيطة الطيبة التى ما فتئت تردد كلمات الترحيب والمجاملة كلما عادت بطبق فى يدها إلى المكان المتسع الذى افترشناه خارج المنزل أمام «الطبلية».

وذكرتنى تلك السيدة، بجدتى يرحمها الله، وذكرتنى المفردات اللغوية التى كانت تعبر بها عن سعادتها بحضورنا، بذلك القاموس الجميل الذى كانت جدتى تتخير منه كلمات الترحيب والتهليل التى طالما أغرقتنى بها، خاصة بعد أن تم إعلان معاهدة الصلح بينى وبينها بعد أن تجاوزت مرحلة شقاوتى الطفولية.

وغمرني نوع من السلام والأمان وأنا أنقل بصري بين وجهها الأبيض الممتلئ وملامحها الهادئة الحنونة ، وبين ذلك الفراغ الأخضر اللانهائي الذي يمتد إلى آخر البصر ، وتذكرت للمرة الثانية جدتي ، وتذكرت معها أبي ، وعصر قلبي حنين قاسي لتلك الأيام الخوالي التي ذهبت ولن تعود ، وغمرني شوق هائل للمسة يد أبي ، وشوق أشد لحضن جدتي ، ومددت أصبعي خفية من تحت نظارتي الشمسية لأمسح دمعة متمردة لم أستطع حبسها .

* * *

كنا قد غادرنا منزل زميلي منذ نحو نصف الساعة بين دعاء والدته لي بالشفاء ، وعبارات التعبير عن سعادتها بهذه الزيارة القصيرة ، وبين محاولة تفادي ذلك الجمع من الأطفال على اختلاف أعمارهم الذين تجمعوا حول السيارة لمشاهدتنا عن قرب .

وشققت بالسيارة الطريق في الدروب والطرق المتربة بعد أن خرجنا من القرية ، حتى بلغنا مقصدنا في القرية التي يقيم بها ذلك الشيخ .

وما أن توقفت بسيارتي أمام باب بيته المتواضع المبني بالطوب الأحمر ، حتى أسرع زميلنا يتقدمنا وهو يشق لنا الطريق بين كم هائل من الناس ، الذين جاءوا زرافات أو وحدانا والذين جاء معظمهم من بعض المناطق البعيدة التي دلت عليها لوحات سياراتهم وميكروباصاتهم .

وما أن أعلن زميلنا عن اسمه لأحد الرجال الذين كانوا يقومون بتنظيم دخول الحشود المتزاحمة حول منزل الشيخ ، حتى أسرع بفتح الباب ثم أغلقه بسرعة فور دخولنا .

واستقبلنا الشيخ في حجرته المتواضعة وقد جلس على طرف سرير فيها بينما جلسنا ثلاثتنا على دكة خشبية في مواجهته .

كان الشيخ رجلاً أميل إلى البدانة في نحو الستين من عمره وكان عنقه الغليظ الأسمر المجعد يحمل رأساً ضخمة يعلوها شعر فضي كثيف مجعد . وشمر الشيخ كميه وهو يستعد للقيام بالعلاج الذي لم يكن لدي أي فكرة عن نوعه ، بعد أن أخبرته أنني أعاني من صداع دائم لا ينقطع ، ومن آلام في العمود الفقري حيث كان قد طلب مني أن أخبره عن كل ما أعاني منه مرة واحدة حتى يكون العلاج متكاملاً ولا أضطر للعودة إليه مرة أخرى .

وارتسمت داخلي ابتسامة السعادة والانشراح ، وأخذت أردد في نفسي وأنا أقول :

والله «باضت» لك في القفص يا نادية، ده مش حيعالج الصداع بس، ده حيعالج ظهري كمان.

ونهضت من مكاني، وجلست على السرير وقد ثنيت ركبتي كما أمرني، بعد أن قام بفرد ملاءة خفيفة على نصفي الأسفل رغم ارتدائي للبنطلون، وشعرت به وقت أوليته ظهري، وقد اعتلى السرير من خلفي، وفي لحظة خاطفة لم أشعر إلا بيديه وقد أحكمها بشدة على جانبي رأسي، وبسرعة خاطفة قام بلف رأسي إلى اليمين ثم إلى اليسار في عنف وقوة وسرعة، وشعرت مع صرختي المدوية التي انطلقت رغمًا عني، أنه قد نزع رأسي عن رقبتي وأن ذلك الصوت الهائل الذي ربما يكون قد دوى في الغرفة هو صوت تحطيم فقراتي العنقية، وما أن رفعت يدي إلى رقبتي لأطمئن أنها في مكانها ولم «تطلع» في يده، حتى شعرت بيدين تحكمان قبضتهما على كتفي، وفي لمح البصر سدد في ظهري ضربة هائلة وكأنها ركلة ثور هائج؛ شعرت معها إلى جانب صوت الطقطقة التي صدرت منه، وكأن فقراتي في منطقة الخصر قد تفككت الواحدة من الأخرى.

وعلمت فيما بعد من رفيقاي أنه قام بضغط ركبته على ظهري بقوة، بينما كان يمسك كتفي بيده، ليتمكن من تسديد ضربته القوية.

ولست أدري كيف هبطت من فوق السرير، ولا كيف خرجت من عنده وأنا أعرج ولا أستطيع «صلب طولي»، كل ما أذكره أن يدي في ذلك اليوم قد احتارتا بين رقبتي التي شب فيها الألم، وبين «وسطي المفكك» الذي لم أعد أستطيع أن «ألم عليه».

وحتى الآن وكلما تذكرت ذلك الموقف لا أستطيع أن أتخيل أو أتصور تلك السرعة الفائقة الخارقة لهاتين الحركتين السريعتين اللتين خيل لي من فائق سرعتهما أنهما قد تمتا في وقت واحد.

* * *

وعدت يومها إلى بيتي أحمل صداعي، وأحمل معه آلام رقبتي وظهري، وعرفت لأول مرة أن هناك من «المغفلين» أمثالي من يدفع للفتوات أموالا في مقابل أن يحصلوا منهم على «علقة»، عندما رأيت زميلي وهو يضع خمسة جنيهات في يد الشيخ.

وطبعًا الصداع «لا راح ولا يحزنون». ولكم أن تتساءلوا: هل «حرمت»؟ هل قلت توبة من «دي النوبة»؟ ولي أن أرد عليكم قائلة: لأ، طبعا لأ.

وإليكم حكاية من حكاياتي...

الطريقة «السافلة» لإبطال «العمل» السفلى

كانت صديقتى الشقراء التى كنت قد أخذتها معى إلى الجمعية الروحية فى محاولة منى لعلاجها من حالة الشلل الرعاش الذى تعانى منه، قد انقطعت عنى أخبارها لعدة أسابيع عندما سمعت صوتها على الطرف الآخر من التليفون، وهى تصيح مهللة بأن زوجها قد كسب القضية التى كان قد رفعها ضد بعض خصومه والتى تعنى أنه سوف يحصل على مستحقاته المالية التى تبلغ عدة ملايين.

وأخبرتنى كيف أن القدر قد ساق لها فى طريقها رجلاً ذا كرامات وقوى خارقة، والذى تمكن من خلال تسخيره للجان أن يلعب دوراً أساسيّاً فى أن تحكم المحكمة لصالح زوجها ضد خصومه.

ولم «يدخل» هذا الكلام عقلى، وسألتها عما إذا كان قد نجح فى علاجها، فإذا كان موضوع القضية لم يأت من باب المصادفات فقط، فقد كان من الأولى أن يقوم بعلاجها من مرضها، وردت على قائلة إنه قد وعدها بالعلاج عندما يستطيع الحصول على نوع معين من البخور الذى لا يوجد إلا فى الهند فقط، وأنه سوف يبدأ العلاج فور حصوله على هذا البخور.

وأخبرتنى خلال تلك المكالمة، أنها قد تحدثت معه عن حالتى، حيث أخبرها أن ما أعانى منه حالة بسيطة يستطيع علاجها فى جلسة واحدة.

وكالعادة «ما كدبتش خبر»...

وذهبت...

* * *

كانت صديقتى الشقراء سيدة ثرية وزوجة لأحد كبار رجال الأعمال ويمتلكان عمارة فاخرة كبيرة فى أحد الأحياء الراقية بمصر الجديدة، حيث كانا يسكنان فى طابقيها

الأخيرين على اتساع مساحة العمارة ، والتى كانت بمثابة ڤيلا فاخرة فى الدورين الثانى عشر والثالث عشر ، يصل ما بينهما سلم داخلى عريض من الخشب الفاخر .

وكانت صديقتى سيدة متدينة إلى حد كبير ، حيث اعتادت أن تقرأ يوميًا فى المصحف بعد أن يأوى زوجها وابنتها إلى فراشهما ليلاً مجموعة معينة من الأوراد . ثم تمسك بالمصحف بعد ذلك ، وتبدأ فى التلاوة حتى صلاة الفجر حيث تصلى ، ثم تنام .

وأخبرتنى فى يوم من الأيام بأنها فى أثناء تلاوتها للقرآن ، كانت تشعر بأن هناك خيالاً غامضًا قد يمرق من أمامها بسرعة ثم يختفى ، ومع مرور الأيام أصبح ذلك الخيال يتشكل لها على هيئة امرأة قبيحة مشعثة الشعر تنظر إليها فى غضب ، وهى تخطر أمامها ، ثم تختفى من خلال جدار الحجرة .

واستعانت صديقتى ببعض الشيوخ الذين أخبروها أن ما تراه هو جنية تسكن المكان وأن هذه الجنية تريدها أن تترك ذلك المكان الذى تقرأ فيه القرآن .

وبدأت تلك الجنية تطاردها أينما جلست تتلو فى المصحف ، دون أن يصدر عنها أى نوع من الضر أو الأذى ، فهى تظهر فجأة أمامها ، ثم تتجه إلى الحائط لتغيب فيه .

وتعايشت صديقتى مع هذه الساكنة ، ولم تسع إلى العمل على طردها أو محاربتها ، فلم تكن تظهر لأحد آخر من أفراد الأسرة ، كما أنها اعتادت على رؤيتها كل ليلة تقريبًا دون أن يهتز لها شعرة ، وكأنها واحدة من شغالاتها الفلبينيات اللائى يقمن على خدمتها وأسرتها . إلى أن جاء يوم .

اتصلت بى صديقتى وهى تصرخ قائلة إن السيارات التى يمتلكونها قد أصابها جميعًا سرطان الزجاج فى يوم واحد وفى وقت واحد ، وأن ذلك الحادث يبدو أنه تكملة واستمرار لبعض الحوادث الأخرى التى لم تنتبه إلى مغزاها من قبل ، والتى كان من بينها اشتعال النيران فجأة فى كل حجرات مكتب زوجها فى الدور الأرضى من العمارة وتكرار ذلك أكثر من مرة ، والتى تعنى أن هناك حملة من الجان عليها وعلى ما يخصها .

ولم أتشكك كثيراً فيما قالته صديقتى ، فقد كانت على قدر كبير من التعقل والاتزان ، كما كانت رغم مرضها تتميز بجهاز عصبى قوى لا يدع مجالاً للهذيان والهلاوس والخيالات لأن يسيطروا عليها .

واتصلت بالشيخ (ع) رحمه الله ، ذلك الرجل الذى قلت عنه عندما تناولت قصته

معى إنه كان نورانيًا رغم سمرته، وحددت معه موعدًا لزيارة صديقتى الشقراء، لمعرفة ما إذا كان ما يحدث داخل ڤيلتها عملاً من أعمال الجن، أم أنه كان مجرد مصادفة.

وفى اليوم المحدد وبعد أن اتصلت بى صديقتى لتروى لى ما حدث من حيث إرسال سيارتها وسائقها لإحضار الشيخ (ع) وإعادته لمنزله، وكيف أنه شعر بوجود الجن فى المنزل مجرد أن وطأته قدماه.

وأخذت تصف فى انبهار وتعجب ذلك القدر الهائل من القوة والنشاط، الذى تملكه وهو يجرى فى طول الشقة وعرضها وكأنه شاب صغير رغم مرضه وشيخوخته، وكيف أخذ يتنقل من حجرة إلى أخرى، ومن الدور السفلى إلى العلوى للڤيلا، وقد رفع عصاه إلى أعلى وهو يطوحها يمينا ويسارًا، ويهوى بها فى فراغ الغرفة، وقد علا صوته وهو يتلو الآيات القرآنية تارة، ويستمطر عليها اللعنات تارة، ويهشها بعصاه ليطردها وكأنه يراها تارة أخرى، وهو يأمرها بالانصراف ومغادرة المكان.

اتصلت فى ذلك اليوم بالشيخ (ع) الذى أخذ يستعيذ بالله عشرات المرات، وهو يشرح بكلماته المتعثرة غير الواضحة تمامًا أنه لم يسبق له أن رأى مثل هذا العدد من الجن الذين يسكنون فى مكان واحد، وأنه وجد أن كل حجرات الڤيلا الاثنتى عشرة مسكونة عدا حجرة واحدة، وأنه بعد أن صرف الجن من كل الحجرات توجه إلى مكتب الشركة أسفل العمارة، حيث وجده مسكونًا أيضًا، وأنه قد أصبح واثقًا من أن جميع السكان من الجان قد خرجوا من المنزل إلى غير رجعة.

ومنذ ذلك اليوم لم تعد صديقتى تعانى إطلاقًا وبأى صورة من الصور حدوث أى ظواهر غير طبيعية أو ملفتة للنظر فى بيتها.

* * *

رغم أننى قد عايشت بعض الظواهر الغيبية الخارقة إلا أن ما سمعته من صديقتى رغم إيمانى بعدم اهتزاز شخصيتها وما سمعته من الشيخ (ع) ذلك الرجل الصالح، كان من الأشياء التى يصعب على العقل تصديقها، ولن أدعى أننى أرفضها رفضًا مطلقًا، أو أن أقبلها بصورة مطلقة، حيث لم أكن طرفًا فيها، ولم أعايش أحداثها حتى أصدر حكمًا حولها.

إلا أن ما حدث أمام عينى وعايشته ولمسته بيدى هو ما حدث فى بيتها، وكنت أنا طرفًا فيه.

ولنعد إلى الحكاية.

كانت صديقتي تجلس في حجرة الصالون وقد مدت ساقها الموضوعة في الجبيرة على أحد المقاعد، حيث كانت قد أصيبت بشرخ إثر تعثرها على سلم القيلا منذ أيام. عندما قادتني إليها الشغالة الفلبينية التي فتحت لي الباب.

ولم أكد أجلس على المقعد الذي قدمه زوجها لي، حتى أقبل علينا قادمًا من حجرات القيلا الداخلية رجل قصير نحيل شديد السمرة بالغ القبح، يرتدي قميصًا وبنطلونًا، علمت من صديقتي أنه الشيخ (م) الذي جئت من أجله.

وشعرت منذ الوهلة الأولى أن ذلك الرجل يتصرف وكأنه في بيته، أو أنه صاحب حق فيه، كل من فيه، وأحسست أنه يتعمد رفع الكلفة بينه وبين زوجها رجل الأعمال، وكذلك مع ابنتها وخطيبها وكأنه فرد من أفراد الأسرة.

وأدركت حجم غرور ذلك الرجل عندما أخبرني والآخرين بتعبيراته ولهجته الصعيدية أنه قد وافق على علاجي إكرامًا لصديقتي فقط، وأن الطلب المتزايد عليه من أجل العلاج وطرد الجن وحل مختلف أنواع المشكلات نظرًا لشهرته الكبيرة وذيوع صيته؛ جعل كل مواعيده محجوزة لعدة شهور.

وبدأ الشيخ على الفور في استعراض مهارته على مرأى من الجميع، حيث كان يوجد بالإضافة إلى أفراد الأسرة سيدة في منتصف العمر وزوجها وهما من أصدقاء الأسرة المقربين.

وأشار الشيخ (م) إلى مفكرة كبيرة موضوعة على المنضدة المنخفضة التي أمامي بجوارها قلم، وطلب مني أن أكتب اسمي واسم والدتي والشكوى التي أشكوها على ورقة منها.

ولم آخذ ورقة من المفكرة كما أشار عليَّ، بل فتحت حقيبة يدي، وأخرجت ورقة كنت قد كتبت على جزء منها بعض الأشياء التي أود شراءها، حيث قطعت الجزء الآخر الخالي من الكتابة.

وما أن بدأت في الكتابة على القصاصة حتى قام من مكانه المجاور لي حتى يقطع علينا الطريق أن نتشكك في قيامه بأي عمل من أعمال الحواة أو الدجالين، وما إن انتهيت حتى طلب مني تطبيق الورقة إلى أصغر حجم ممكن، وأن أطبق عليها يدي، وأن أضع يدي وراء ظهري.

وظل الشيخ (م) جالسًا فى مكانه وقد أغمض عينيه ، ثم طلب منى أن أفتح الورقة ، وأن أقرأ ما كتبه الجنى الذى يسخره خلفها .

وقرأت وأنا أكاد لا أفهم شيئًا بأن هناك عملاً سفليًا قد تم دفنه فى مكان ما ، وأنه لن يحل إلا بالطريقة السفلية ، فلم أكن أعرف معنى كلمة «سفلى» ، وإن كنت أدرك أنها تعنى شيئًا شريرًا للغاية .

وظننت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، وأنا أسترجع بعض الأحداث المشابهة التى مررت بها منذ عدة سنوات من حيث الكتابة مجهولة المصدر التى كتبت على ظهر الورقة ، ولكننى أدركت أن القصة لم تكتمل بعد عندما وجدته ينادى إحدى الشغالات . ويطلب منها أن تحضر الجردل المملوء بالرمل ، الذى تحتفظ به صديقتى من أجل كلبها الصغير حيث أخبرنى أن الجان الذين يسخرهم سوف يحضرون هذا «العمل» حالا وفى غمضة عين .

ثم طلب منى أن أجلس على السجادة فى مواجهة النافذة المفتوحة ، وأن أغترف بيدى قدرًا من الرمل وأضعه على إحدى الجرائد التى قمت بفرشها أمامى .

وكان الشيخ (م) لا يزال فى مكانه عندما أفلت يد زوج صديقتى ، وطرقع بأصبعيه فى الهواء ثلاث مرات ، ثم عاد يمسك بيده مرة أخرى ، حيث رأيت لفافة من القماش غريبة الشكل فى حجم كف اليد تستقر فوق الرمل من حيث لا يدرى أحد .

وظل الشيخ (م) جالسًا مكانه وهو يطلب منى أن أحل هذه اللفافة لأرى ما فيها ، وما أن حللت قطعة القماش المتهرئة القذرة ذات الرائحة الغريبة ، حتى وجدت بداخلها ورقة مطوية بها كتابة عربية حروفها غير مشبوكة بعضها إلى بعض ، واستطعت قراءتها بسهولة ، فقد أصبحت «واحدة خبيرة» فى قراءة خط يد الجن .

وقرأت فى تلك الورقة وأنا أتلوها أمام الجميع بصوت عال ، أنها قد كتبت قرد ، وأنه نوع من السحر أو «العمل» الذى تم دفنه منذ سنوات فى إحدى المقابر البعيدة ، وأن ذلك العمل كان يستهدف إيذائى أنا فلانة بنت فلانة ، وإصابتى بالصداع ، وأنه من أنواع الأعمال السفلية ، التى لا يمكن إبطالها إلا باستخدام الطريقة السفلية .

وما أن انتهيت من قراءتها ، حتى غادر الشيخ (م) مكانه وتقدم منى بعد أن عدت إلى مقعدى ، وجلس على المقعد الملاصق لى ، ثم انحنى علىَّ وهو يتحدث إلىَّ همسًا بينما انشغل عنا الباقون بالتعليق عما حدث أمامهم .

وأخبرت الشيخ (م) وأنا أهمس أيضًا بأنني قد مررت بمثل هذه التجربة من قبل، وأنني لم أجد أي جدوى من ورائها، حيث أكد لي أن الطريقة التي يستخدمها تختلف عن طرق الآخرين، وأنه سوف يستخدم الطرق السفلية في إبطال ذلك «العمل».

وعندما سألته عن معنى عمل سفلي وعن كيفية إبطال السحر بالطريقة السفلية؛ أجابني أنني سوف أعرف ذلك في حينه.

ثم عاد يسألني بطريقة تجمع بين الاتهام وإقرار للواقع وهو ينظر في عينيّ عما إذا سبق لي أن «انخدعت»، وأجبته بأنني قد خدعت بضعة مرات.

وعاد يسأل عما إذا كنت قد «انخدعت» من قبل بعض الرجال الذين كنت أقابلهم لأول مرة.

وأجبته أن ذلك قد حدث في بعض المرات، ثم عقبت بقولي: إن أي عملية من عمليات النصب والخداع لا تكون بالضرورة من جانب الرجال فقط، وإنما من الممكن أن يقوم بها النساء أيضًا.

وكأنما أراد أن يضع حدا لذلك الحديث حيث انتقل للحديث في موضوع آخر، وأدركت فجأة أننا لا نتحدث عن نفس الشيء، وأن ما يقصده بكلمة «انخدعتي» والتي ظننت أنه ينطقها بطريقته الصعيدية يعني بها شيئًا آخر.

ولم أكن أعرف وقتها معنى تلك الكلمة، وإن كنت قد أحسست من خلال حواري معه بإحساس غامض بأنها ذات مغزى جنسي، وهو ما عرفته بعد ذلك بعدة سنوات.

* * *

انصرفت في ذلك اليوم على وعد من الشيخ (م) أن يخطرني عن طريق صديقتي بالموعد التالي، بعد أن يكون قد استكمل إجراءاته الخاصة بإبطال هذا «العمل».

ومضى نحو أسبوع اتصلت بي خلاله صديقتي كما اتصلت بها أكثر من مرة، حيث كان الشيخ (م) يتردد عليهم يوميًا تقريبًا، حتى بدا لي أنه شبه مقيم لديهم.

وكانت لا تفتأ تردد ضاحكة تلك العبارة التي كان الشيخ (م) يرددها، كلما جاء اسمي على لسانها أمامه، حيث كان يقول بلهجته الصعيدية الحماسية.

ـ الدكتورة نادية دي حلوة جوي جوي.

وأخيراً حل الموعد، وطلب الشيخ (م) أن يراني حتى «يحل» ذلك العمل السفلي، وذهبت وكأنني أطير وأنا أمني نفسي بأنني سأعود إلى منزلي بعد ذلك، وأنا أحمل فوق جسمي رأساً آخر كرءوس «البني آدمين» غير مثقل بآلام الصداع.

ولكن خاب أملي!

لم أعد ومعي صداعي فقط، بل عدت ومعي صداع التجربة المرة التي مررت بها مع ذلك الرجل صاحب الوجه القبيح، الذي كانت نواياه وأخلاقه أكثر قبحا من وجهه.

* * *

لم يكن في البيت أحد عندما ذهبت إلى صديقتي سواها وذلك الرجل، وكذلك الشغالات اللاتي يقمن في جناح خاص بهن من أجنحة الڤيلا الكبيرة.

وكانت صديقتي تتسلى بمشاهدة التلفزيون عندما أعلن الشيخ رغبته في أن نكون أنا وهو على انفراد للبدء في الإجراءات الخاصة بإبطال العمل، ونهضت صديقتي تحاول الانصراف من حجرة المعيشة لتخلي لنا المكان وهي تحاول الاتكاء على ذراعي، عندما أشار إليها يعيدها إلى مكانها، معلنًا عدم رغبته في إزعاجها وإقلاق راحتها، وأنه سيأخذني إلى الجزء الداخلي من الڤيلا بعيداً عن ضوضاء الشارع، وتجنبا لأن يقطع عليه عمله واحدة من الشغالات أو أي زوار آخرين.

وتركنا غرفة المعيشة بينما كان صوت صديقتي يردد قولها: بأن الڤيلا كلها تحت أمره، وله أن يختار المكان الذي يريده.

وسرت وراءه «**كالهبيلة**» وأنا أمر بين عدة صالونات، وإذا به يتوجه إلى إحدى الممرات الجانبية ويفتح باب إحدى الحجرات، ويدلف إليها وهو يقول إن ذلك هو المكان المناسب.

وتسمرت على باب الغرفة كالمشدوهة، فقد كانت إحدى غرف النوم.

وأفقت من ذهولي وهو يطلب مني أن أتقدم للداخل، بينما كان قد سبقني للجلوس على طرف السرير.

وسألته في اندهاش وأنا ما زلت «متسمرة» في مكاني عند الباب:

ـ إشمعنى الأوده دي؟ ما الڤيلا فيها ميت مكان يتقعد فيه.

ورد علي الشيخ (م) متأففا وهو يقول :

ـ إنتى باين عليكى حتتعبينى .

ثم أردف قائلا باستنكار ، وهو يحاول اللعب على الوتر الحساس :

ـ هوه إنتى مش عايزة تخفى والا أيه؟

ورددت عليه فى شبه عناد وأنا أقول :

ـ طبعا عايزة أخف ، أمال أنا جاية ليه ، إنما لازم أعرف الأول إنته حتعمل إيه؟

وترك الشيخ (م) مكانه وتقدم منى ، هو يحاول جذب ذراعى بلطف إلى الداخل . حيث انتزعته منه بقوة ، بينما كان يقول فى شبه توسل :

ـ اعملى معروف طاوعينى فى كل اللى حاعمله ، أنا عايزك تخفى .

وعدت إليه مرة أخرى كطفلة عنيدة قائلة :

ـ ما هو أنا لازم أعرف الأول إنته حتعمل إيه؟

ولم يصبر علىّ طويلاً ، كشف القناع بسرعة عن نواياه الخبيثة ، فانطلق يقول فى حدة وكأنه يلومنى على سذاجتى :

ـ إيه ، كل ده ما عرفتيش يعنى إيه «العمل» لازم يتحل سفلى؟

وومضت فى ذهنى كالبرق الحقيقة الغائبة ، وقد تسمرت لدى الباب وأنا ممسكة بمقبضه أتكىء عليه وقد أوشكت على الانهيار من شدة ما أحسست به من «قرف» وتقزز ، وأدركت معنى ذلك الجنون المؤقت الذى قد ينتاب القاتل دون سبق إصرار أو ترصد ، وحمدت الله أننى لم أكن أحمل سكينًا لأغرزه فى قلبه الأسود مثل وجهه ، أو أن يكون فى متناول يدى بلطة «لأفلق» بها رأسه نصفين .

ولم أظل واقفة مكانى لاستمع إلى تكملة ما كان يقوله ، انطلقت أجرى إلى حجرة المعيشة حيث كانت صديقتى ، التى فتحت فاها اندهاشا وأنا أختطف حقيبتى اختطافًا ، وأنا أشير لها بيدى أودعها فى عجلة ، بينما كانت تسبقنى قدماى إلى باب الشقة التى اندفعت أفتحه وأنا أهرب بجلدى .

وأخذت أقود سيارتى وأنا ألهث ، بينما أخذت أستعيد فى ذهنى تفاصيل ما حدث ، وتفاصيل الحوار الذى دار بينى وبين ذلك الرجل .

وأدركت مدى جبروت ذلك الرجل الشرير عندما استعدت في ذهني توعده وتهديده لي إذا ما فكرت في التحدث لمخلوق ما عما حدث، وانتابتني رغبة جارفة في أن أبلغ عنه للشرطة، ليس انتقامًا منه فقط، ولكن لأحمي غيري من النساء البريئات الساذجات اللائي قد يوقعهن حظهن العاثر في حبائله.

وعدت أفكر فيما قد أجره على صديقتي وزوجها ذي الشخصية البارزة في المجتمع من مشاكل، وما قد أجنيه أنا أو زوجي أو أبنائي من انتقام ذلك الرجل الشرير، خاصة وأنا لا أملك في يدي أي دليل لإدانته.

وأخذت أجمع خيوط كل ما قالته لي صديقتي عنه، وأدركت أنها وزوجها بالنسبة له «الأوزة التي تبيض ذهبًا» وأنه ما كان يطمع فيها كامرأة، وأنما كان يطمع فيما كانوا يغدقونه عليه من أموال سواء أكانت طوعًا أو كرهًا.

وتذكرت ذلك المبلغ الخرافي الذي طلبه من زوج صديقتي كما روت لي من قبل لشراء ما اسماه بالزئبق الأحمر لعلاجها من الشلل الرعاش، وتلك السيارة الجديدة التي اشتروها له بناء على إلحاحه، وذلك الخاتم ذا الفص الماسي الذي لا يقل ثمنه عن خمسين ألف جنيه، الذي أبدى رغبته فيه عندما وجده في إصبع زوجها.

وتجمعت كل الخيوط.

أدركت أن العلاقة التي تربط بين هذا الرجل الشرير وبين أسرة صديقتي يحكمها القهر الشديد من جانب هذا الرجل لشعوره بضعف هذه الأسرة أمام قوته، والخوف الشديد من جانب أسرة صديقتي من قدرة ذلك الرجل الشرير على إيذائهم، وتسليط الجن لإلحاق الأذى بهم.

وكان ما وصلت إليه صحيحًا.

فقد كان يستقطب الأغنياء ويبتز أموالهم عن طريق استعراض عضلاته بالنسبة لقدرته على تسخير الجن، كما كان يستطيع عن طريق هذا الاستعراض إخضاع النساء اللائي يرغب فيهن جنسيًا.

فما إلا هي عدة أسابيع حتى وجدت صديقتي تتصل بي تليفونيا، وهي تشكو مر الشكوى من ذلك الرجل الذي حول حياتها جحيمًا هي وزوجها.

فقد طغى وتجبر في عملية ابتزاز أموالهما حتى خشيا من الإفلاس إذا استمرا في الانصياع له، وأصبح كلما راوغاه في دفع المبالغ التي كان يطلبها، يهددهما ويتوعدهما

بإيذاء ابنتهما الشابة ، وأنهم أصبحوا لا يردون على تليفوناته ولا يفتحون له الباب طرقه ، وأنه أصبح ينتظرها أو زوجها فى سيارته أمام باب بيتها ، ليسرد عليهم أحاديثهم داخل جدران بيتهم ، وتفاصيل تحركاتهم داخله التى كان يعرفها عن طريق الذين يسخرهم .

وبلغت دقة التفاصيل التى كان يرويها أن بدأت صديقتى تشك فى أن الشغالات الموجودات بالمنزل هن اللائى ينقلن هذه التفاصيل إليه ، لولا إيمانها باستحالة ذلك قدرتهن على الحديث باللغة العربية فيما عدا بعض الكلمات القلائل .

وما هى إلا بضعة شهور حتى علمت أن أسرة صديقتى بالكامل قد هاجرت إلى وإلى الأبد ، بعد أن تم تصفية كل أموالهم فى مصر .

لقد فروا بجلودهم.

لقد هربوا من الإنس ومن الجن.

طارد الجن الذي طاردني

ولأنني كالغريق الذي يتعلق بقشة. ولأنني أبحث عن سيدنا عمر. ولأنني لا أتعلم من أخطائي. ولأنني «ما باحرّمش».

لكل هذه الأسباب عانيت، وعانيت...

* * *

كان ذلك في إحدى أمسيات الصيف الحار عندما جلست في صالون بيتي بمصر الجديدة، بينما امتلأت المقاعد بأختي وزوجها وأولادها، وكذلك ابنتي وإحدى صديقاتي وزوجها.

كنا جميعًا في انتظار ذلك القادم الذي ظننت أنه سيكون بديلا «لسيدنا عمر» الذي أبحث عنه.

دعوني أولاً أقص عليكم قصة **«سيدنا عمر»**.

جاءه يومًا رجل يشكو علة به، وقام «سيدنا عمر» بوضع يده على رأس الرجل، ثم قرأ الفاتحة، وإذا بالرجل يبرأ مما ألم به.

وبعد وفاة «سيدنا عمر» ألمت بنفس الرجل علة مماثلة؛ فقصد أحد الصالحين، وطلب منه أن يفعل مثلما كان يفعل سيدنا عمر معه.

ولم يبرأ.

وعندما سأل المريض الرجل الصالح عن السبب في عدم برئه رغم أنه كان قد برأ عندما قرأها له «سيدنا عمر»؛ قال له الرجل الصالح:

ـــ هذه الفاتحة، فأين عمر؟

أي أن أمر الله وإرادته رهين بالشخص الذي يختاره الله لتحقيق مشيئته ، وأن إرادة الله قد تتجسد وتتمثل في طبيب أو دواء ، أو شيخ ، أو ولي ، أو . . . أو . . .

ولذلك فقد كنت أبحث عن «سيدنا عمر» ، ومازلت أبحث عنه .

❊ ❊ ❊

كان زوج صديقتي يغريني بأن أعرض مشكلة آلام الصداع على أحد الأشخاص . والذي كان يعمل موظفًا في أحد المصالح الحكومية بسوهاج ، والذي كان يتردد على القاهرة لمدة يومين أسبوعيًا لعلاج الحالات المستعصية ، وكذلك علاج السحر والمس الأرضي .

ولم يكن زوج صديقتي الطبيب الكبير يعرف الشيء الكثير عن ذلك الشخص ، فقد رآه مرة واحدة فقط من قبل لدى أحد أصدقائه ، حيث شاهده بعينه وهو يقوم ببعض الأشياء الخارقة للطبيعة .

وظللت لعدة شهور أرفض ذلك العرض أملا في أن تقع يدي في يوم من الأيام على ذلك الدواء السحري الذي لم يخترعوه بعد للذهاب بآلامي . واكتفيت بأن أرتمي على أعتاب الأطباء ، وتجرعت كافة أصناف الأدوية من كل شكل ولون ونوع ، وتجرعت معها آلام الصداع التي لم تفارقني .

إلى أن جاء يوم ، يوم من أيام التمرد على الطب والأطباء ، واتصلت بزوج صديقتي ؛ ليحدد موعدًا مع ذلك الرجل القادم من سوهاج .

وجاء الرجل في موعده .

كان رجلا متوسط الطول معتدل القامة ، يبدو في بدلته الأنيقة وكأنه أحد رجال الأعمال ، تبدو على ملامح وجهه المتناسقة المائلة إلى الاسمرار ، مخايل الذكاء والتوقد .

وحرصت يومها ألا أشعره بأنني أعيش بمفردي ، فجمعت له «ربطة المعلم» ، وشعرت ساعتها أنه قد «اتخض» وهو يرى هذا العدد من الناس .

وتخيلت أنني بجمع «العيلة وعيلة العيلة» أؤمن نفسي ، ولكنني كنت واهمة ، فيبدو أنه قد «استحلاني» رغم أنني تعديت سن الشباب ، وربما أنه كان يريد امرأة ، أي امرأة . . . عندما رآني .

هل كانت مجردة نزوة مؤقتة من جانبه؟

لا.

هل يئس مني بعد شهر، اثنين، ثلاثة؟

«برضه» لا.

لم ييأس إلا بعد سنة كاملة.

* * *

بدأ الرجل الذى أكرمنى الله بأن أنسانى اسمه بعمل استعراضى بارع، عندما طلب منى أن أحضر من المطبخ «حلة» صغيرة، وأن أملأها بالماء إلى المنتصف. وفعلت.

ثم طلب منى أن أضعها على سجادة الصالون بعيداً عنه. وفعلت.

ثم طلب أن نخرج كل ما فى جيوبنا من نقود فضية فئة «الخمسة قروش».

ولست أدرى لم فئة الخمسة قروش، ولم لا تكون فئة العشرة؟

على أى حال.

تجمع لدى فى ذلك اليوم نحو سبع قطع فضية، قمت بوضعها بنفسى داخل الحلة، حيث غاصت فى قاعها فى الحال وأخذ الرجل وكأنه ساحر فى سيرك، ينظر إلينا الواحد بعد الآخر بطريقة استعراضية، ثم التفت إلى الحلة وهو يقول بلهجة آمرة كوميدية:

- لو كنت حضرت، اديني أمارة؟

وبدأ الرجل يصدر أوامره مرة بعد أخرى للقطع الفضية، فإذا بها تقفز واحدة بعد الأخرى فى فضاء الغرفة لتستقر أمامنا على الأرض!

وأراد الرجل أن يزيد من انبهارنا بما كان يقوم به، حيث طلب منى إحضار كوب ملىء بالماء.

وأحضرت له الكوب حيث أمسكه بطرفى أصبعيه، ثم أخذ يوجه بعض الأسئلة إلى الكوب، فإذا بنا نرى الماء من خلال زجاج الكوب الشفاف، وهو يموج ويفور داخلها وكأنه يغلى دون أن يخرج منه أى أثر للبخار، فى الوقت الذى تناسقت فيه حركات الماء علوا وانخفاضاً مع ذلك الهسيس الواضح الذى أخذ يصدر من الكوب والذى بدى كأنه نوع من الكلام غير المفهوم.

وداخلني للحظة الشك في أن الرجل هو الذى يصدر هذا الصوت نظراً لما أعرفه عن قدرة البعض على التحدث من البطن .

وتأكد لى تمامًا أننى كنت واهمة في شكوكى ، عندما وجدته يترجم صوت ذلك الهسيس فى نفس الوقت الذى يصدر فيه من الكوب ، والذى ارتبط بصورة لا يمكن لأحد إنكارها مع درجة تموج وفوران الماء .

وكان الحديث الذى دار بين الرجل وبين الماء ، يتعلق ببعض المعلومات عنى التى لم يكن الرجل يعرف شيئًا عنها من قبل ، وأننى فى حاجة إلى علاج روحى فى صورة عدة جلسات .

ولم أجد أمام تلك الظواهر غير الطبيعية بدا من تصديقه ، وطلبت منه بعد أن أعطيته رقم تليفونى أن يتصل بى بمجرد عودته للقاهرة فى الأسبوع التالى .

وعلى غير انتظار وجدته يتصل بى فى اليوم التالى ، وعرفت من خلال حديثه أنه يعرف أن زوجى مسافر وأننى أعيش بمفردى ، وخمنت أنه بذكائه الواضح قد جمع خيوط الأحداث والأحاديث التى دارت بالأمس أثناء زيارته لى ، ووجدته يعرض علىّ أن يبدأ فى نفس ذلك اليوم وقبل عودته إلى سوهاج فى عقد جلسات العلاج .

وعندما طلبت منه أن يعاود الاتصال مرة أخرى بعد ساعة ؛ حتى أكون قد اتصلت بأحد رجال العائلة لحضور تلك الجلسة ، شعرت من نبرة صوته بشيء من الامتعاض ، وأسرع يقول بأنه فى عجلة من أمره وأنه سيكون لدى فى ظرف عشر دقائق فقط .

وخالجنى الشعور بالتوجس والشك فى نوايا الرجل ، وقررت أن أضع النقاط فوق الحروف منذ البداية ؛ حتى لا أضع نفسى فى موقف لا أستطيع السيطرة عليه .

وسألته وأنا أتصنع البراءة والغباء عن نوعية تلك الجلسات التى سيقوم بها وكيف تتم؟

ولم يجد مفرا أمام إصرارى «**واستعباطى**» من أن يكشف عن نواياه ، التى حاول أن «**يلف**» و«**يدور**» حولها وكانت نواياه لا تختلف عن نوايا ذلك الرجل ذى الوجه القبيح ، الذى هاجرت صديقتى وزوجها إلى أمريكا هربًا منه .

ووجدتنى رغم أنفى «**أقفل**» معه ، وأنا أعلن له استغنائى عن خدماته ، وإن كنت قد استخدمت فى ذلك أسلوبًا دبلوماسيًا ؛ حتى لا أتعرض لإيذائه إذا كان بالفعل من أصحاب القدرات .

واتصل بي مرة أخرى في اليوم التالي مباشرة، واستخدم معي أسلوبًا ناعمًا نعومة الثعابين، ولكنني أصررت على موقفي الرافض للتعامل معه بأية صورة من الصور، وتعللت بأنني سأسافر إلى زوجي لأقيم معه. ووجدته يسألني بلهجة إيحائية خبيثة عما إذا كنت قد لاحظت أن حدة الصداع لدي قد ازدادت عما كانت عليه في اليومين الماضيين؟ وأدركت أنه يلمح لي بأنه قادر على إيذائي، كما أنه يستخدم أسلوبا إيحائيا للتأثير عليّ، ومن ثم التجاوب معه.

وتركت بيتي فعلا لعدة أسابيع، وأقمت عند ابنتي عندما أدركت إصراره على مطاردتي وملاحقتي. واضطررت أخيرًا أن أعود إلى بيتي، فقد كان ذلك شيئًا لا مفر منه، وأصبحت أترك السيدة التي تأتي للقيام بأعمال المنزل ترد على التليفون وتخبره بأنني غير موجودة، أو أدع ابنتي أو زوجها يردون عليه، ثم أصبح ابني يرد على التليفون بعد أن عاد من الغردقة في فترة من فترات حياته للإقامة معي في القاهرة. ولم يتوقف عن مطاردتي حتى بعد أن تأكد من أن هناك من يقيم معي بصفة دائمة.

وأصبح الرد الوحيد لهم جميعًا إذا ما طلبني أحد ممن لا يعرفونه شخصيًا، هو أنني غير موجودة. ولم أعد أرد على التليفون إلا نادرًا، وفقط في الحالات التي أكون فيها في انتظار مكالمة هامة. و«**اصطادني**» بعض المرات وأنا أرد عليه. وحاولت ألا أعلن حربي وتمردي عليه خوفًا من شره وانتقامه، وخاصة أن ابنتي أصبح يصيبها الهلع كلما ردت عليه، فقد كان يفزعها احتمال قيامه بإيذائها أو الإضرار بها انتقامًا مني في شخصها، رغم عدم إيمانها وعدم اقتناعها الكامل بالخوارق. ولذلك حاولت في كل مرة «**يضبطني**» فيها وأنا أرد عليه ألا أتحدث إليه في غلظة وفظاظة، وإنما في برود وتحفظ.

ولم يمنعه برودي من محاولة الاتصال بي. ولم يمنعه تحفظي من أن «يجس» نبضي، أملا في أن ألين له. ومع طول البرود والتحفظ «**رمى طوبتي**» وانصرف عني.

* * *

أراكم تتساءلون مرة أخرى:

هل «تبت»؟

وأجيبكم قائلة :

لم «أتب» أسلا أن يكتب الله لى الشـفـاء، ويغـادرنى إلى الأبد ذلك الجنى الذى «يتشقلب»، و«يتنطط»، و«يتعفرت» فى رأسى.

وها أنذا أروى لكم قصة طريفة.

قصة ليس فيها أرواح أو جن أو عفاريت، وإنما فيها مفاجأة.

ما عفريت إلا بني آدم

اتصل بى تليفونيا أحد أفراد الأسرة وأخذ يبشرنى بقرب الخلاص من صداعى ومن آلامى، حيث عرف الطريق لأحد الأشخاص من مدينة العريش. الذى يقوم بعلاج الأمراض، كل الأمراض، والقضاء على الأوجاع، كل الأوجاع.

وقلت فى نفسى بعد أن أخذت منه وعدا بإحضاره لى، وأنا أهنئها: أخيرا. . . أخيرا. . . سيظهر «سيدنا عمر».

وأخذت أحلم بذلك اليوم الموعود، يوم أن يختفى الصداع من رأسى.

وأخيرا... جاء اليوم. اليوم الذى جاء فيه هذا الرجل. اليوم الذى اختفى فيه الصداع.

* * *

كان قريبى يحتل مركزا قياديا هاما فى الدولة . . . وكان يشكو من بعض المضاعفات الخطيرة بالكلى، واتصل به أحد أصدقائه البارزين فى المجتمع. وأخبره عن ذلك الرجل الذى يستخدم النباتات الطبية والأعشاب لعلاج الحالة التى يعانى منها. ورغم أن قريبى هذا شخص عقلانى رصين، إلا أنه لم ير بأسا من أن يستقدم ذلك الرجل؛ ليعرض علينا **«بضاعته»**.

وجاءنى الرجل من العريش خصيصا من أجلى وأجل قريبى ذى المركز القيادى الهام.

وبادر الرجل القصير ذو البدلة الفاخرة بفتح حقيبته اليدوية الجلدية الثمينة، وأخرج منها عدة أعداد مختلفة من الجرائد والمجلات التى تبارت فى الحديث عنه وعن علاجه الناجح لكل الأمراض.

وما أن تأكد أنه قد قام بالدعاية الكافية لنفسه، وأنه قد بهرنا بالفعل عندما أثبت لنا أنه رجل «**مش أى كلام**»، حتى عاد ليفتح حقيبته مرة أخرى حيث امتلأت عن آخرها

بالقنينات والزجاجات الصغيرة المتلئة بمختلف ألوان السوائل والزيوت، وحيث أخرج من جانب منها ثمرة جافة غريبة الشكل قدمها إلى قريبى فى اعتزاز، وهو يطلب منه نقعها فى الماء، ثم يشرب منقوعها بعد ذلك.

والتفت إلىّ وهو يخرج يده من الحقيبة بقنينة صغيرة بها سائل أسود اللون، قائلا لى: إن هذا الدواء كالسحر، وإنه سيذهب بالصداع فور وضع نقطتين منه فى كل من فتحتى الأنف.

ووقفت «على يده» وأنا لا أستطيع صبرا.

أخيرا. . . «ربنا عوض صبرك خير يا نادية».

وتمددت أمامه على الأريكة كما طلب، ووضع نقطتين من ذلك السائل فى كل فتحة من فتحتى الأنف.

ولم يكن ما وضعه مجرد سائل، بل كان «ميه نار». وتحملت الألم وأنا «أجز» على أسنانى دون أن أنهض من رقدتى. وأخذت عيناى تدمعان وتسيل دموعهما على جانبى وجهى. وأحسست وكأن وجهى قد خلا من أنفى، ولم يبقّ مكانه إلا جمرة من نار. وابتسمت رغم ألمى، وأنا أتخيل نفسى بدون أنف. ولم يهمنى ساعتها أن أعيش بوجه ليس فيه أنف، فيكفينى أن أعيش برأس ليس فيه صداع.

وانصرف الرجل عنى للحظة، ريثما أخرج قنينة أخرى ناولها لأخت من أخواتى لعلاج سقوط الشعر، وقنينة ثالثة لابنتها التى تعانى من ضعف أظافر يدها، ورابعة ناولها لزوجة قريبى التى كانت تشكو من عسر الهضم الدائم.

وعاد إلىّ الرجل وهو يطلب منى الاعتدال من رقدتى والجلوس على الكنبة، بينما كان يزجى التهانى على شفائى والقضاء على الصداع.

وعدت لأجلس فى بطء وحذر، وأنا أمد يدى إلى أنفى لأطمئن على أنه لم يزل فى مكانه. وما أن اطمأننت إلى أن أنفى ما زال فى مكانه من وجهى، حتى أخذت أركز، وأركز، وأركز.

وانطلقت منى صيحة الفرح، صيحة النصر.

أخيرا عثرت على «سيدنا عمر». أخيرا ذهب الصداع. أخيرا ذهب الصداع.

* * *

وانصرف ذلك الرجل من بيتى تلك الليلة بعد أن «عكم» مبلغا محترما من المال، أعطيته له عن طيب خاطر، فقد كان هذا هو يوم سعدى الذى ظللت أحلم به عشر سنوات كاملة، ولم يكن ذلك المبلغ الذى دفعته له هو كل ما خرج به من تلك الزيارة.

كان قريبى صاحب المركز القيادى الهام فى الدولة قد أعطاه بسخاء ما يزيد عن نفقات مجيئه إلينا من العريش للقاهرة مئات المرات، رغم أنه كان قد ألقى بتلك الثمرة الجافة التى كان قد أعطاها له ذلك الرجل فى سلة القمامة، عندما نصحه طبيبه الخاص بعدم استخدامها.

ولم أفكر كثيرا وقتها فيما أنفقته من مال. **فيكفينى أننى لن أقف على أعتاب الأطباء مرة أخرى، ويسعدنى أننى لن أعود إلى «بلبعة» الأدوية والمسكنات. ويشفى غليلى وشماتتى فى الطب والأطباء، وأنا «أخرج» لهم لسانى.**

ويا فرحة ما تمت!

* * *

ما هى إلا ساعتين أو ثلاث بعد انصراف ذلك الرجل حتى بدأت أشعر أن الصداع قد بدأ يعود تدريجيا، ويحتل رأسى بأكمله كما كان.

ولم «ألطم» يومها أو أشد شعرى. ولكننى بكيت.

* * *

ومضت عدة شهور على ذلك الموقف، وتلقيت يوما مكالمة تليفونية من أحد بلدياتى. كان رجلا ثريا من وجهاء قريتى.

وعلمت منه أن الأقدار قد ساقت ذلك الرجل فى أحد الأيام إلى قريتنا، وأنه كان قد استضافه طوال فترة إقامته فى القرية، وأنه كان يعالج الحالات المرضية خاصة تلك الأمراض التى تصحبها الآلام، وأنه كان يستقبل كافة مرضاة فى منزله، وأنه جمع مبلغ ١٨ ألف جنيه كمقدمات للعلاج على أن يتقاضى المبالغ الآجلة بعد الشفاء، وأن معظم مرضاة كانوا ممن يعانون من السرطان، وأن كل المرضى تقريبا اختفت آلامهم مع تعاطى دوائه لعدة شهور؛ مما جعله مقصدا لكل المرضى فى القرية والقرى المجاورة، ولكنه غادر القرية منذ فترة ولم يعد إليها مطلقا، وذلك عندما بدأ المرضى فى الشكوى من عودة آلامهم وعدم شفائهم.

وأخبرني بلدياتي أن اسمي واسم قريبي صاحب المركز القيادى الهام فى الدولة، قد وردا على لسان ذلك الرجل فى معرض حديثه عن الشخصيات الكبيرة والمشاهير ممن تم شفاؤهم على يديه دون أن يعرف أننا من أبناء هذه القرية.

واتضح لى من خلال التحليلات والاستخبارات التى قمت بها، أن ذلك الرجل كان يستخدم مادة الأفيون فى مستحضراته، والتى كان استخدامها يؤدى إلى ضياع الألم، كما أن ضياع ذلك الألم والاعتقاد بأن هناك أملا فى الشفاء، كان يؤدى إلى تحسن الحالة النفسية للمريض، وبالتالى إلى التحسن الوقتى لمعظم الحالات.

وهذا هو نفس ما حدث بالنسبة لقصة اختفاء الصداع وعودته مرة أخرى. **وهكذا ضحك الرجل القصير على «ذقوننا» جميعا. نصب على قرية بأكملها. «واستهفنى» عندما أوهمنى أن عذابى قد انتهى. «واستغفل» قريبى صاحب المركز القيادى الهام فى الدولة.**

* * *

أرجوكم لا تسألونى عما إذا كنت قد «حرمت»؟

الطبيب الذى تفوق على الجن!

كنت قد تعودت بعد كل رحلة فاشلة من رحلاتى فى عالم الغيبيات أن أعود لأرتمى على «أعتاب الأطباء»، وأنا أحمل هزيمتى وفشلى.

وفى تلك المرة كانت «العتبة» التى وطئتها، لأحد كبار أساتذة الأنف والأذن والحنجرة، وكان ذلك فى أبريل سنة ١٩٩١.

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى ألجأ فيها إلى واحد من غير المتخصصين فى الأمراض النفسية، فقد سبق لى فى بداية إصابتى بالصداع أن طفت فى جولة واسعة بين أطباء العيون والأسنان والعظام والمخ والأعصاب والأنف والأذن والحنجرة، بل أطباء أمراض النساء والأمراض الباطنية، وقالوا جميعا كلمتهم بأننى غير مصابة بأى مرض عضوى، وإنما تكمن العلة فى الجهاز العصبى اللا إرادى الذى انعكس فى صورة صداع.

وكنت كلما قرأت أو سمعت أحد الأشخاص يتحدث عن أى حالة صادفها فى العائلة أو بين الأصدقاء، والتى عانى فيها صاحبها من آلام الصداع كنتيجة لسبب عضوى فى العيون أو ضيق الشرايين مثلا؛ كنت «ما أكدبش خبر» وأهرع إلى أبرع المتخصصين الذين ربما كانوا من بين من ترددت عليهم من قبل، لألح «وأزن» ليقوم بالكشف مرة أخرى، أو لأن يطلب إجراء بعض الفحوصات المعملية أو الأشعة للتأكد من صحة التشخيص السابق.

وهذا هو نفس ما حدث تلك المرة. فقد علمت فى معرض الحديث مع زوج ابنتى أنه فى إحدى فترات حياته كان يشكو مرّ الشكوى من آلام الصداع كلما أصيب بالتهاب الجيوب الأنفية، وأنه بعد إجراء العملية لم يعد يشكو من الصداع مرة أخرى.

وفى هذه المرة أيضا «ما كدبتش خبر»، وأخذت «ديلى فى أسنانى» «وجريت» على الدكتور ومعى زوجى الذى كان فى إحدى إجازاته آنذاك.

وطرت فرحا عندما فتح الدكتور باب الأمل أمامي، وعندما طلب مني عمل أشعة مقطعية على الغدة النخامية بالمخ، حيث كان قد سبق لي في الشهور التالية لإصابتي بالصداع عمل هذه الأشعة في مصر وكذلك في أمريكا، ولكنها كانت على المخ ككل، لمعرفة ما إذا كان هناك أي نوع من الأورام، أو بعض المشكلات الأخرى، حيث استبعد الأطباء تماما وجود أي شيء غير عادي في هذه المنطقة.

وخرجت من لدى الطبيب وتوجهت مباشرة إلى «**مستشفى القاهرة التخصصي**» القريب من عيادة الطبيب ومن بيتي أيضا في الوقت نفسه.

وابتسم طبيب الأشعة في استغراب عندما وجدني أقول له في لهجة مليئة بالأمل والرجاء:

ـ يا رب يا دكتور تلاقي حاجة في الأشعة.

ورد عليّ وما زالت الابتسامة مرتسمة على شفتيه وهو يقول:

ـ دي أول مرة في حياتي ألاقي مريض بيقول كده.

وشرحت له في إسهاب عن معاناتي من الصداع، وعن جولاتي بين الأطباء. وكأنما أنا إذا «حننت» قلبه، فإنه سيجد حتما «**عشان خاطري**» سببا عضويا لتلك الآلام.

وجاءني صوته بعد عدة دقائق وأنا ما زلت ممدة على سرير الأشعة لاستكمال تصوير بعض المقاطع، وهو يقول:

ـ أنا شايف على «المونوتور» حاجة مش مضبوطة في «**الغدة النخامية**»، دلوقتي حنعرف هيه إيه.

ودق قلبي من الفرح، ووددت لو أن أغادر سريري واندفع إليه أقبله، وراودتني الرغبة في أن «أتنطر» من مكاني لأرقص وأزغرد، وإن كنت لا أعرف كيف أطلق زغرودة.

ووقفت بجانب طبيب الأشعة بعد انتهائه، وقد تحفزت كل أعصابي، وأنا أكاد أقف على قدم واحدة، وقد مددت رأسي إلى داخل الجهاز الذي أمامه؛ «**لأبحلق**» في صورة الأشعة على الشاشة وقد بدت لي غامضة متداخلة، عسى أن أرى بوضوح ذلك الجني الذي عكر صفو حياتي، حيث أخذ يشرح لي على المونوتور، وأنا أبتسم وأضحك بصورة «بلهاء» كيف أن هناك منطقة في منتصف الرأس قرب قاع الجمجمة وبين فصي المخ على شكل حفرة صغيرة خالية، وكيف أن هذه المنطقة في الحالات الطبيعية يجب أن

تكون مستوية وممتلئة بالأنسجة ، وأن الغدة النخامية وهى الغدة المايسترو التى تتحكم فى كل غدد الجسم يجب أن ترتكز على تلك الأنسجة ، ولا يكون هناك فراغ أسفلها ، وكيف أن السائل النخاعى الذى يغلف المخ يملأ هذا الفراغ ، وأن الصداع ربما يكون بسبب وجود السائل فيه ، مما يبرر الراحة عند الاستلقاء والنوم ، حيث يقل ضغط السائل النخاعى ولا يتراكم فى تلك الحفرة .

وأصابنى تحليله بالسعادة البالغة وأخذت الأشعة والتقرير فى نفس اليوم على غير ما هو متبع ، تعاطفا من طبيب الأشعة معى .

وعدت إلى بيتى وأنا أكاد أرقص فرحا ، وانهيت الخبر السعيد لابنى وابنتى اللذين كانا هناك لدى عودتى واللذين امتلأ هما وغما عندما علموا ذلك الخبر غير السعيد ، والذى قد يعنى أننى فى حاجة إلى إجراء عملية جراحية فى المخ .

وعدت للطبيب الأخصائى فى مساء اليوم التالى مباشرة بعد أن أخذت فى عد الساعات طوال النهار ، وكأنما أنا على موعد غرامى انتظاراً لحلول موعد العيادة . وأكد لى طبيبى ما قاله أخصائى الأشعة .

وأخبرنى أننى أحتاج إلى عملية جراحية ، حيث سيتم أخذ قطعة صغيرة من الدهن من جدار البطن لوضعها فى ذلك الفراغ ، وإنها عملية غير خطيرة ، وأنه قام بإجرائها من قبل لمرات عديدة .

ولم يصبنى الهلع والخوف ، وقد أخذ الطبيب فى شرح الموقف ، وأنه يفضل إجراء العملية عن طريق شق الجزء الواقع بين العين وأعلى الأنف للوصول مباشرة إلى مكان الفراغ ، خلافا لما هو متبع بين جراحى المخ والأعصاب من شق الجمجمة للوصول إلى هذا المكان .

واستمعت إلى الطبيب دون أدنى انفعال أو توتر ، وهو يحكى كيف أنه سيقوم بحشو ذلك المكان الخالى بالدهن ، وكأنه يحكى عن حشو «بتنجانة» أو «كوساية» . ولم ترهبنى فكرة أن يدخل إلى منطقة المخ بمشرطه من الجزء المجاور للعين ، وأن تشوه آثار العملية وجهى «أو أن أحلق شعرى «ظلبطة» قبل أن يشق منشاره جمجمتى ، فلا يهمنى أن أصبح «قرعة» أو مشوهة بقدر ما يهمنى أن أحيا بلا ألم كالآخرين .

وأحسست بالسعادة وأنا أتخيل جميع أطباء الأمراض النفسية فى مصر ، وكل الوسطاء الروحانيين فى كل بقاع الدنيا وكل مسخرى الجن والمشعوذين ، وقد أخذت «أطلع لهم

لسانى» ، وقد غمرتنى الشماتة فيهم بعد أن لم أعد فى حاجة لهم ، وبعد أن تقضى العملية الجراحية على ذلك الجنى الذى يعربد فى رأسى . وأقتلعه من جذوره فلا يعود مرة أخرى إلى «التنطيط» و«الشقلبة» و«العفرتة» فيها .

وأكدت للدكتور وأنا أكاد أن «أبصم له بالعشرة» أننى أود إجراء العملية فى أسرع وقت ممكن ، ولا مانع إن كان ذلك فورا أو فى صباح اليوم التالى ، ولم يجد الأخصائى بدا من وضعى فى قائمة العمليات التى سوف يقوم بها بعد الغد ، حيث أعطانى خطاب دخول إلى المستشفى التى يتعامل معها ، على أن أتوجه فى صباح الغد إليها لإجراء الفحوصات اللازمة لإجراء العملية فى اليوم التالى .

وما أن عدت إلى البيت حتى أمسكت بالتليفون ، وأخذت أزف الخبر السعيد لإخوتى جميعا واحدة بعد أخرى ، ولأمى ولزملائى ولصديقاتى . وكأننى أزف إليهم نبأ فوزى بتذكرة يانصيب أو جائزة نوبل .

وتركت التليفون ، وتوجهت إلى حجرتى حيث استخرجت حقيبة متوسطة أخذت ألقى فيها ما قد احتاجه خلال إقامتى فى المستشفى ، وكأننى ذاهبة فى رحلة إلى مكان طال شوقى إلى رؤيته ، أو أننى أستعد لرحلة شهر العسل .

وما هى إلا ساعة أو نحوها حتى بدأ التليفون فى الرنين ، وحيث توالت المكالمات من أفراد العائلة وإخوتى وصديقاتى وأصدقاء زوجى ، كما توالى فى الحضور بعض أفراد العائلة وقد أجمعوا جميعا بعد سؤال كل منهم لطبيب أو أكثر من أقاربهم أو أصدقائهم أن تلك العملية عملية خطيرة ، وأن هناك نسبة عالية من الفشل فى العمليات المماثلة التى تم إجراؤها فى مصر .

وجلست على مقعدى وقد «ركبنى» الهم والغم ، بينما التف حولى الجميع الذين انتقل إلىّ شعورهم بأننا فى جنازة ، فرغم إدراكى أن هذه العملية ليست فى بساطة تقليم أظافر يدى أو قص شعرى ، إلا أن «حكاية» تلك المضاعفات المحتملة لم آخذها فى الحسبان ، وربما لم أفكر فيها مطلقا فى غمار لهفتى على الشفاء . وعلى أساس أن فشل أى عملية ولو بسيطة كاللوز أو الزائدة الدودية ، يكون شيئا واردا عندما يحل القضاء رغم براعة الأطباء ، كهبوط الدورة الدموية المفاجىء من تأثير البنج على سبيل المثال ، وأن العملية الجراحية فى المخ مثلها فى ذلك مثل أى عملية أخرى بسيطة أمر لا يخص المريض طالما أن دور المريض هذا دور سلبى ينحصر فى إعطاء ذراعه للطبيب ليدس فى وريده حقنة

المخدر وبعدها «يروح المريض فى سابع نومة»، أما ما يتم فى أثناء العملية سواء كانت عملية خطيرة أو بسيطة فهو من شأن الأطباء الذين ينفذون الأوامر الإلهية والمشيئة والمقدور.

وإذا ما أراد الله للمريض العودة إلى الحياة الدنيا بعد ذلك الموت المؤقت، أو العودة من تلك الرحلة المجهولة فى أثناء سريان المخدر، فإن الأمر هنا يتعلق بالمريض من حيث المعاناة من الألم أو الإعياء . . . إلخ . والتى ما هى إلا قضية وقت يعود بعدها إلى حياته الطبيعية إذا لم تعترض طريقه بعض المضاعفات التى لم تكن فى الحسبان .

وقد يبدو للبعض أننى أتحدث عن العمليات الجراحية وكأننى أتحدث عن تصفيفة شعر جديدة، أو زيارة إلى صديقة، أو أنها مجرد «شكة إبرة».

ولعل ذلك البعض على حق، فقد وطنت نفسى لكثرة ما أجريت من عمليات جراحية، بعضها يعد من العمليات الكبرى على أن أفكر فى العملية على أنها مجرد «شكة إبرة» وأن اللحظة التى يتم فيها سريان أول نقطة من المخدر فى الوريد، والتى تؤثر تأثيرا مباشرا على الوعى والإحساس بالألم، تلك اللحظة التى يدخل فيها المريض مرحلة فقدان الوعى تماما لا تستغرق فى الواقع إلا لحظة ضئيلة كطرفة العين، يصبح بعدها الجسد ملعبا لمشرط الجراح وانفصال تام عن إحساس ووعى المريض الذى غيبه المخدر.

ولذلك كنت لا أترك الفرصة أمام عقلى ووعيى قبل إجراء أى عملية ليتناول تفاصيلها من حيث مشرط الجراح الذى يدفعه فى اللحم، وتدفق الدم، ثم استئصال ما يريد الجراح استئصاله أو تثبيته أو . . أو . . . ، بل كنت أرغم نفسى على عدم الانخراط مع خيالاتى والاستسلام لها، حيث كنت أوطن نفسى على أن كل ما سوف أشعر به هو تلك الحقنة التى يشل فيها المخدر وعيى فتغيبنى، ثم تكون بعد ذلك المشيئة الإلهية سواء عاد إلىّ وعيى الغائب، أو غادرنى إلى الأبد.

ولم أنجح فى ذلك الوقت فى استخدام سلاح التمرد، وربما فى الحقيقة لم أحاول أن أتمرد على قرار الأسرة والأصدقاء فى ضرورة التروى والإناء، والتمسك بأهداب الصبر لحين عرض الأمر على أطباء آخرين، فقد أدركت أن للتمرد أوقاته كما أن للانصياع أوقاته أيضا .

* * *

ولم أستسلم، ونقمت على الأطباء في مصر تخاذلهم وجبنهم. وقررت أن أذهب إلى لندن لأعرض نفسي على الأطباء، فربما يكونون أقل جبنا من أطبائي في مصر وشجعانا «مستبيعين» مثلي.

وأجريت العملية، في الحقيقة أجريت الجزء الأول من العملية. لم يقم أحد الأطباء الإنجليز بإجرائها لي. لم يشق منشار الجراح الإنجليزي جمجمتي، ولم يمس المشرط لحمي، ولم أنزف قطرة دم واحدة؛ فقد كان من أجرى لي العملية أحد الأرواح الإنجليزية، وكانت روحا رقيقة مسالمة لا تحب منظر الدماء.

وللحديث بقية...

وأخرتني جولاتي من طبيب إلى آخر أسألهم النصيحة والمشورة، ولم يشجعني أحد منهم على إجراء العملية، عدا واحد من جراحي المخ والأعصاب، والذي أيد رأي الطبيب الأول رغم عدم ثقته الكاملة في أن تذهب العملية بآلام الصداع، مثله في ذلك مثل باقي الأطباء، وإن كانوا جميعا قد أجمعوا على خطورة العملية نفسها.

وخذلنى الأطباء الإنجليز

وحزمت حقائبى وقررت أن أسافر إلى لندن لأعرض نفسى على مزيد من الأطباء، بعد أن قررت قبول إحدى المنح الدراسية من جامعة لندن، والتى كنت قد أوشكت على الاعتذار عنها عندما لاحت لى احتمالات إجراء العملية.

وتوجهت فى صباح اليوم التالى لوصولى إلى لندن إلى مستشفى «جايلز» فى شرق لندن، وفقا للموعد الذى كان قد حدده لى الطبيب الإنجليزى تليفونيا قبل مغادرتى القاهرة، والذى حولنى إلى طبيبين آخرين للاستشارة برأيهما، بعد أن أجرى كافة الفحوصات اللازمة.

وقرر ثلاثتهم أن الحالة التى أعانى منها من الحالات التى لم تصل الأبحاث الطبية إلى رأى حاسم فيها، فقد تنجح العملية وقد لا تنجح فى الذهاب بالصداع.

كذلك فقد أجمع الأطباء على خطورة العملية، وأن نسبة الأمل فى القضاء على الصداع . . . لا تتوازى مع المخاطر المحتملة للعملية الجراحية.

وشرح لى ثلاثتهم نوعية تلك المخاطر ومعدلاتها، حيث أشاروا إلى احتمال المساس بالعصب البصرى المجاور لمنطقة العملية وفقدان البصر، وكذلك احتمال التلوث الجراحى للمخ والإصابة بالحمى الشوكية، إلى جانب احتمال استمرار تدفق السائل النخاعى لسبب أو لآخر من الأنف.

وخانتنى شجاعتى وهم يلقون بتلك التفاصيل التى لم أسمعها فى مصر فى وجهى، وكأنهم يتحدثون عن دمل أو خراج فى ساقى، وهجرتنى الرغبة فى الاندفاع والتمرد، ووجدتنى أعيد تقييم حياتى وقد فقدت بصرى فى أثناء العملية، أو انتهيت بالموت أو العجز بسبب الحمى الشوكية.

* * *

وخذلني ثلاثتهم، وتركوا حق اتخاذ القرار لي، ولي وحدي. وشعرت خلت فجأة من حولي، وأنني أمشي وحيدة في أرض التيه. ونظرت إلى السماء الرحمة وأسألها القوة والمدد.

وعدت إلى حجرتي في أحد المساكن الجامعية التابعة لجامعة لندن وصليت ودعوت وبكيت. وظلت السماء صامتة.

ووجدتني أتوق في لهفة مضنية، إلى معجزة في زمن عزت فيه ومض في ذهني سيدنا المسيح عيسى بن مريم كوميض البرق.

وأسرعت إليه.

القس الإنجليزى الذى أبكانى

كانت تلك الكنيسة الضخمة التى قصدتها تقع على بعد خطوات من متحف مدام «توسود»، ذلك المتحف الذى يعد من أشهر معالم لندن بتماثيله الشمعية لأشهر الشخصيات العالمية، وعلى بعد عشر دقائق فقط سيرا على الأقدام من المكان الذى أقيم فيه.

وكنت قد اتصلت بالقس «دافيد هاول» فى لحظة من لحظات اليأس وغياب الأمل التى ألمت بى، بعد أن وضعنى الأطباء فى مفترق طريقين كلاهما مر: أن أقدم على العملية الجراحية مع تحمل نتائجها الخطيرة المحتملة، أو أن أظل أحمل داخل رأسى ذلك الجنى الذى أورثنى العذاب والألم.

كنت أدرك تماما أن هذا القس ليس فى مقدوره مساعدتى من قريب أو بعيد، ولكن كان يسيطر على شعور بالغ بالضياع وقلة الحيلة والحاجة الملحة لمعجزة ربانية تأخذنى على جناحيها إلى شاطئ البرء والشفاء.

وشعرت برغبة ملحة فى أن أكون قريبة من صاحب المعجزات المسيح عيسى بن مريم، وقد أخذت تلح فى وعيى المشتت الممزق آيات الله البينات عن القدرات الإلهية التى كانت مددا لسيدنا المسيح فى إحياء الميت وشفاء الأكمه والأبرص والأعمى، واشتقت فى لهفة مجنونة إلى أن أكون فى المكان الذى يتردد كثيرا منه اسمه، فربما تشملنى روحه هناك بنفحة إلهية إعجازية ترفع الضر عنى، وتنتشلنى من وهدة اليأس والشعور بالضياع.

وقابلنى القس «دافيد هاول» بوجهه البشوش وملامحه الوديعة، وسألنى فى حيرة عن المساعدة التى أطلبها منه، وأخبرته أنى أريد منه فقط أن يصلى من أجلى، وأن يدعو لى، وأن يقرأ لى بعضا من الإنجيل حول معجزات السيد المسيح، والتى أعرف أنها لا تخرج عن ما جاء فى القرآن الكريم، فقد سبق لى أن قرأت الإنجيل كما قرأت التوراة؛ لأتعرف على جوانب الشبه وجوانب الخلاف، وخرجت بأن معجزات الأنبياء والرسل فى

الكتب الثلاثة لا خلاف فيها إلا في حدود ضيقة، وأن لجوئي لسيدنا عيسى المسيح ابن مريم، ذلك الذي قال عنه الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم **﴿ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا﴾**، والذي قال عن نفسه **﴿والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾** ليس شركا بالله، وليس تخليا عن إيماني بالله وبرسوله الكريم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، بل هو ضرب من الضعف وانعدام الحيلة والرغبة الملحة في أن أجد ولو قشة صغيرة أتعلق بها، أو مجرد خيط أمسك به حتى ولو كان خيطا من بيت العنكبوت.

وقادني القس إلى داخل الكنيسة، وداخلني شعور بالرهبة والخشوع وأنا ألمح صور وتماثيل السيدة مريم العذراء وابنها المسيح طفلا، ثم تماثيل ذلك الذي **﴿شبه لهم﴾** كما جاء في القرآن مصلوبا وقد أسالت المسامير التي اخترقت جسده دماءه، رغم إدراكي الكامل برمزيتها وبعدها عن الواقع، إذ حركت تعبيرات آيات الألم والعذاب التي ارتسمت على ملامحه مكنون أحزاني واستعدت في لحظات ألوان المعاناة التي تلقاها الصابرون مِنَ الأنبياء والرسل، والتي لم تزدهم إلا صبرا وثباتا، وشعرت بتفاهة ما أعانيه، قياسا إلى ما ينتظرنا في يوم الحشر العظيم، وأن تلك المعاناة سترفع عني جانبا من العذاب في الآخرة.

ووجدتني وقد غشيني نوع من السلام والسكينة والهدوء، وقد أجلسني القسيس على مقعد في إحدى المقصورات الخالية، بينما وقف إلى جانبي وقد وضع كفه على رأسي، وأخذ يصلي، وشعرت أن الكلمات التي انسابت من شفتي القس عن تفاهة الدنيا وهوانها واختباراتها التي تطهر الأنفس وتمسح الذنوب وتهيؤنا ليوم الخلاص من ثوب الحياة الدنيا ليوم البعث والحياة الأبدية، وشعرت بدموعي وقد انسابت من عيني في صمت لتغسل آلام نفسي وآلام جسدي، وترفع عني أثقال وهموم الحياة، وتمنحني الشعور بالسلام والخلاص، بينما كان القس يتوجه إلى الله بالدعاء أن يصرف عني الضر ويمنحني البركة والشفاء بحق المسيح عيسى بن مريم الذي أيده الله بكراماته ومعجزاته، وأن يشملني الله برحمته من خلال روح يسوع المسيح في ذلك المكان الذي يتردد فيه اسمه، والذي تحف به أرواح الملائكة والصديقين والحواريين.

وانتابتني حالة من الصفاء الذهني والهدوء النفسي، وكأنما اغتسلت همومي وآلامي بدموعي المنسابة، وشعرت بأن كياني كله ووجودي قد أصبح شيئا أثيريا روحانيا، بينما

كان لساني يلهج بالدعاء إلى الله فى صمت أن يجند أرواح أنبيائه الصالحين بمعجزاتهم الإلهية وأن يشملني بواسع رحمته ومغفرته .

واستمر القس فى الصلاة والدعاء بصوته الهامس الرقيق ما يقرب من الساعة ، وأنا أحاول أن أتمثل وأن أفهم كل كلمة يقولها ، وقد أخذت أردد كلمة آمين فى همس واستكانة ودعة واستسلام ، وكأنما اغتسل بكلمة آمين من كل ما يثقلني ، وأتخفف بها من كل ما يرزح تحته كاهلي ويشقيني .

ومد لي القس يده أخيرا لينهضني ، وأنا أمسح فى خجل وحياء دموعي التى أعجزني حبسها ، وسار بي متوجها إلى باب الكنيسة الخارجي ، وهو يستكمل دعاؤه ، ويطلب مني العودة فى أى وقت أشاء ، إذا أعوزتني الحاجة إليه أو إلى صلاته .

وما أن ودعته وتجاوزته منصرفة بعد أن وجهت له كلمات الامتنان والشكر الواجبة ، حتى وجدته وقد أسرع خلفي مناديا إياى فى صوت مشفق عطوف ، وهو ينصحني بألا أقدم على إجراء العملية قبل أن أبذل محاولة أخرى جديدة مع المعالجين الروحانيين فى جمعية بريطانيا العظمى الروحية ، أو أى جمعية أخرى ، حيث إن من بينهم بعض ذوى الشفافية والقدرة الخارقة فى الشفاء ، وأن ذلك لن يكلفني شيئا سوى بعض الوقت الذى سوف أقضيه فى محاولات العلاج .

وشكرته للمرة الثانية وأنا أحاول أن أمنحه ابتسامة من ابتساماتي الممتنة الشاكرة ، على وعد بخوض تجربة العلاج الروحي وموالاته بأخباري .

وعدت إلى حجرتي فى المسكن الجامعي ، وقد اتخذت قراري النهائي بعدم المخاطرة واستبعاد فكرة العملية تماما .

* * *

توقفت عن التفكير في إجراء العملية، واستبعدت هذه الفكرة تماما. ولكنني لم أتوقف عن الرغبة في الشفاء. الشفاء بعيدا عن دهاليز الطب ومشارط الأطباء. الشفاء بمساعدة الأرواح الإنجليزية الطبية، ولذلك ذهبت إليهم. ذهبت إليهم في ميدان «بلجريف سكوير».

قصتي مع جمعية بريطانيا
العظمى للعلاج الروحي

كان الحى الذى تقع فيه الجمعية الروحية لبريطانيا العظمى على بعد خطوات من «هايد بارك كورنر»، ويطل المبنى الذى يضم الجمعية على ميدان صغير تحيطه مجموعة من المساكن البيضاء الأنيقة المكونة من ثلاثة أدوار فقط، والتى تتشابه فى طرازها وفخامتها بعضها مع البعض الآخر، والتى تمت ستائر نوافذها البيضاء وأصص الورد المتراصة على الرقى والثراء.

ولم يرهقنى الاستدلال على البناية الصغيرة التى تضم الجمعية، والتى كانت تحمل رقم (٣٣) بميدان «بلجريف سكوير» ذلك الميدان الصغير الذى حف بالأشجار الجميلة، والذى كان بابها يحمل لوحة نحاسية حفر عليها باللون الأسود اسم الجمعية.

ووجدت باب الجمعية الخشبى الكبير الذى تؤدى إليه أربع أو خمس درجات رخامية مفتوحا على مصراعيه، حيث وجدت على يمين البهو داخله حاجزا خشبيا وراءه شابة باسمة، سألتنى عن نوع المساعدة التى جئت من أجلها، حيث أشارت إلى سلم خشبى عريض فى جانب البهو، والذى يفضى إلى الأدوار العليا، حيث تتم جلسات العلاج فى الدور الثانى، كما أشارت إلى دهليز جانبى يؤدى إلى مكان المصعد الكهربائى الذى أستطيع استخدامه إذا كانت حالتى لا تمكننى من ارتقاء الدرج.

وتوجهت إلى السلم الأنيق الذى ارتقيته إلى الدور الثانى، حيث قابلتنى على أول درجاته سيدة مسنة ممتلئة قادتنى فى نشاط وحيوية وهى لا تكف عن الابتسام لى إلى قاعة مليئة بالمقاعد، التى رصت فى صفوف متوازية وكأنها قاعة سينما أو مسرح، حيث امتلأت بالمرضى الذين جلسوا فى انتظار دورهم فى العلاج.

وجلست فى مكان أستطيع منه مشاهدة أكبر عدد من الحاضرين، وبدأت أرقب وأحلل ما يدور، وأستمع إلى الأحاديث الجانبية التى كانت تصل إلى أذنى. والتى عرفت من

خلالها أن كثيرا من الموجودين قد سبق لهم التردد على هذا المكان لمرات عديدة ، ولأسباب كثيرة تختلف في كل مرة عن سابقتها ، وأن البعض منهم أيضا قد جاء بناء عن بعض المعلومات التي استقوها من الآخرين عن جدوى العلاج الروحي .

وانتظرت في ذلك اليوم ما يقرب من الساعة ، حيث لم أكن قد حجزت لنفسي موعدا في وقت مبكر سابق ، وحيث كان من غير المعتاد أن يتلقى أحد العلاج دون موعد سابق ، إلا أن فتاة الاستقبال الشابة كانت قد تخطت هذا الأمر ؛ عندما عرفت أنني سأكون متواجدة في لندن لفترة قصيرة سأعود بعدها إلى وطني .

وجاءتني السيدة المسنة الممتلئة عندما حان دوري في العلاج ، وقادتني إلى قاعة أخرى داخلية ، وهي تبتسم لي في طيبة وسماحة داعية لي بالشفاء حيث تركتني في تلك القاعة ، بعد أن قدمتني إلى السيدة الشابة التي كانت ستقوم بعلاجي .

وقادتني السيدة الشابة إلى مقصورة صغيرة ضمن خمس أو ست مقصورات أخرى تضمها القاعة ، وتحجبها عن المقاصير الأخرى ستارة سميكة من القماش الأبيض اللون ، حيث ذكرني هذا الوضع بقاعات العناية المركزة في العديد من المستشفيات .

وكانت المقصورة التي قادتني إليها السيدة الشابة مقصورة صغيرة ليس فيها سوى فراش ضيق مرتفع ومقعد مريح ، حيث أجلستني مرافقتي عليه وقد واجهت الفراش ، بينما وقفت خلفي بعد أن شرحت لها ما أعاني منه .

وأخبرتني مرافقتي الشابة أن عليّ أن أصفو بذهني تماما حتى تستطيع ذبذباتي الاقتراب من ذبذباتها لإتمام العلاج ، وحيث طلبت مني بصوتها الهامس المنخفض أن أسمو بأفكاري عن المستوى المادي ، وألا أقاطعها بالحديث في أثناء الجلسة ، حتى لا أقطع عليها استغراقها .

وجلست معتدلة القامة على مقعدي بينما سادنا صمت مطبق ، لا يعكره سوى أنفاسنا ، وشعرت فجأة بحرارة شديدة تلفح رأسي من الخلف ، ثم تهبط إلى كتفي وظهري ، لتعود مرة أخرى إلى رأسي من الخلف وعلى جانبيها ، ومن الأمام حيث كانت تمرر يديها على تلك المناطق دون أن تلمسها .

ولم أدرك مبعث تلك الحرارة أو سببها حتى انتهت معالجتي من الجلسة بعد نحو ربع ساعة ، حيث سألتها عن مصدر تلك الحرارة ؛ وحيث أخبرتني أنها في أثناء العلاج تتخلل الروح المعالجة جسدها ، وتنتقل القوة الروحية إلى جسدي أو جسد المريض من خلال تلك الحرارة التي تشع من يدي المعالج .

وأخذت الشابة المعالجة تسألنى عن مدى ما أشعر به من راحة أو ألم أو أحاسيس أخرى غير معتادة، حيث أخبرتها أننى لم أشعر بأى شيء غير عادى. سوى تلك الحرارة التى أحسستها تنتقل من مكان إلى آخر حول رأسى وظهرى.

وتعجبت معالجتى الشابة عندما أخبرتها أننى لم أشعر بأى قدر من التحسن فى أثناء العلاج أو بعده، وطلبت منى أن أعود فى صباح اليوم التالى لتلقى العلاج من أحد المعالجين الآخرين، فربما تكون الأرواح المرافقة له أكثر قدرة على علاجى.

وعدت فى صباح اليوم التالى كما أشارت المعالجة الشابة، وقام بجلسة العلاج رجل مسن متورد الوجه دقيق القسمات ذو ابتسامة واسعة، ونظرات حانية، حيث استمر فى جلسة العلاج لما يقرب من نصف الساعة، وحيث تكررت تلك الظاهرة الخاصة بتلك الحرارة الشديدة، التى تنبعث من يدى المعالج فى أثناء قيامه بالعلاج حيث شجعتنى ابتسامته الودودة على أن أمد يدى لأمسك بيديه أتحسس حرارتهما فور انتهائه من الجلسة، وحيث وجدتها فى نفس درجة حرارة يدى. والذى قال وقد اتسعت ابتسامته التى لا تقل حنانا عن النظرة المرتسمة فى عينيه، إن الحرارة المنبعثة من اليدين تتلاشى فور انصراف الروح والانتهاء من الجلسة وطلب منى العودة مرة أخرى فى مساء نفس اليوم لتلقى جلسة أخرى للعلاج من قبله، أو قبل أحد المعالجين الآخرين طالما أننى لم أشعر بأى قدر من التحسن فى أثناء الجلسة أو بعدها.

وقادنى الرجل المسن ذو الابتسامة الحانية إلى الخارج، حيث ودعنى بكلماته وصوته الوديع حتى رأس السلم بعد أن أخبرته أننى سوف أعود مرة أخرى فى المساء.

وعدت إليه، وكرر نفس الجلسة، ولم أشعر بأى تحسن فى أثنائها أو بعد الانتهاء منها.

ولم يتسلل يأسى إلى الرجل ذى النظرات والابتسامة الحانية، حيث طلب منى أن أعود فى صباح اليوم التالى لتلقى العلاج من أحد المعالجين الآخرين الذى ربما يكون هو أو أرواحه أقدر منه على علاجى.

وعدت مرة أخرى فى صباح اليوم التالى، وعدت مرة أخرى فى مساء نفس اليوم، وعدت مرات... ومرات... ومرات....، وظللت أتردد على الجمعية على مدار شهر كامل دون جدوى. **وكان الجنى الذى يسكن رأسى أقوى من كل الأرواح الإنجليزية، إلى أن قررت الجمعية أن ترسلنى إليها. إلى مسز «ديفنى آندرهيل»، تلك المعالجة الروحية الإنجليزية الشهيرة، التى وقعت فى حبها لحظة أن رأيتها، والتى ودعت جثمانها بالدموع، وهو يتوارى فى حفرة عميقة فى أحد مقابر لندن.**

الأرواح الإنجليزية التى أجرت ليوسف وهبى عملية جراحية

استقبلتنى «مسز ديفنى» بوجهها الملائكى، وابتسامتها التى لا تفارق وجهها، ونظرات عينيها الزرقاوين اللتين يخيل إليك من رقة وصفاء نظراتها أنها لا تحتضنك بمفردك، وإنما تحتضن الدنيا كلها معك.

كان المعالجون الروحانيون فى جمعية بريطانيا العظمى الروحية قد أدركهم اليأس من قدرتهم على علاجى عندما تخلوا عن علاجى؛ لتقوم به« مسز ديفنى» أشهر معالجة روحية فى الجمعية بل وفى إنجلترا كلها.

وكنت خلال ترددى على الجمعية، قد تلقيت جلسات مسائية يومية على مدار ما يقرب من الشهر حيث تنقلت فيه من معالج إلى آخر؛ عسى أن يقول الله كلمته ويأمر لى بالشفاء.

وعلى مدار تلك الجلسات جميعا التى كنت أتلقاها يوميا كل مساء بعد انتهاء اليوم التدريبى فى جامعة لندن، والتى كنت قد تلقيت منحة منها لحضور دورة تدريبية فى مجال الدراسات السكانية، التى كانت تنظمها كلية الطب.

كنت أهرع فى نهاية اليوم لتلقى جلسة مسائية للعلاج على حين كنت أتلقى جلستين، إحداهما صباحية والأخرى مسائية فى يومى السبت والأحد، وهما يومى الإجازة الأسبوعية.

وقد علمت من خلال ترددى على الجمعية ومن خلال العلاقات التى تقترب من الصداقة مع العاملين بها الكثير عن أهداف هذه الجمعية ونشاطاتها وكيفية تمويلها. كانت هذه الجمعية شأنها فى ذلك شأن الجمعيات الروحية، مؤسسة خيرية تقوم على تبرعات أعضائها وتبرعات المترددين عليها وفقا لظروفهم الخاصة، ولم تكن تتقاضى أى مقابل نظير جلسات العلاج، وإن كان هناك لافتة فى حجرة الانتظار تقول إن المساهمة ولو بشلن

واحد فقط سوف تساعد الجمعية على القيام بأعمال الصيانة الدورية، للاحتفاظ بمظهرها وإمكانياتها اللائقة.

كما علمت أيضا أن كل العاملين بالجمعية سواء من الإداريين أو المعالجين هم مجموعة من المتطوعين للعمل في أوقات فراغهم بالتناوب مع زملائهم. وأن المعالجين من الشباب نساء ورجالا ممن يعملون في بعض الوظائف الحكومية أو الأعمال الخاصة، يقومون بالعمل في الجمعية في أيام عطلاتهم الأسبوعية كمتطوعين دون تقاضي أي مقابل، حتى ولو كان ذلك نظير مصروفات انتقالهم إلى ومن الجمعية مهما كان بعد المكان الذي يقيمون فيه عنها.

وقد كان من بين الأسئلة التي دارت في ذهني تلك التي تتعلق باكتشاف المعالجين لقدراتهم الروحية، وكيفية انضمامهم إلى الجمعية، حيث علمت أن ذلك يحدث بصورة تلقائية دون أن يكون لهم أي دخل فيها، حيث تكون شيئا خارجا عنهم وعن إرادتهم أو مخططاتهم.

فقد أخبرني أحد المعالجين الشباب على سبيل المثال أنه كان قد نشأ في إحدى القرى البعيدة بأسكتلندا، وأنه كان منذ طفولته يعمل في المزرعة مع أفراد أسرته ووالديه، وأنه عندما كان في نحو العاشرة من عمره بدأت الأسرة تلاحظ أن مجرد تواجده بجوار إحدى المواشي لحظة الولادة، فإن عملية الولادة تتم في يسر وسهولة وسرعة، وأن مجرد لمسه لأي حيوان جريح أو مريض سواء كان حصانا أم بقرة أو عنزة أو حيوانا أليفا، فإنه سرعان ما يبرأ ويتماثل للشفاء.

وبدأت الأسرة وباقي الأسر في القرية تستعين بوجوده كلما تعرض أحد الحيوانات للمرض أو الإصابة، ثم أصبحت القرى المجاورة ترسل في طلبه بهذا الخصوص.

وعندما بلغ العشرين من عمره أدرك المحيطون به والمتعاملون معه أن قدراته الروحية لم تعد تقف عند حد علاج الحيوانات المريضة فقط، بل تجاوزت ذلك لعلاج الآدميين؛ ومن ثم ذاع صيته في أرجاء الناحية كلها، وطارت سمعته إلى العاصمة، حيث أرسلت الجمعية في طلبه، والتي قام أحد أعضائها الموسرين بإلحاقه بالعمل في لندن، وحيث كان يتطوع لعلاج المرضى في أيام إجازته الأسبوعية.

ولم تخرج قصص الآخرين عن حدود قصة ذلك الشاب، فالمعالج لا يدرك تلك الموهبة الربانية التي يتمتع بها، إلا من خلال إدراك الآخرين لها، كما أن تلك الحرارة

الشديدة التى تنبعث من أيديهم فى أثناء العلاج تكون شيئا خارجا عنهم لا يدركونه إلا من خلال شعور المرضى بها فى أثناء العلاج .

ولفت نظرى فى أثناء ترددى على الجمعية هذه الأعداد الكبيرة التى تؤمن بالعلاج الروحى ، والتى تفضله عن العلاج لدى الأطباء ، بل إن هناك بعض الأطباء فى إنجلترا الذين ينصحون مرضاهم بالالتجاء إلى العلاج الروحى فى بعض الحالات .

ويحضرنى هنا حالة مريضة شابة كانت متطوعة للعمل فى مكتبة الجمعية الروحية ، والتى كانت تحتل جانبا كبيرا من الدور الأول بها ، حيث كانت هذه الشابة تحمل كلية مزروعة منذ سنوات ، وأنها دأبت على تلقى جلسات أسبوعية للعلاج من قبل المعالجين الروحانيين ، وأن حالتها الصحية كانت تسوء من خلال نتائج الفحوصات الدورية لوظائف الكلى ، كلما انقطعت عن جلسات العلاج الروحى مما حدا بها إلى التطوع للعمل فى المكتبة ؛ لتكون قريبة من المعالجين من جانب ، ولتوفى دين العلاج الروحى من جانب آخر .

وأدهشنى ذلك الكم الهائل من الكتب والمجلدات التى احتلت أرفف هذه المكتبة الضخمة ، والتى تتناول الجوانب المختلفة لعلم الروح والمجلات والدوريات التى تتناول هذه الظاهرة من كل جوانبها فى جميع أنحاء العالم ، كما أدهشنى تلك الأعداد الكبيرة من القراء الذين يترددون على المكتبة سواء للاطلاع ، أو لاستعارة الكتب منها .

وكان من بين الظواهر الغريبة تلك الجلسات التى كانت تتم مرتين أسبوعيا عن الوساطة الروحية ، والتى كانت تخصص فى كل مرة لأحد مشاهير الوسطاء الروحيين فى إنجلترا ، حيث كان الوسيط سواء كان رجلا أو امرأة يروح فى شبه استغراق لعدة دقائق ، ثم يعود إلى نفسه بعد ذلك ليخبر الموجودين الذين اصطفوا فى القاعة المخصصة لذلك والشبيهة بقاعات المحاضرات أو المدرجات الكبيرة نسبيا ، أن هناك روحا فى المكان قد حضرت من أجل أحد الموجودين ، والذى قد يكون أحد أفراد الأسرة أو من بين الأصدقاء المقربين ؛ لينقل الوسيط بعض الرسائل الروحية إلى الشخص المعنى بعد أن يقوم بإعطاء بعض الأوصاف أو بعض المؤشرات أو الدلائل التى تكشف عن شخصية الروح القادمة من العالم المجهول ، كأن يذكر الوسيط اسم صاحب تلك الروح ، أو اسم الشخص الذى أتى من أجل لقاء الروح من بين الموجودين ، أو أن يصف الوسيط بدقة ملامح وهيئة الروح ، والعلامات المميزة أوالتصرفات المعينة التى تخص صاحب الروح ، عندما كان على قيد الحياة .

بل كثيرا ما كان الوسيط يصف في إسهاب وفي صورة تفصيلية توضيحية المكان الذى عاش فيه صاحب الروح من قبل، وتفاصيل المكان الدقيقة من حجرات أو أثاث أو تحف أو خلافه، وكأنما يمر أمام عينيه فيلم سينمائي يقوم بنقل أحداثه وتفاصيله للحاضرين، ومن بينهم ذلك القريب أو الصديق الذى حضر الجلسة خصيصا من أجل الروح التى يرغب في لقائها من خلال الوسيط.

ولا تعنى قدرة الوسيط على الاتصال بالأرواح قدرته على تسخيرها أو إحضارها، وإنما يكون في العادة طرفا سلبيا حتى تحضر الروح من تلقاء نفسها، عندما تشعر أن هناك في القاعة من يريد الاتصال بها من الأهل أو الأصدقاء، بل إن هناك من المترددين على هذه الجلسات من يواظب على حضورها مرات عديدة دون أن تظهر له الروح التى جاء من أجلها من خلال الوسيط.

كما أنه قد يحدث في بعض المرات أن يحضر شخص إلى مثل هذه الجلسات لمجرد قضاء الوقت أو من باب حب الاستطلاع؛ ليفاجأ بالوسيط وهو يعلن عن اسم وأوصاف الروح التى يراها من خلال الشاشة الروحية التى لا يراها أحد سواه، حيث يعلن الأوصاف الدقيقة لصاحب تلك الروح، واسم الشخص الموجود في القاعة، والذى لم يسبق له معرفته من قبل ليخبره أن الروح الموجودة قد جاءت من أجله.

وأذكر أننى خلال واحدة من تلك الجلسات كنت أجلس بجوار امرأة متوسطة العمر، وقد أجهشت بالبكاء عندما أعلن الوسيط عن وجود روح صبى كان قد انتقل في حادث تصادم سيارة، وأن روح ذلك المنتقل - حيث لا يستخدمون كلمة متوفى - قد جاءت خصيصا لمقابلة أمه التى ذكر اسمها، والتى كانت تجلس إلى جوارى حيث كانت هذه هى المرة الأولى لها التى تحضر فيها مثل هذه الجلسات، بل وكانت تنفى بشدة صدق وصحة الوساطة الروحية.

وكان يحدث في بعض هذه الجلسات أن ينهض أحد الحاضرين ليوجه بعض الأسئلة للروح المتمثلة للوسيط، حتى ولو لم يكن له بهذه الروح أى صلة، وحيث كانت تجيب الروح أحيانا على هذه الأسئلة، أو تعتذر عن الإجابة لعدم معرفتها بها.

وقد قمت في واحدة من هذه الجلسات والتى كان الوسيط فيها امرأة مسنة، بسؤال الروح التى كانت موجودة والتى كانت لكاهن فرعونى اسمه «رامادان»، عن الخطوة التى يجب عليّ اتخاذها فيما يختص بإجراء العملية الجراحية، أو عدم إجرائها، حيث أخبرتنى الوسيطة أن الروح تنصحنى بعدم إجراء العملية، والالتجاء إلى العلاج الروحى الذى قد يحقق المشيئة الإلهية فى الشفاء.

ويبدو أن الوسيط الروحى فى تلك الجلسات لا ينفصل تماما من الواقع وعن المكان الموجود به، حيث وجدت تلك الوسيطة فى أثناء انصرافها بعد انتهاء الجلسة تتوقف عندما حادثتنى، وتسألنى عما إذا كنت قد جربت جلسات العلاج الروحى من قبل. وعندما أخبرتها أننى أواظب على تلقى هذه الجلسات منذ عدة أسابيع دون جدوى؛ أشارت علىّ بمحاولة العلاج عن طريق «مسز ديفنى» تلك المعالجة الروحية الشهيرة.

واصطحبتنى إلى المكان المخصص للاستقبال، حيث طلبت منى بعد أن كتبت لى رقم تليفون «مسز ديفنى» أن أتصل بها لتحديد موعد معها للعلاج، على حين ستقوم الجمعية بدورها بالاتصال بها وتمهيدها لمكالمتى التليفونية معها.

ولاحظت بينما كنت أتحدث مع تلك الوسيطة العجوز التى كانت تتمتع بقامة ضخمة، وأكتاف عريضة، وبملامح تتميز بالخشونة التى سرعان ما تتوارى أمام صوتها الهادئ اللطيف، ونظراتها الرقيقة المتفهمة، أن تلك المرأة لا تفتأ تنظر إلىّ فى تمعن واهتمام.

وما كدت أتركها وأنا أوجه لها كلمات الشكر على اهتمامها ورعايتها، حتى وجدتها وقد أسرعت ورائى، وهى تدق على كتفى فى رقة لتسألنى من أى بلد قد جئت، حيث قالت لى إن لكنتى أقرب إلى اللكنة الأمريكية عنها إلى اللكنة الإنجليزية، ورأيت وجهها وقد تهلل فرحا وسعادة عندما أخبرتها أننى مصرية.

وسألتنى عما إذا كنت أعرف «يوسف وهبى» الذى قالت إنها فى مرحلة من مراحل حياتها قامت بإجراء عملية جراحية له عن طريق الأرواح فى ركبته، وإنها كانت تعلم أنه فنان مصرى مشهور، وأنه ظل يراسلها لعدة سنوات بعد ذلك، إلى أن انقطعت عنها أخباره فجأة.

وراحت السيدة العجوز الضخمة الملامح الرقيقة النظرات تعلن أسفها لوفاته بعد أن علمت منى أنه قد انتقل إلى رحمة الله.

وحرصت طوال إقامتى فى لندن على التردد على الجمعية لحضور جلسات الوساطة التى كانت تخصص لتلك السيدة، والتى كانت تدور حول روح ذلك «الكاهن الفرعونى» الذى كان يتصل بها خلال جلسات وساطتها الروحية، فيما هو أقرب إلى سلسلة من المحاضرات التى كانت الجمعية تقوم بطبعها فى كتيبات، كل محاضرة منها فى كتيب على حدة، والتى ما زلت أحتفظ ببعضها رغم صعوبة مفرداتها الصوفية الروحانية، والتى بدت لى ذات نزعة فلسفية معمقة.

وهكذا أخذتنى تلك الوسيطة الروحية إلى باب «مسز ديفنى».

الوسيطة الروحية الإنجليزية التى أحببتها

كانت «مسز ديفنى» تسكن بالقرب من محطة «بادنجتون» فى إحدى البنايات التى تتكون من نحو خمسة طوابق، والتى كان كل طابق منها يحتوى على نحو أربع أو خمس شقق.

وكانت شقتها التى تقع فى الطابق الثالث شقة صغيرة أنيقة، بأثاثها القليل المنتقى بعناية وذوق رفيع، والذى أعطى اتساعا ملحوظا محببا لحجرتى المعيشة والطعام اللتين يفصل بينهما «آرش» واسع جعلهما تبدوان كجزء واحد، حيث كان الجزء المخصص للطعام يكاد أن يكون متصلا بالمطبخ الأمريكى الطراز، الذى بدا غاية فى الترتيب والنظافة، وكانت تربط بين حجرتى المعيشة والطعام شرفة كبيرة رحبة امتلأت بمجموعة من المقاعد الخيزرانية بحشاياها الملونة الجميلة، تطل على الحديقة الخلفية الكبيرة المزهرة.

وكانت «مسز ديفنى» قد حددت لى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم موعدا لزيارتها، بعد أن تحدثت إليها تليفونيا فى اليوم السابق، حيث أصرت على الهبوط من شقتها خصيصا لاصطحابى بعد أن قمت بالضغط على الزر، الذى يشير إلى رقم شقتها على جهاز «الإنتركوم»، وحيث قامت بفتح الباب الخارجى للبناية أتوماتيكيا من شقتها قبل أن تهبط إلىّ بالمصعد، لتلقانى بابتسامتها الدافئة.

وعادت بى «مسز ديفنى» إلى شقتها حيث قدمت لى أحد المقاعد الكبيرة للجلوس عليه، بينما انصرفت عنى لبعض الوقت عندما انشغلت بالرد على التليفون، الذى كان جرسه لا يزال يدق ونحن نلج من باب الشقة.

وأخذت أقطع الوقت خلال مكالمتها التليفونية التى بدا أنها تحدد فيها موعدا للقيام بجلسة من جلسات العلاج بالتنقل ببصرى فى أرجاء الشقة الأنيقة، التى علق على جدرانها عدد من «البورتريهات» لبعض أفراد أسرتها، والتى تم رسمها بالألوان الزيتية، والتى تم وضعها داخل إطاراتها الأنيقة بطريقة فنية تنم عن درجة عالية من التذوق الفنى.

وأخذت أرقب «مسز ديفني» بحجمها الدقيق، وتقاسيم جسدها الجميل التى أبرزها ثوبها الوردى الأنيق رغم سنوات عمرها التى تجاوزت السبعين، وساقيها المتناسقين المشدودين فى جوربها الذى شف عن لون بشرتها العاجى، وقدميها الصغيرتين فى حذائها الأنيق ذى الكعب العالى العريض، ورأسها الذى يحمله عنقها الطويل فى شمم وكبرياء، وإلى وجهها البيضاوى الذى يكاد يخلو من التجاعيد سوى من بعض الخطوط البسيطة أسفل عينيها الزرقاوتين الصافيتين الواسعتين، وأهدابهما الطويلة التى زادتها الماسكرا السوداء طولا وكثافة، وأنفها المستقيم المتناسق، وشفتيها الرقيقتين المطليتين بخفة بطلاء الشفاه الوردى واللتين انفرجتا عن أسنان بيضاء سليمة متناسقة، وشعرها الثلجى الناعم القصير بتصفيفته الرائعة، وكأنها قد عادت للتو من أحد دور مصففى الشعر.

وبينما كنت أرقب تلك السيدة الجميلة التى بدت وكأنها فى الأربعينيات من عمرها بوجهها ذى الابتسامة الملائكية، وتعبيرات وجهها، وحركات يديها الراقية الأرستقراطية.

وإذا بى وقد رجعت بسنوات عمرى إلى ما يزيد عن أربعين سنة خلت؛ لتنبعث ذكرى غالية من طيات الماضى البعيد، لتجسد أمام عينى وجها حبيبا لم يغب فى طيات النسيان رغم مر السنين، وجه مدام **«مارى شكيب»، أميرتى الراحلة، صديقتى العجوز.**

واجتاحنى حنين جارف إلى الأيام الغابرة، واستغرقنى وهم حالم بأن أميرتى الراحلة قد تجسدت أمامى فى صورة «مسز ديفنى». وهالنى من ذلك التشابه الهائل لوجهيهما الملائكيين وكتمت رغبة هائلة فى أن أمد راحة يدى لأتحسس بها وجهها النورانى، كما تعودت أن أفعل مع الراحلة الغالية عندما كانت حبيسة الفراش.

وانتشلنى من ذكرياتى الحالمة صوتها الهادئ وقد انتهت من مكالمتها التليفونية، وهى تسألنى عن مشروبى المفضل، حيث توجهت فى خطواتها الخفيفة إلى المنطقة التى يقع فيها المطبخ، وحيث عادت بعد لحظات وهى تدفع أمامها منضدة الشاى المنخفضة ذات العجلات، حيث قامت بصب الشاى لكلينا فى فنجانين من الصينى الفاخر، والذى قدمت معه بعض الفطائر الإنجليزية والبسكويت الذى قامت بإعداده شخصياً.

وشجعتنى ملامحها الهادئة، وابتسامتها الرقيقة، على أن أسألها عن قصتها مع العلاج الروحى، حيث استجابت فورا لسؤالى وحيث بدأت تروى قصتها بذلك الصوت الهادئ الحلو النبرات.

* * *

توفى زوج «مسز ديفني» وهى فى نحو الثانية والثلاثين من عمرها، وترك لها صبيا فى نحو الثانية عشرة من عمره. وبعد وفاة زوجها بعدة أشهر بدأت تسمع صوتا هامسا، وإن كان جليا واضحا لروح امرأة. وبدأ ذلك الصوت يوجه تصرفاتها وسلوكها وما يجب عليها عمله وما لا يجب، بعد أن أصبح عليها مواجهة الحياة مع ابنها الصبى، وبدأت عن طريق تداعى الخواطر تدخل مع تلك «الروح» فى بعض الحوارات للتعرف على عالم الروح وعن الكتب التى تستطيع قراءتها عن ذلك العالم المجهول.

وكان من بين الأساسيات التى تكفل استمرار اتصال «الروح» بها عن طريق الجلاء السمعى، أن تحتفظ «مسز ديفني» بكينونتها الروحية غير المادية، وطهارتها الجسدية، وأن تسمو فوق الشهوات والمطالب الدنيوية، وأن تنكفئ على تربية ابنها، وأن تظل بلا زواج.

وأدركت «مسز ديفني» أن الله قد اختارها للقيام برسالة سامية عندما بدأت تلك الروح فى ملازمتها بصورة شبه دائمة، وعندما بدأ المرضى من أفراد الأسرة أو الأصدقاء يبرءون من أمراضهم كلما جمعت الظروف بينها وبين أى منهم فى أى مكان.

وأصبحت «الروح المرافقة» لها تستدعى بعض الأرواح الأخرى الأكثر خبرة فى مجالات الطب المختلفة، كلما حلت «مسز ديفني» فى أى مكان به أحد المرضى.

وذاع صيت هذه السيدة على مر السنين، وأصبحت مقصدا للمرضى باختلاف أنواع أمراضهم من كل أنحاء بريطانيا؛ مما دفعها إلى الانضمام لعضوية الجمعية الروحية لبريطانيا العظمى، حتى تستطيع منح خدماتها لأكبر عدد من الناس، وحيث ظلت تتردد على الجمعية كمتطوعة للعلاج، حتى قررت الجمعية أخيرا منذ سنوات وبعد زواج ابنها ومغادرته لندن إلى إحدى المدن البعيدة، أن تمارس نشاطها فى العلاج داخل منزلها، حيث أصبحت الجمعية تقوم بتحويل الحالات المستعصية التى تحتاج إلى قدر كبير من القدرات الروحية إليها.

واستمرت مسز ديفني تواصل عطاءها دون تفرقة بين جنسية وأخرى أو ديانة وأخرى، وقد استكانت إلى «روحها المرافقة» لها التى أصبحت توجهها فى كل جوانب حياتها، وتنبهها إلى كل مواقف الخطر، وتنتشلها من كل المواقف الصعبة.

وما أن انتهت «مسز ديفني» من حديثها حتى نهضت من مكانها وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مرحبة، وهى تعلن بدء جلسة العلاج حيث توجهت إلى إحدى الأرائك وسحبت من خلفها شيئا أشبه بلوح كبير فى طول الكنبة وعرض أحد الأسرة الضيقة،

حيث فردت قوائمه المتحركة ليصبح شيئا كالسرير المرتفع الشبيه بمنضدة العمليات وضعته في وسط الحجرة، وطلبت منى الاستلقاء عليه.

ثم بدأت جلسة العلاج...

كان علاج «مسز ديفني» يكاد لا يختلف عن علاج الآخرين في جمعية بريطانيا العظمى، سوى في الجزئية الخاصة بالاستلقاء على الفراش والمرور بيديها في الهواء حول جسدى كله من رأسى إلى أخمص قدمى، وإن كانت قد أعلنت أن هذه الجلسة ليست من أجل العلاج وإنما هى جلسة للكشف على كل جسدى، لمعرفة حالتى الصحية والمناطق التى تستدعى العلاج، وظلت الحرارة المنبعثة من يديها فى أثناء العلاج تنبئنى بمناطق جسمى التى تمر حولها يديها، بينما انشغلت عنها بعد أن طال علاجها بتأمل الصور المعلقة على الحوائط يمينا ويسارا حتى تنبهت فجأة إلى حرارة يديها وقد انعكست أسفل منطقة البطن، حيث طلبت منها أن تركز فى تلك المنطقة؛ لأننى كنت أعانى من بعض المشكلات السابقة، حيث وجدتها تعلن بعد ثلاث أو أربع دقائق أن المبيض الأيمن سليم وكذلك المبيض الأيسر، ولا يوجد أى مشكلات بهما، وأنها قد اكتشفت أن الرحم قد تم استئصاله.

وتعجبت لتلك القدرة غير المفهومة فى استجلاء تلك المناطق الخفية، حيث وجدت أنها فرصتى الذهبية لإجراء كشف عام على جسدى، وفى نفس الوقت التأكد من قدرات ومواهب مسز ديفنى الروحية، حيث طلبت منها أن تقوم بالكشف على أكتافى لأننى أعانى من بعض الآلام فى واحد منهما.

وإذا بيديها تدوران حول أكتافى جيئة وذهابا بحرارتهما الشديدة، لتعلن فى ثقة أن كتفى وذراعى الأيمن سليمان، وأن كتفى الأيسر وذراعى الأيسر ليسا سليمين، وأن هناك بعض الأعصاب التى تعانى من الضغط عليها والالتهاب، حيث كان ذلك صحيحا فى الواقع، وحيث كنت أتلقى بعض جلسات العلاج الطبيعى على منطقة مفصل الكتف قبل مغادرتى القاهرة.

ولذلك؛ فإننى لم أتشكك فيما قالته لى فى أثناء استكمال الكشف عندما قالت إن ثديى الأيسر به ورم صغير، وإن روحها المرافقة سوف تستدعى أحد الأرواح من الأطباء فى جلسة أخرى كبرى لاستئصال ذلك الورم.

واهتزت ثقتى فجأة فى «مسز ديفنى» عندما أخذت تدور بحرارة يديها حول رأسى

عدة مرات، حيث أعلنت أن هناك ورما صغيرا أسفل الغدة النخامية إذ إن كافة صور الأشعة التى أجريتها فى هذه المنطقة لم تشر إلى هذا الورم.

بل إن تقرير الأشعة الخاصة بالرنين المغناطيسي الذى كان من أحدث وأغلى وسائل التشخيص أشار صراحة بعدم وجود أى دليل على وجود «أدينوما»، وهو نوع من الأورام التى قد تصيب هذه المنطقة.

وعادت «مسز ديفنى» لتؤكد لى صحة ما تمليه عليها «روحها المرافقة» عن حالتى المرضية بالتفصيل، وأن تلك الروح لديها القدرة على رؤية كل ما بالجسم تفصيليا وكأنها عدسة كاميرا، وأننى أحتاج إلى جلسة أخرى بعد يومين لاستكمال الكشف.

وانصرفت من منزل «مسز ديفنى» بعد أن استغرقت عملية الكشف وأنا مستلقية على تلك المنضدة المرتفعة ما يقرب من الساعتين، وحيث رفضت تماما أن تتقاضى منى مليما واحدا نظير ذلك المجهود الذى بذلته معى وهى واقفة على قدميها، وقد أخذت تلف حول الفراش عشرات المرات، وتدور بيديها فى الهواء حول جسدى على مدار ساعتين كاملتين، إذ أخبرتنى أنها ميسورة الحال لدرجة الثراء، وأنها تقوم بذلك العمل لوجه الله تعالى، وأنها تستفيد استفادة كبرى من خلال اختراق الروح لجسدها فى أثناء العلاج، حيث يمدها ذلك بالصحة والنشاط، ويحميها من العلل والأمراض.

* * *

وعدت «لمسز ديفنى» بعد يومين كما طلبت، حيث فتحت لى باب العمارة أتوماتيكيا، وحيث توجهت بمفردى إلى شقتها بعد أن استقللت المصعد، وأطل على وجهها البشوش الجميل وهى تفتح لى باب الشقة، الذى أعاد لى مرة أخرى ذكرى الراحلة العزيزة «مدام مارى شكيب» رغم الفارق الزمنى بين عمريهما، ورغم اختلاف آثار السنين على وجهيهما.

وقامت «مسز ديفنى» بعد أن قدمت لى الشاى والكعك بنفس الطقوس التى قامت بها فى المرة السابقة ولنفس المدة أيضا، حيث أعلنت أن الروح المرافقة قد انتهت مهمتها تماما، وأنها سوف تصطحب معها فى المرة القادمة بعد يومين بعض الأرواح من الجراحين لاستئصال الورم الموجود فى الصدر وكذلك الورم الموجود فى المخ، وأن استئصال ذلك الورم سيذهب بآلام الصداع، وطلبت منى أن أعود بعد يومين، وأن علىّ خلال هذين

اليومين أن أكون في حالة روحانية عالية، وأن أقضيهما في الصلاة والعبادة والدعاء بالطريقة التي تتفق مع عقيدتي أيا كانت طالما أؤمن بأن هناك إلها خالقا واحدا.

وظللت خلال اليومين التاليين أعد الدقائق والساعات في انتظار موعد الخلاص، وأنا ممزقة بين عقلي المادي العقلاني العلمي، وبين تلك الشواهد التي تؤكد على ذلك العالم الغيبي المجهول الذي لا نستطيع الكشف عن أستاره وأسراره، حيث سلمت في النهاية بأنني أسعى إلى هدف معين ثابت وهو التخلص من ذلك الصداع اللعين، بغض النظر عن الوسيلة طالما أن تلك الوسيلة لا تتعارض مع إيماني بالله ورسله وأوليائه.

الأرواح الإنجليزية أجرت لى عملية جراحية فى المخ!

ذهبت إليها فى اليوم الموعود وكأننى أطير، وكان موعدنا فى العاشرة صباحا من ذلك اليوم، ووجدتنى أمام عمارتها فى الساعة التاسعة صباحا أى قبل الموعد بساعة كاملة، وأخذت أقطع الرصيف أمام بيتها جيئة وذهابا مرات ومرات حتى أصابنى التعب.

ورأيت نتوءا بارزا بجوار الباب فجلست عليه إلى أن أشارت عقارب الساعة فى معصمى إلى العاشرة تماما فدققت الجرس، وأسرعت بالمصعد إلى شقتها؛ ليطالعنى وجهها البشوش وابتسامتها الهادئة.

وقامت بفرد القوائم المتحركة للمنضدة أو السرير الذى اعتادت أن تعالج عليه مرضاها، وأخبرتنى أن العملية سوف تبدأ فورا، وأن «الروح المرافقة» لها تخبرها أن الأرواح الأخرى للأطباء موجودة معها، وأن العملية ستتم دون أن أشعر بأى ألم أو أى تغيير على الإطلاق.

وتمددت على السرير الضيق، واستسلمت لحرارة يدى «مسز ديفنى» وقد انتابنى شىء من التوتر والقلق الذى استشعرته معالجتى، أو ربما الذى استشعرته «**روحها المرافقة**»، حيث أخذت «مسز ديفنى» بصوتها الهادئ ونبراته الحلوة تطلب منى الاسترخاء وعدم التوتر أو الخوف، وأن أستسلم لأية أفكار روحية أو خيالات وذكريات محببة.

ووجدتنى **وأنا أتابع «مسز ديفنى»** التى كانت آنذاك تدور بحرارة يديها حول ساقى وقدمى، أتذكر أميرتى الراحلة بكل تفاصيل وجهها وقامتها، وأستعيد لحظاتى وأيامى الحلوة حولها **وبدأت أخلط بين وجه جدتى ووجه مدام مارى شكيب... و...**

ولم أشعر بشىء فقد جرفتنى الذكريات السعيدة إلى أغوار سبات عميق، أفقت منه بعد ساعتين عندما شعرت بيد «مسز ديفنى»، وهى تربت على كتفى وتدعو لى بأن يحمينى الله وأن يباركنى، معلنة أن المرحلة الأولى من العملية قد انتهت.

وساعدتنى «مسز ديفنى» فى النهوض، وقد ثقل رأسى بشكل غريب، وتعالى فيه نوع من الألم الممضى الذى لم أكن أدرى أهو نوع من الإيحاء لكونى قد انتهيت لتوى من عملية جراحية فى المخ؟ أم لأننى كنت أعانى بالفعل من الآلام التى تعقبت العمليات الجراحية بعد عودة الوعى وانتهاء تأثير المخدر؟ أم لأننى قد استسلمت للنوم دون أن آخذ كفايتى منه؟

وظلت «مسز ديفنى» وهى تسندنى لتجلسنى فى أحد المقاعد المريحة بعد أن وضعت وسادة خلف رأسى، تشجعنى على تحمل الألم الذى أعقب المرحلة الأولى من العملية، وتهنئنى على قرب الشفاء.

ثم تركتنى متجهة إلى المطبخ حيث عادت وبيدها آنية خزفية بها بعض حساء الخضروات الساخنة التى يتصاعد منها البخار، حيث أصرت على أن تطعمنى إياها بيديها رغم أننى كنت على درجة جيدة من الوعى والتماسك.

وما أن انتهيت من تناول الحساء حتى توجهت إلى المطبخ مرة أخرى، وعادت تحمل فى يدها قدحا كبيرا من القهوة المركزة القوية الذى ناولتنى إياه، حيث أخذت فى احتسائه ببطء، بينما عادت إلى المقعد الذى تعودت على الجلوس عليه فى مواجهتى.

وأخذت تشرح لى ما حدث تفصيليا، وهى تضع يدها على أذنها بين كل عبارة وأخرى، وكأنما هناك من يلقنها، أو يتحدث إليها فى أذنها.

قالت إن «روحها المرافقة» قد حضرت قبل بدء الجلسة ومعها أرواح الأطباء المتخصصين، حيث قاموا أولا باستئصال الورم الذى كان فى صدرى، ثم قاموا بفتح جمجمتى دون أن يسيل منها نقطة دم واحدة، ثم قام أحد أطباء الأرواح . . . بإدخال مشرط إلى المنطقة المستهدفة حيث تم استئصال الورم الموجود أو على الأصح جزء منه، ثم قاموا بخياطة الجرح بعدد من الغرز الدقيقة التى لن تترك أثرا، وإن علىّ أن أعود بعد عشرة أيام كاملة لاستكمال العملية.

وانصرفت من عندها متوجهة إلى حجرتى فى المسكن الجامعى، وأنا أتعجب لذلك الألم الذى تضج به رأسى، ولعدم التوازن الذى أشعر به، وكذلك أتعجب لتلك الإغفاءة التى استمرت نحو الساعتين فى منزلها خاصة وأننى لا أستسلم للنوم إلا إذا توفرت عدة شروط، منها أن تكون أنوار الحجرة مطفأة عدا ضوء الأباجورة المجاورة للفراش، وأن يكون المكان خاليا تماما من أى شخص سواى، وأن أضع فى أذنى السدادات الشمعية التى تمنع وصول الأصوات لأذنى، وأن أقرأ قبل الاستسلام للنوم نصف ساعة أو أكثر حتى يغلبنى النوم ويبدأ الكتاب فى السقوط من يدى فأسارع بإطفاء الأباجورة فى لحظة خاطفة لأغرق فى النوم.

من الذى قتل الوسيطة الروحية الإنجليزية؟

ظللت لعدة أيام أعانى من تلك الآلام الحادة التى لا أجد لها مبررا سوى إجراء عملية جراحية فى المخ فعلا إلا إذا كان ذلك نوعا من الوهم والتخيل، رغم أننى أكثر الناس بعدا عن التأثر بالإيحاء أو الوهم أو التخيلات.

وتحملت فى صبر وصمت الأيام الأولى حيث عاد الصداع إلى معدله الطبيعى، وحيث قضيت الأيام المتبقية على موعد العملية الثانية فى حالة من التصوف والزهد والتعبد، وأمهد نفسى روحيا لليوم الموعود، وكأننى استعد ليوم الحساب.

ووصلت أيضا فى ذلك اليوم قبل موعدى بنحو ربع الساعة قضيتها جالسة على ذلك النتوء المجاور للباب. وفى تمام العاشرة فتح باب العمارة وخرج منه أحد السكان، حيث ولجت إلى داخل العمارة واستقليت المصعد متجهة إلى شقة «مسز ديفنى». وانفتح الباب على الفور بعد أن دققت الجرس، ليطل منه وجه وسيم لرجل فى أواخر الأربعينيات من عمره، حيث تراجعت فى حرج عندما فاجأنى مرآه، وأنا أنظر إلى باب الشقة لأقرأ رقمها ظنا منى أننى قد أخطأت الشقة المقصودة. وحيث أكد لى هذا الرجل بعد أن أخبرته أننى أريد شقة «مسز ديفنى» أننى لم أخطئ الشقة، وأنه ابنها.

ووجدته يردد كلمة لم يسبق لى سماعها باللغة الإنجليزية، حيث عاد يردد بعد أن أدرك عدم استيعابى للكلمة التى قالهـا إن أمه «مسسز ديفنى» قد ماتت، قد قتلت فى اليوم السابق.

وأخذتنى تلك المفاجأة المذهلة، وانهرت استند إلى الباب المفتوح، وقد أمسكت به بكلتا يدى، وشعرت بأن ساقى قد أصبحتا عاجزتين عن تحمل ثقل جسدى.

وإذا بذلك الرجل يسارع إلىّ كى يحميني من السقوط، وهو يوجه نداء استغاثة إلى شخص آخر بالداخل؛ حيث هرعت إلينا فى فزع شابة سوداء، وقد مدت إلىّ يدها

لتسندني وتساعدني على الجلوس على أحد المقاعد الذى انهرت فيه وقد انهارت معى أحلامي، وانسابت دموعى أبكى معالجتى الرقيقة .

عادت لى ذكرى دموعى التى انسابت يوم علمت بوفاة «أميرتى الراحلة» العزيزة مدام «مارى شكيب» .

ولم تفلح الشابة السوداء بكوب الماء الذى أسرعت بتقديمه لى ولا بكلماتها الرقيقة الهادئة التى عرفت منها أنها تسكن فى الشقة المجاورة فى إيقاف شهقاتي، ولم تفلح محاولات الرجل فى إيقاف دموعى المنهمرة وقد أمسك يدى بكلتا يديه يدلكها فى حنان وقد ركع على ركبتيه على الأرض أمام مقعدي، وهو يخبرنى أنه ابنها، وأن أمه حدثته عنى كثيرا خلال مكالمتهما التليفونية المتبادلة خلال الأسابيع السابقة .

وأخذ ابن «مسز ديفني» يقص عليّ ما حدث لأمه، وكأنما أنا أعيش حلما أو كابوسا قاتما كئيبا، وقد أثقل قلبى هم وحزن قاس جعل دموعى غير قادرة على التوقف طوال فترة حديثه معى .

قال إن والدته اعتادت أن تعود واحدا من المرضى فى منزله بعد انتهائها من مقابلة مرضاها طوال اليوم، وإنها فى تلك الليلة عادت من منزل ذلك المريض، الذى كان فى حالة صحية سيئة لا تمكنه من التوجه إلى منزلها لتلقى جلسات العلاج، فى الساعة الحادية عشر مساء سيرا على الأقدام .

وأنها فى أثناء اجتيازها لأحد الشوارع الخالية تعرضت لمهاجمة ثلاثة من الشباب السود الذين اختطفوا منها حقيبة يدها، وأوسعوها ضربا بعد أن نزعوا كل مجوهراتها التى كانت تتحلى بها، وأنها استغاثت بعد هربهم ببعض المارة الذين ساعدوها فى الوصول إلى منزها وقد سالت من جروحها الدماء، وامتلأ جسدها بالكدمات .

وأسرع الجيران باستدعاء شرطة سكوتلنديارد، حيث أخذت أقوالها وحيث أدلت بأوصاف المهاجمين . وبعد انصراف أفراد الشرطة، قام الجيران بمساعدتها فى تغيير ملابسها، ووضعوها فى الفراش بعد أن تناولت شرابا ساخنا، ثم انصرفوا بدورهم بعد أن اطمأنوا عليها .

واستكمل ابن «مسز ديفني» قصته قائلا إن البستانى الذى اعتاد أن يعتنى بالحديقة الخلفية فوجئ فى الصباح الباكر من اليوم التالى، بوجود جثتها ملقاة على أرض الحديقة فى المنطقة الواقعة أسفل شرفة شقتها .

وما أن بلغ الرجل هذا الحد من الحديث حتى وجدته وقد انهار بدوره باكيا وهو يرتمى على ركبتى فى لوعة وقد علا نشيجه، مما انعكس بدوره على المرأة السمراء التى انهارت

هي الأخرى في نوبة بكاء حادة وقد ركعت بجواره على الأرض وقد احتضنت رأسه بإحدى يديها ، بينما احتضنت رأسي التي ملت بها عليها بيدها الأخرى . وانخرطنا ثلاثتنا في البكاء وقد اختلطت دموعنا .

* * *

وانصرفت في ذلك اليوم بعد أن قضيت عدة ساعات في منزلها الذي خلا منها .

وعلمت من ابنها بعد أن تمالك نفسه وعاد إليه هدوءه أن شرطة سكتلنديارد ما زالت تحقق في الواقعة ، وأن جثتها التي ما زالت في المشرحة سوف تدفن في مدافن الأسرة في اليوم التالي في منطقة «كنزنجتون» غرب لندن . وودعت جثمان «مسز ديفني» وهو يتوارى في التراب ، وانسابت دموعي التي لم أكن أستطيع تمالكها رغم يد ابنها التي كانت تشد على يدي التي أمسك بها طوال فترة مراسم الجنازة . وحزمت حقائبي وغادرت لندن فور الانتهاء من الجنازة رغم أن موعد عودتي للقاهرة كان مفتوحا ، بعد أن كنت قد انتهيت من الدورة التدريبية في الجامعة منذ عدة أسابيع .

* * *

وهكذا رحلت «مسز ديفني» وأخذت سرها معها.

لن يعرف أحد أبدا ما حدث ، فقد احتارت الشرطة ، واحتار معها ابنها والجميع في ذلك السبب الذي أدى إلى سقوطها من الشرفة .

هل تمكن مهاجموها الزنوج بشكل أو بآخر من التسلل إلى شقتها ، وقاموا بإلقائها من الشرفة حتى لا تتعرف عليهم؟

هل خرجت «مسز ديفني» إلى الشرفة لاستنشاق بعض الهواء ، وأصيبت بالدوار الذي كان سببا في فقدانها لتوازنها وسقوطها إلى أرض الحديقة؟

هل انتحرت «مسز ديفني» عندما أدركت أو تخيلت أن روحها المرافقة قد تخلت عنها؟

لا أحد يعرف؟

لقد أخذت سرها معها ورحلت. ذهبت وتركتني وراءها. لقد خذلتني.

وجلست على مقعدي في الطائرة وأنا أرى طيف «مسز ديفني» يداعب خيالي .
وبدأت أدرك أن «مسز ديفني» لم تتخلى عني ولم تخذلني. أدركت أن الموت هو الذي خذلني. فقد كان الموت أقوى من «مسز ديفني» وأقوى من «روحها المرافقة». كان الموت ولا يزال أقوى من كل شيء .

الطبيب الذى أخرج «الجنى» من رأسى

عدت إلى القاهرة وقد حزمت أمرى على ألا يكون فى حياتى أى مزيد من الأطباء أو من الروحانيين أو طاردى الجن والعفاريت حتى لو كانوا قادمين من الهند أو السند أو من بلاد تركب الأفيال. ودوامت على «بلبعة» المسكنات من كل صنف ولون. وبدأت أعانى فى بعض الفترات إلى جانب آلام القرحة من تمرد جسدى على المسكنات التى تفقد كل تأثيرها عندما يتشبع بها، فأضطر إلى الامتناع عن تعاطيها لمدة شهر أو نحوه، وقد سجنت نفسى إلى فراشى أتجرع الألم لأعود مرة أخرى لاستخدام المسكنات. حتى كان ذلك اليوم فى منتصف أبريل سنة ١٩٩٢.

* * *

قرأت فى إحدى الجرائد ذات صباح عن وصول أحد أساتذة المخ والأعصاب، الذين اعتادوا التردد على مصر لإجراء بعض العمليات الجراحية الكبرى وهو طبيب مصرى مغترب، ينتمى إلى إحدى الجامعات الإنجليزية الكبيرة وهى جامعة «ليدز».

وقررت أن أعرض عليه حالتى فربما تكون الاكتشافات الطبية خلال الشهور الماضية، قد توصلت إلى أى جديد فى مجال المخ يكون عونا لى فى العلاج.

واستقبلنى الطبيب الكبير بعد أن انتظرت دورى لعدة ساعات بسبب الزحام الشديد للمرضى، الذين جاءوا من جميع أنحاء مصر للاستعانة بخبرته، بوجهه الأبيض الشاحب الرقيق القسمات، وابتسامته المرسومة فى عينيه كما هى على شفتيه، حيث أخبرنى بأن احتمالات ذهاب الصداع غير مضمونة تماما، وأن المخاطر الناجمة عن إجراء العملية رغم كل الاحتياطات واردة، وأن علىّ أن اتخذ قرار إجراء العملية أو عدم إجرائها بسرعة، نظرا لاضطراره إلى العودة إلى إنجلترا بعد عشرة أيام.

ووجدتنى وقد اتخذت قرارى المفاجىء السريع، بأننى سوف أدخل المستشفى غدا

لأجرى العملية فى اليوم التالى ، حتى ولو كانت نسبة احتمالات الشفاء من الصداع ١٪ فقط .

وازداد تعجبه عندما أخبرته أننى قد اتخذت ذلك القرار نظرا لأننى لا أحيا حياة طبيعية مثل باقى البشر ، حيث وجدته وقد اتسعت ابتسامته فجأة ، وهو يشير بأصبعه إلىّ من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ، وهو يقول فى دهشة متسائلا :

ـ أما لو كنتى عايشة كان حيبقى شكلك إزاى؟

وقد كان الدكتور الكبير محقا .

فقد قابلته وأنا أضع ذلك القناع الذى تعودت على ارتدائه كلما خرجت من باب حجرة نومى بشعرى المصفف وقامتى المنتصبة الطويلة ، التى تتجلى رشاقتها فى خطواتى الواثقة وقد انتعلت فى قدمى حذائى ذى الكعب العالى ، وارتديت ثوبا جميلا من بين ثيابى التى أجيد انتقاءها وأجيد تصميمها ، وملامحى التى تبرزها براعتى فى استخدام مساحيق التجميل ، وابتسامتى التى لا تفارق شفتى .

ولم أدهش كثيرا لذلك التعليق فلطالما سمعت التعليقات التى تحكم علىّ من خلال ذلك القناع الذى ارتديه .

وكنت فى كل مرة ابتسم فى مرارة .

ألم أكن دائما ممثلة بارعة؟

* * *

وعدت فى ذلك اليوم إلى بيتى ، وطلبت من ابنتى تليفونيا والتى لم تكن قد أنجبت بعد أن تكون على استعداد للذهاب معى إلى المستشفى فى اليوم التالى ومعها ملابسها اللازمة للبقاء معى هناك .

وجاءنى صوت ابنتى صارخا من الطرف الآخر ، وهى تحاول إثنائى عن قرارى وهى تبكى بطريقة هستيرية ، وأصررت على المضى فيما اعتزمت عليه دون أن أخبر أحدا من أسرتى اكتفاء بابنتى وزوجها الشاب الذى كان بمثابة ابن لى ، فقد كنت أخشى أن تؤدى محاولتهم لاثنائى عن عزمى إلى ازدياد حالتى النفسية والعصبية سوءا وأن أصبح فى حالة معنوية لا تمكننى من الصمود لهذه العملية المعقدة .

ودخلت حجرة العمليات، واستلقيت على سرير العمليات، وأنا أقرأ كل ما أحفظه من آيات قرآنية وأدعية، وتوقفت عن التلاوة فجأة بينما كان الطبيب يغرس حقنة المخدر في ذراعي، وانتابني شعور غريب بأنني أهبط إلى أغوار بئر سحيقة في بطء وهدوء، ورحت في غيبوبة المخدر.

❋ ❋ ❋

أذكر من تلك التجربة التي مررت بها أنني في لحظاتي الأولى لاسترداد وعيي المشتت، أدركت وكأنما هناك أشباحا غير مرئية تلتف حولي فراشي.

وحاولت وأنا أرغم عيني أن تنفتحا ولو قليلا، وأنا أحاول جاهدة أن أعود إلى الدنيا التي خيل لي أنني قد تركتها وودعتها منذ لحظات، حتى أتبين ملامح وتفاصيل تلك الأشباح الغامضة.

وجاءني صوت خيل لي أنني سمعته من قبل، وقد اختلط بأصوات أخرى متداخلة، حيث أدركت بصورة مبهمة أنه يتحدث عن عملية ما، وأنه يهنيء شخصا ما لا أدري من هو.

وخيل لي وأنا أعاود فتح عيني اللتين انطبقتا مرة أخرى رغما عني أنني أرى وجه الدكتور الكبير مختلطا بوجه ابنتي وزوجها وشقيقاتي الثلاث اللاتي أخبرتهم ابنتي سرا نبأ عزمي على إجراء العملية، وقد تهمشت ملامحهم جميعا، واختلطت في عيني اللتين لم أقوى على استبقائهما مفتوحتين بملامح الأشباح الأخرى التي أدركت أنها لمجموعة من الأطباء في ملابسهم البيضاء.

وشعرت وكأنما أنا أهز رأسي في قوة وعنف لأطرد ذلك المخدر الذي يغلف وعيي، واستعيد ذلك الوعي الذي كان شبه غائب، وأن لا أدع جفني الناعسين المرتخيين ينطبقان مرة أخرى؛ حتى لا أعود إلى أعماق الغيبوبة التي أحاول أن انتشل منها ذاكرتي ووعيي.

ونجحت للحظة في أن ألم بالمدركات التي اهتزت قليلاً أمام عيني والتقطت بصعوبة بعض ملامح الملتفين حولي وخاصة وجه ابنتي الذي أعرف كل خطوطه، وهو يطل عليّ من خلال سحب المخدر المتكاثفة.

وما أن أدركت أنني قد التقطت ملامح ابنتي وأنني قد غادرت حجرة العمليات، حتى أغمضت عيني في استسلام، وأنا أتنهد في راحة، وأقول في ضعف وأنا أمضغ كلماتي المتداخلة غير الواضحة، وأنا أنطق بصعوبة بسبب شفتي المنطبقتين:

الحمد لله . . . أنا بشوف . . . الحمد لله . . . أنا باشوف . . .

ومدت ابنتى يدها تتحسس بها يدى فى رقة ، بينما مد الدكتور الكبير ليربت بها على وجنتى ، وهو يطمئننى مرة أخرى بأن العملية تمت على خير وجه ، ويهنئنى على سلامتى .

* * *

وانسحب الجميع من حولى ، بعد أن اطمأنوا على استعادتى الكاملة لوعيى . وعلمت من الممرضة بينما كانت تطمئن على انسياب محلول الجولوكوز بصورة منتظمة فى ذراعى أن العملية قد استغرقت حوالى أربع ساعات ، وأننى لم أحتج إلى نقل أى كمية من الدم كما كان متوقعا رغم أن زوج ابنتى رغم كراهيته الشديدة للحقن ، كان متأهبا للتبرع لى بدمه إذا ما استدعت الحاجة نظرا لتشابه فصيلتنا .

وعاد الدكتور الكبير ومعه نائبه الطبيب الشاب بعد نصف الساعة ، وقد خلع معطفه الأبيض حيث انحنى علىّ وأنا ممدة فى فراشى ليهنئنى مرة أخرى على نجاح العملية وأخذ الطبيب يشرح لى تفاصيل العملية لحظة بلحظة ، حيث قال إنه قد أجراها عن طريق شق جراحى فى الفك العلوى أسفل الشفة ، حيث قام المنظار ذو المشرط من خلال هذا الشق بالعبور خلف الأنف إلى جدار المخ ، وحيث قام بحفر ثغرة فى الجمجمة بآلة طبية شبيهة «بالشنيور» أوصلته إلى المنطقة التى تقع أسفل الغدة النخامية ، حيث وجد لدهشته أن هناك ورما صغيرا فى تلك الفجوة اسمه «أدينوما» والذى لم يظهر له أثر فى الأشعة المقطعية ، أو أشعة الرنين المغناطيسى ، والذى قام باستئصاله .

ثم قام بحشو الفجوة التى كان بها الورم بقطعة من الدهن التى كان قد استأصلها من جدار البطن ، حيث قام بعد ذلك بسد الثغرة التى أحدثها فى جدار الجمجمة بقطعة من العظم ، التى كان قد استأصلها من الحاجز الأنفى ، حيث استخدم فى ذلك نوع من الصمغ الطبى .

ولم يكد الطبيب يصل إلى هذه النقطة ، حتى وجدتنى ـ ورغم صراخ الألم فى رأسى ووجهى ـ ابتسم له وأسأله فى معابثة بتلك الطريقة المطوطة التى أمضغ بها كلماتى بسبب عدم قدرتى على تحريك شفتى المنطبقتين ، وأنا أقول فى ضعف ووهن وفى صوت هامس :

ـ صمغ ؟ بتقول صمغ يا دكتور ؟ يعنى لو كحيت والا عطست حتة العضم دى حتخرج من مكانها ، ويبتدى مخى يقع من مناخيرى ، وأمشى بعد كده من غير مخ ؟

وعاد الدكتور الكبير يستكمل وصف خط سير العملية وهو يجاريني في المعابثة، وهو يقهقه قائلا بأنه قد استخدم في ذلك نوعا من الصمغ غير المغشوش.

وأخذ الطبيب يشرح كيف أنه قام بعمل عدد كبير من الغرز؛ لخياطة أعلى اللثة في الفك العلوي، وكيف أنه قام بوضع فتيل من الشاش الرفيع يصل طوله إلى عدة أمتار. في كل من فتحتي الأنف، لتعقيم المنطقة المتصلة بالجيوب الأنفية والجزء المثقوب في جدار الجمجمة، وكذلك لمنع أي تلوث أو مكروبات قد تتسرب إلى هذه المنطقة من خلال فتحتي الأنف.

وما أن غادر الدكتور الحجرة، حتى انتابتني حالة من القيء المتكرر كان يخرج على أثرها كميات كبيرة من الدم المتجلط، الذي انزلق إلى معدتي في أثناء إجراء العملية، حيث استمر القيء لعدة ساعات، شعرت بعدها بالراحة النسبية.

وما أن انتهت نوبات القيء حتى طلبت من ابنتي أن تحضر لي المشط والمرآة وبعض أدوات التجميل، كما كنت قد تعودت خلال جميع العمليات الجراحية التي سبق لي إجراؤها، حيث لاحظت أن ابنتي تتهرب من إحضار ما طلبت، وتتلهى عن إجابة طلبي ببعض المهام الهامشية غير الضرورية.

* * *

كان قد مضى على خروجي من حجرة العمليات حوالي أربع ساعات عندما غادرت ابنتي الحجرة لسبب ما مع زوجها، عندما بدأت في بذل محاولة مستميتة لمغادرة الفراش والتوجه إلى الحمام الموجود داخل الغرفة دون أن أطلب مساعدة أحد، بينما كان الألم القاسي الحاد يكاد يعصف بكل جزء من رأسي، وعيني ووجنتي وأنفي وفمي.

كما أن الألم إلى جانب الضعف والوهن الذي كنت أشعر به، كادوا أن يطوحوا بي إلى الأرض، وظللت أتوكأ على كل ما أجده أمامي، وأستند على الجدران حتى وصلت إلى الحمام، وأنا أجبر قواي على عدم الاستسلام لوهني وضعفي وآلامي، وأنا أشجع نفسي وأشد من أزرها مستشهدة بالمرات الكثيرة التي كنت أغادر فيها الفراش بعد عدة ساعات في جميع العمليات التسع التي سبق لي إجراؤها وما كان يثيره ذلك من دهشة الأطباء والممرضات، دون أن أستعين بمساعدة أحد.

وما أن تمالكت قواي وأنا داخل الحمام، وأن استند إلى الحوض بكل ثقلي لأتمالك أنفاسي، حتى وجدتني أنظر إلى شكلي في المرآة المعلقة أعلى الحوض، وأنا أكتم صرخة

كادت أن تفلت من بين شفتى ؛ إذ هالنى أن أرى امرأة أخرى ، وقد انعكست صورتها فى المرآة ، امرأة لا أعرفها ولا صلة لها بتلك الصورة الأخرى التى كنتها قبل أن أدخل حجرة العمليات .

كان وجهى عبارة عن كتلة متورمة من اللحم لا معالم لها ، وكان مكان عينى خرزتان صغيرتان خضراوان ، وقد غاصا وسط وجنتى المتورمتين . وكان أنفى الذى أصبح لا شكل له قد انتفخ واحتل جانبا كبيرا من وجهى . وكانت شفتى العليا بكدماتها الزرقاء الغامقة قد بدت متضخمة متورمة واختفت معالمها . وكان لون بشرة وجهى القمحى الرائق قد تاه وسط تلك الكدمات الكثيرة التى حولت وجهى إلى شىء منبعج متورم ، وقد تداخلت ألوانه ما بين الأزرق القاتم واللون الأسود ، وكأنما أنا مهرج فى سيرك .

ورفعت يدى أتحسس بها مناطق الألم التى افترشت بالكامل وجهى المشوه ، بينما اندفعت ابنتى إلىّ فى هلع عندما لم تجدنى فى الفراش ، وهى تعنفنى وكأنها تعنف طفلا لمغادرتى الفراش بمفردى ودون مساعدة أحد .

وظننت أننى أبتسم حين أدركت أن وجهى المتورم الذى اختفت معالمه قد ابتلع ابتسامتى ، وأن تلك الابتسامة لم تترك أثرا على ملامح وجهى وأنا أقول لها من بين أسنانى التى يدوى فيها الألم ، والتى لا أستطيع فتحها إلا لعدة مليمترات فقط وأنا ألوك كلماتى فى صوت غامض هامس :

ـ يا رب اللى أنا فيه ده يبقى بفايدة .

وعدت إلى الفراش وأنا أحمل آلامى المدوية .

وعدت أتمدد فى فراشى وأنا أحمل وجهى القبيح الذى أصبح لا معالم له.

* * *

وانقضت أيام الألم القاسى التى أعقبت إجراء العملية . وانقضت أيام القبيح البالغ والتشوه المؤقت . وعدت إلى بيتى أقرب ما أكون إلى طبيعتى . ولم تكن أمى أو زوجى على علم بما حدث حتى ذلك الوقت .

* * *

نجحت شقيقاتى فى إخفاء الخبر عن أمى وزوجى ، فقد كان من المتبع أن يتصل بى زوجى وابنتى تليفونيا كل أسبوع .

وكنت قبل دخولى إلى حجرة العمليات بساعة واحدة قد اتصلت بزوجى تليفونيا فى السعودية ، حيث تعللت بأننى أريد منه شراء بعض الأشياء التى أحتاجها ، ولم أشر من قريب أو بعيد إلى العملية ، حيث اتفقت معه أن يطلبنى فى نفس اليوم من الأسبوع المقبل .

وفى اليوم المحدد وخلال إقامتى فى المستشفى اتصل زوجى بإحدى شقيقاتى ؛ ليسألها عن سبب عدم وجودى أو وجود شيرين فى المنزل ، حيث قالت له مثل ما كانت قالته لأمى ، وهو أننى فى بورسعيد من أجل بعض الأعمال الطارئة .

أما ابنى فإن الأمر قد اختلف معه ، فقد كان من المعتاد أن نتصل أحدنا بالآخر يوميا وأحيانا أكثر من مرة فى اليوم الواحد .

وعندما فشل فى مكالمتى أو مكالمة أخته اتصل بإحدى شقيقاتى ، التى لم تجد بدا أمام ضغطه الشديد من أن تقول له الحقيقة .

وفوجئت فى أول ليلة لى فى المستشفى بعد إجرائى للعملية بابنى وهو يتسلل على أطراف أصابعه داخل الغرفة فى نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، حيث اضطر إلى قيادة سيارته من الغردقة وحتى القاهرة عندما وجد أن آخر طائرة كانت قد أقلعت بالفعل .

* * *

ما أن خطوت خطوات داخل الشقة بعد عودتى إلى المنزل من المستشفى ، وقبل أن أبدل ملابسى وأرقد فى الفراش حيث كنت ما أزال أعانى من الوهن والضعف البالغ إلى جانب الآلام المعتادة فى مثل هذه العمليات ، حتى أمسكت بآلة التليفون وطلبت أمى التى جاءنى صوتها المذعور عندما سمعتنى أتكلم معها بذلك الصوت الهامس غير الواضح ، حيث كان الجرح الموجود فى اللثة أسفل شفتى العليا يؤلمنى بشدة كلما تكلمت ، مع عدم قدرتى على تحريك شفتى كما ينبغى فى أثناء الكلام .

وأكدت لأمى وأنا أطمئنها وأداعبها ضاحكة بأننى أكلمها من البيت بعد أن عدت إليه «صاغ سليم» ولم أترك ورائى فى المستشفى «إيد» أو «رجل» وأن «عمر الشقى بقى» .

وأدركت أننى قد رحمت أمى من القلق والعذاب عندما أصررت على إخفاء أمر العملية عنها عندما سمعتها تبكى وهى على الطرف الآخر من التليفون ، فلم أكن لأجنى من وراء إخبارها بأمر تلك العملية من شىء سوى عذاب الانتظار الذى يعيش فيه أهل المريض خلال الفترة التى يقضيها المريض داخل حجرة العمليات وخاصة بالنسبة

للعمليات الكبرى ، ناهيك عن عذاب الأم أو الأهل وهم يشاهدون مريضهم الذى يتلوى ألما ، دون أن يستطيعوا مشاركته وحمل جزء من الألم عنه فى الفترة التى تلى الإفاقة من المخدر .

ولم تمض عدة ساعات حتى وجدت أمى بجوار فراشى فى حجرة نومى ، رغم أنها لا تغادر بيتها إلا فى القليل النادر . وظلت ترافقنى حتى اطمأنت إلى أننى قد تجاوزت تماما فترة النقاهة .

أما بالنسبة لزوجى فقد ظللت أؤخر الاتصال به لعدة أيام حتى أكون أكثر قدرة على الحديث بصورة أفضل ، حيث خشيت عليه وهو فى الغربة أن يصيبه الهلع لخبر إجرائى العملية التى كان يعارضها معارضة شديدة خوفا علىّ منها .

ولم أفلح وأنا أتكلم معه عبر التليفون فى أن أخفف وقع الخبر عليه ، رغم أننى كنت أستجمع كل قدراتى فى المعابثة والمضاحكة وأنا أسوق إليه الخبر ، فما هى إلا عدة ساعات حتى وجدته يدخل علىّ حجرتى قادما من السعودية فى أول طائرة .

وعاد «الجنى» ليسكن فى رأسى

انقضت الأيام يوما تلو الآخر وأنا أراقب مستوى الألم فى رأسى، ولم أتمكن فى الأسابيع الأولى من الحكم على ذلك المستوى، أو التفرقة بين الصداع الذى كنت أعانى منه وبين ذلك الألم الناجم عن العملية ذاتها.

وأصبحت كل صباح شبه مطالبة بأن أقدم تقريرا مفصلا لأفراد أسرتى عن مستوى ما أشعر به من ألم، بينما كنت أحاول إقناعهم بما اقتنعت أنا به، وهو أن احتمالات ذهاب العملية بآلام الصداع احتمال ضئيل للغاية، وأننى عندما أقدمت على تلك العملية فإن ذلك لم يكن من باب الثقة التامة أو الأمل الكبير فى التخلص من الصداع عن طريق العملية بقدر ما كان رغبة منى فى التخلص من ذلك الإغراء الذى ما فتئ يلح علىّ ويراودنى ليلا ونهارا، وكلما أرهقتنى آلام الصداع فى إجراء العملية وسعيا للتخلص من مشاعر الرعب والفزع من النتائج الخطيرة التى ربما ترتبت عليها.

وبدأت لدهشتى البالغة أشعر بأن آلام رأسى قد أصبحت تقل تدريجيا يوما بعد يوم، واستمر التحسن التدريجى البطىء حتى جاء ذلك اليوم بعد مضى ما يقرب من الشهر على إجراء العملية.

فإذا بى أشعر وكأننى أحمل رأس امرأة أخرى، كنت أعرفها قبل عشر سنوات مضت. **وإذا برأسى فارقه الألم بصورة كاملة وكأننى خلقت خلقا آخر.** ولم أصدق نفسى فى تلك اللحظة، ولم يصدق معى أفراد أسرتى. وسعد به طبيبى الذى أجرى العملية سعادة طاغية، والذى كان يتصل بى من وقت لآخر للاطمئنان على حالتى.

كان ما حدث معجزة من السماء. وركعت شكرا لله. وتصدقت بصورة سخية كريمة لم يسبق لى أن تصدقت بها. وفديت بالصدقة رأسى الذى خلا من الألم. وفديت بصرى الذى لم يمسسه سوء برحمة إلهية واسعة. واستمتعت لأول مرة منذ عشر سنوات بالحياة التى يحياها الآخرون.

إلى أن جاء يوم.

وآه ... آه من ذلك اليوم.

* * *

صادف أن كان شفائي من الصداع وعودتي إلى حالتي الطبيعية التي كنت عليها قبل عشر سنوات في شهور صيف ١٩٩٢، حيث كان زوجي يقضي في مصر إجازته الصيفية. واصطحبني زوجي إلى الإسكندرية هربا من حر الصيف. وكانت ابنتي وزوجها يقضيان معظم وقتهما معا في الإسكندرية.

وكنت لا أفتأ كلما تنبهت إلى أن رأسي «رأس طبيعيسة مثل رءوس الناس التانيين». . . حتى اهتف بفرح طفولي. . . وأنا أقول:

يعني إيه إن الواحد يعيش وما عندوش صداع؟

أنا مش فاهمة إزاي عايشة من غير صداع؟

وكأنما «قريت» على نفسي وكأنما «عيني المدورة» حسدتني.

فما هي إلا خمسة أشهر «بالتمام والكمال» حتى شرفني ذلك الصديق اللدود الذي يبدو أنه كان قد وقع في غرامي، ولم «يقدر على بعدي».

عاد إليّ الصداع مرة أخرى. وانهرت وانهار معي كل أفراد الأسرة.

* * *

أذكر ذلك اليوم جيدا وكأنه بالأمس القريب.

كنت قد أصبت بنزلة برد عادية، وبدأت رأسي تؤلمني قليلا من تأثير الإنفلونزا. ولم أكن أتعاطى أي أدوية، سوى تلك التي كنت أعالج بها نزلة البرد.

وظللت أشعر لمدة يومين أو ثلاثة أن رأسي بها شيء غير طبيعي.

وكنت في «بورسعيد» في ذلك اليوم، حيث كنت قد استأنفت عملي بصورة طبيعية مثالية، وكانت ابنتي وزوجها قد جاءا معي حيث قضينا الليلة في الفندق الذي تعودت على المبيت فيه ليلة أو اثنتين من كل أسبوع.

وكان أحد أصدقاء زوج ابنتي المقربين والذى يعمل طبيبا فى «نيوكاسل» بإنجلترا يقضى إجازته القصيرة فى موطن رأسه «بورسعيد» مع زوجته الإنجليزية الشابة، التى سبق لى مقابلتها أكثر من مرة فى مصر وكذلك فى إنجلترا.

واجتمعنا جميعا على العشاء فى أحد مطاعم «بورسعيد»، حيث كنت قد تناولت منذ ما يقرب من الساعتين حبتين من الحبوب المسكنة، إذ كانت حدة الصداع الذى ظننته بسبب نزلة البرد قد ازدادت حدته.

وجلست بين الجميع، وأنا صامتة «مبلمة» وأنا ألاحظ أن الصداع الذى أعانى منه لا يختلف عن ذلك الصداع الذى ظننت أننى قد تخلصت منه إلى الأبد.

ولاحظ الصديق الطبيب ما أعانيه وقد جلست شاردة بينهم، حيث أشار على بضرورة عرض نفسى على أحد الأطباء فور عودتى للقاهرة فى اليوم التالى بعد أن أخبرته أن الصداع قد عاد تدريجيا خلال الأيام الماضية إلى ما كان عليه تماما من قبل إجراء العملية.

* * *

وعدت إلى القاهرة لأرتمى مرة أخرى على أعتاب الأطباء. وقمت بعمل أشعة للرنين المغناطيسى على مكان العملية.

وكانت المفاجأة!

لقد ذابت قطعة الدهن التى تم وضعها فى تلك الفجوة الموجودة داخل رأسى أسفل الغدة النخامية أو على الأصح ذاب جزء كبير منها.

وعدت إلى حيث بدأت.

وعاد «الجنى» الذى قد فارقنى «يتشقلب» و«يتعفرت» و«يتنطط».

* * *

واتصلت بالطبيب الذى أجرى لى العملية، ولم يجد تفسيرا لما حدث.

وعدت للطبيب الذى كان قد اكتشف تلك الفجوة الموجودة أسفل الغدة النخامية. حيث اقترح إعادة العملية مرة أخرى، عن طريق وضع قطعة غضروفية يتم استئصالها من عظام الحوض كدعامة فى تلك الفجوة.

وقال لى الأطباء الآخرين إن فتح تلك المنطقة مرة ثانية يرفع معدلات المخاطر التى قد تنجم عن إجراء العملية، خاصة بالنسبة للاحتمالات القائمة بالنسبة لإصابة العصب البصرى والإصابة بالعمى.

ولم أكف عن مطاردة الأطباء.

بل وحضرت أحد المؤتمرات التى كانت تناقش مشكلات الغدة النخامية فى كلية الطب بالمنصورة، بناء على دعوة من بعض الأطباء.

وفى أول أيام المؤتمر حيث كنت قد وصلت بعد بدء الجلسات، وبينما كنت أشق طريقى بحذر فى القاعة ذات الضوء الخافت جدا، والتى كانت أشبه بالمدرج نصف الدائرى، كان أحد الأطباء يقوم بالتعليق على أحد أفلام الفيديو التى تتعلق بإحدى العمليات الجراحية فى الغدة النخامية، وإذا بالمعلق الذى اكتشفت بعد أن تعودت عيناى على الظلام الذى ساد القاعة، هو الطبيب الذى كان قد أجرى لى العملية، يعلن للحاضرين بعد انتهاء الفيلم عن حيرته الشديدة فى تفسير ما حدث لإحدى مريضاته، التى كان قد أجرى لها عملية لحشو الفجوة الموجودة أسفل الغدة النخامية، وأن الصداع قد اختفى لمدة خمسة أشهر ثم عاد مرة أخرى.

وأدركت فجأة أنه يتحدث عنى.

ولم يكد الطبيب ينتهى من تساؤله، حتى أضيئت القاعة، حيث لمحنى، وحيث أعلن للحاضرين وهو يشير إلىّ أننى المريضة التى يتحدث عنها.

وشاهدت الطبيب الذى اقترح إجراء الجراحة مرة أخرى عن طريق حشو الفجوة بذلك الجزء الغضروفى، وهو يجلس فى الصف الأول حيث نهض واقفا، للرد على طبيبى، وحيث أخبره أن فشل العملية يرجع إلى استخدام قطعة الدهن فقط وكان يجب استخدام جزء غضروفى مع جزء من أنسجة العضلات لضمان عدم ذوبانها.

ودافع طبيبى عن العملية التى قام بإجرائها قائلا بأن استخدام الجزء الغضروفى سيؤدى إلى الإضرار بالغدة النخامية، والتى تتحكم فى إفراز بعض الهرمونات الحيوية للجسم، كما أنها الغدة المايسترو التى تتحكم فى كل الغدد الأخرى الموجودة به.

واشتبك اثناهما فى مباراة كلامية أصر فيها كل منهما على رأيه. وخرجت من ذلك المؤتمر بلا شىء وعدت إلى القاهرة كالعائد «من المولد بلا حمص».

طبيبى الإنجليزى الذى يحتاج إلى طبيب

وقررت أن أبحث عن حل مشكلتى بنفسى . وأرسلت خطابا إلى أحد كبار المتخصصين فى جراحات الغدة النخامية فى أحد المراكز الطبية الجامعية **بجامعة جورج تاون الأمريكية**، والذى حولنى بدوره إلى أحد كبار أساتذة الجامعة فى جراحات المخ والأعصاب فى جامعة فرجينيا، والذى حولنى هو الآخر إلى أكبر وأشهر جراح للمخ والأعصاب فى **مستشفى مايوكلينيك بولاية «ميوسوتا»**.

وكدت أيأس وقد طالت المراسلات بينى وبين هذا العدد الكبير من الأطباء، حيث كان كل منهم يطلب منى مراسلة الآخر وعرض تقاريرى عليه، بدعوى أنه أكثر تخصصا منه فى هذا المجال .

وقررت أن أتوقف عن مراسلة الأطباء، وأن أستسلم لقدرى عندما وصلنى رد طبيب مستشفى **«مايوكلينيك»**؛ ليخبرنى أن أبرع طبيب فى العالم لعلاج الصداع هو **الدكتور الإنجليزى «كليفورد روز»**.

وغمرتنى الفرحة عندما أرسل لى ذلك الأخير ردا على رسالتى إليه، ويطلب منى موافاته فى لندن فى ذلك الموعد الذى قام بتحديده لى . **وطرت إليه وأنا أحمل أملى معى**.

* * *

عاد إلى ذاكرتى الآن وأنا أتناول تلك الزيارة إلى إنجلترا موقف طريف كنت قد تعرضت له .

فعندما غادرت **مطار هيثرو** فى ذلك اليوم أردت أن أعمل «ناصحة» وأن أستقل أتوبيس المطار حتى شارع **«أكسفورد»** فى وسط مدينة لندن، ومن هناك أستطيع أن أستقل سيارة أجرة بجنيهين فقط لتوصيلى إلى المسكن بجامعة لندن، والذى كنت قد تعودت

على الإقامة فيه حتى أوفر أجر سيارة الأجرة من المطار إلى وسط لندن التى كانت ستكلفنى حوالى ٣٥ جنيها إسترلينيا ، أى ما يزيد عن مائتى جنيه مصرى . حيث كنت مقبلة على مواجهة نفقات العلاج التى لا أعرف مداها .

وعلى ذلك جررت حقيبتى ذات العجل وتوجهت إلى أقرب رجل شرطة خارج المطار ، حيث سألته عن الأتوبيس الذى يمر بشارع «أكسفورد» .

وأراد الرجل مساعدتى حيث تقدمنى وهو يجر حقيبتى إلى أحد الأتوبيسات ، وحيث أشار لى بالصعود بعد أن وضع حقيبتى داخل الأتوبيس فى المكان المخصص للأمتعة ثم غادرنى بعد أن حيانى مودعا .

وانطلق الأتوبيس للتو ، وأنا أشكر الله أن هيأ لى ذلك الشرطى الإنجليزى الذى يسر لى اللحاق بالأتوبيس .

وأخذت المناظر الطبيعية الخلابة للحقول والبيوت الريفية وحقولها الشاسعة وتلالها الخضراء ، التى يشتهر بها الريف الإنجليزى تتوالى أمام ناظرى وقد جلست بجوار النافذة .

وداخلنى بعد انقضاء ما يقرب من الساعة إحساس غريب بأن تلك الطرق التى يشقها الأتوبيس ، ليست هى الطرق الذى تعودت عيناى عليها ، وأنا فى طريقى من المطار إلى لندن فى المرات السابقة .

واستمر ذلك الإحساس الغريب لمدة ساعة أخرى عندما وجدت الأتوبيس وقد بدأ يدخل فى نطاق بعض الأحياء السكنية ، التى بدت لى مختلفة عن أحياء لندن من حيث طرازها المعمارى .

ووجدتنى أضحك فجأة عندما قرأت إحدى اللافتات على أحد المبانى الأثرية الضخمة ، وقد كتب عليها «محكمة أكسفورد» .

فقد أدركت ما حدث. أخذنى الأتوبيس إلى مدينة «أكسفورد» التى تبعد عن مدينة «لندن» نحو الساعة ونصف بالسيارة ولم يأخذنى إلى شارع «أكسفورد بلندن». وشعرت أننى «صعيدى فى لندن» . حيث تكلفت فى الذهاب إلى مدينة «أكسفورد» والعودة منها إلى لندن ، ضعف المبلغ الذى كنت سأدفعه للتاكسى .

* * *

كان موعدى مع الطبيب فى الثامنة صباحا من اليوم التالى لوصولى إلى لندن، ووصلت فى الموعد المحدد فى عيادته فى شارع «هارلى ستريت»، ذلك الشارع الذى اشتهر بأنه يضم عيادات أشهر الأطباء الإنجليز، والذى اصطفت على جانبيه العمارات السكنية المكونة جميعا من ثلاثة طوابق فقط، والتى تشابهت من حيث طرازها المعمارى، ومن حيث طلائها جميعا باللون الأبيض، كما تشابهت نوافذها وأبوابها الخارجية فى التصميم وفى طلائها الأسود.

وما أن دققت جرس الباب الخارجى حتى فتحت لى الباب شابة متوسطة الجمال فى ملابس الممرضات البيضاء، حيث اصطحبتنى فى المصعد الصغير إلى الدور الثالث حيث مكتب الطبيب الذى يقابل فيه مرضاه.

واستقبلنى الطبيب المسن عند باب المصعد، وهو يبش فى وجهى مرحبا حيث قادنى إلى داخل مكتبه.

وطلب منى الطبيب بعد أن قرأ جميع التقارير الخاصة بمشكلتى الصحية، إجراء العديد من الفحوصات الطبية التى قام بتحديدها.

وقمت ولمدة ثلاثة أيام بعمل كل الفحوصات التى طلبها الدكتور «**كليفورد روز**». والتى أجريتها كلها فى نفس المبنى الذى يقع فيه مكتبه، حيث أدركت أنه يشغل طوابق البناية كافة.

ونصحنى الطبيب بعد إطلاعه على التقارير الحديثة ألا أجازف بإجراء العملية مرة أخرى، إذ إن احتمالات المخاطر سوف تزداد فى العملية الثانية، كما أن قطعة الغضروف قد تتعرض مع الوقت للتآكل والانكماش بالإضافة إلى عدم ثقته الكاملة فى أن تقضى العملية الثانية على آلام الصداع.

ولاحظ **الدكتور** «**روز**» علامات اليأس والإحباط التى ارتسمت على وجهى، وحاول أن يرمى إلى بخيط من خيوط الأمل التى تلقفتها فى لهفة وتعلقت بها، وهو أن أجرب علاج الألم بالإبر الصينية.

ولم أتردد للحظة واحدة بالنسبة لذلك الاقتراح، حيث أبديت رغبتى فى العلاج فى اليوم التالى مباشرة رغم أننى قد سبق لى تجربة الإبر الصينية فى مصر فى بداية إصابتى بالصداع، والتى لم تحقق أى نجاح يذكر.

وبدأت في اليوم التالي جلسات العلاج بالإبر وبصورة مكثفة حتى أقلص من نفقات الإقامة في لندن وذلك على مدار أسبوعين دون أن أشعر بأدنى قدر من التحسن .

وقررت أن أتوقف عن ذلك العلاج الذي يكلفني في الجلسة الواحدة سبعين جنيها إسترلينيا أي نحو أربعمائة جنيه ، حيث انتابتني حالة من «البخل» «والشح» الشديدين ، عندما أدركت أنني قد أنفقت مبالغ هائلة تكاد تصل إلى مجموع مرتبي في الجامعة طوال ثلاث أو أربع سنوات دون أي جدوى أو نتيجة .

فقد كان «الدكتور روز» يتقاضى في كل زيارة لي حتى لو كنت سأقول مجرد «صباح الخير» مائة وعشرين جنيها إسترلينيا أي نحو سبعمائة جنيه في كل مرة .

وحتى «يحلل» الدكتور «روز» المبالغ الطائلة التي أنفقتها في مركزه الطبي ، أشار عليّ بتناول دواء معين يؤدي إلى ارتخاء العضلات ، والذي سيؤدي بدوره إلى انخفاض مستوى الألم . وبدأت بالفعل في استخدام ذلك الدواء وأنا في لندن .

وأدركت وأنا أودع الدكتور «روز» في زيارتي الأخيرة له أن الأطباء الأمريكان ، الذي «دحرجني» كل منهم إلى الآخر إلى أن وصلت إلى ذلك الطبيب الذي يعد أشهر طبيب في العالم في علاج الصداع قد خدعوني ، وأنني قد «شربت» واحدا من أكبر المقالب في حياتي عندما طلب مني الدكتور «روز» بكل بساطة أن أتقبل حياتي كما هي وأن أتعايش مع الصداع .

واحتددت عليه وأنا أردد قولي باستنكار :

ـ يعني إيه أتعايش مع الصداع؟ يعني إيه أتعايش مع الصداع؟ أنت عارف يعني إيه صداع؟

وكانت المفاجأة عندما رد عليّ الطبيب وهو يقول في وداعة :

ـ طبعا أعرف ماذا يعنيه الصداع ، أنا وزوجتي نحيا بالصداع النصفي منذ أكثر من خمس عشرة سنة .

وانطلقت مني قهقهة ساخرة حبستها خلف وجهي الذي رسمت عليه إبتسامة هادئة ، وأنا أنصرف من حجرته بعد أن ودعته .

ووجدتني وأنا أسير في الشارع وقد شملتني مشاعر خيبة الأمل والإحباط أردد بمرارة

ذلك المثل الذى يقول «جبتك يا عبد المعين تعينى لقيتك يا عبد المعين عايز تتعان»، وكذلك المثل الذى يقول «باب النجار مخلع».

وعدت إلى القاهرة ويداى خاليتان سوى من ذلك الدواء الذى أصابنى بالمرض والاكتئاب دون أن يؤثر أو «يحوق» فى ذلك الصداع اللعين، فقد واظبت على تعاطى هذا الدواء لمدة سنة كاملة حرصت فيها على مراسلة الدكتور «روز» كل شهر بناء على طلبه، حيث كنت أقوم بتسجيل معدل الصداع يوميا فى جدول معين أرسله له بالفاكس فى نهاية كل شهر، حتى انتابتنى فى النهاية حالة من التمرد على ذلك الدواء وعلى الدكتور «روز» نفسه، فقد كان ذلك الدواء يصيبنى بحالة من الارتخاء والشعور بالإرهاق الذهنى والجسدى البالغ.

وتوقفت بعد سنة كاملة من تعاطى هذا الدواء، وتوقفت عن مراسلة الدكتور «روز».

وقررت ألا أذهب مرة أخرى إلى أى طبيب إلا إذا علمت «أن بابه غير مخلع»، حتى لا تضيع نقوى ولا يضيع وقتى مرة أخرى.

* * *

واستسلمت لآلام الصداع. واستسلمت «لِلبلبعة» الحبوب المسكنة، ولكننى «من حلاوة الروح» لم أستسلم بصورة مطلقة. فقد أخذتنى قدماى إلى مغامرة أخرى.

وإليكم ما حدث.

الطبيب الذى جعلنى فأرا من فئران التجارب

كان بعض الأطباء الذين ترددت عليهم بعد فشل العملية الجراحية يرى أن هناك احتمالا فى أن كثرة السائل النخاعى الذى يحيط بالمخ، قد يكون أحد العوامل المؤدية إلى الصداع عندما تمتلىء به الفجوة الموجودة أسفل الغدة النخامية، وأن هناك عملية أو على الأصح نوع من الاختبار الذى يستدعى بقائى فى المستشفى لعدة أيام.

وكانت الطريقة التى سيتم بها ذلك الاختبار تصيبنى بنوع من الرعب والخوف، مما كان يجعلنى أستبعدها ولا أفكر فيها.

إلى أن كان يوم.

كان من بين من ترددت عليهم من الأطباء فى مصر طبيب كان يعمل بالولايات المتحدة فى مجال المخ والأعصاب، والذى كان قد عاد لتوه إلى القاهرة للعمل وللإقامة الدائمة فيها.

ووجدت ذلك الطبيب وقد اتجه تفكيره إلى ذلك الاختبار كمحاولة أخيرة.

ووجدتنى أوافق بلا تردد.

وقمت بشراء ذلك الجهاز الذى سوف يستخدم فى الاختبار بعدة مئات من الجنيهات وتوجهت إلى المستشفى دون أن أخبر أحداً أيا كان بذلك الأمر سوى ابنتى وزوجها فقط.

وظلت ابنتى معى فى أثناء قيام الطبيب بعمل ذلك الاختبار، الذى تم فى الحجرة التى أقيم فيها فى المستشفى، على حين فر زوج ابنتى هاربا من الحجرة عندما رأى الطبيب ممسكا بتلك الحقنة الكبيرة التى كان على وشك غرسها فى عمودى الفقرى.

كان ذلك الاختبار عبارة عن نوع من «البذل» أو «القسطرة» للسائل النخاعى الذى يحيط بالمخ والذى يحيط النخاع الشوكى فى العمود الفقرى، وكان «بذل» ذلك السائل من المخ سيتم عن طريقة «شفطه» **أو بذله من منطقة العمود الفقرى.**

وكنت قد تمددت في فراشي على جانبي الأيمن كما أمرني الطبيب حيث قام بغرس الإبرة في ظهري بين الفقرتين القطنيتين الرابعة والخامسة .

وعندما تأكد أن طرف الإبرة قد وصل بالفعل إلى منطقة النخاع الشوكي، عندما انطلقت مني صرخة عالية تعبر عن الألم البالغ الذي صاحبه رجفة هائلة شملت كل جسدي، وكأنما قد أصابني مس من الكهرباء، قام بعد ذلك بفك الإبرة من الحقنة المخصصة لها، حيث كانت الإبرة تنتهي بجزء «كالقلاووظ»، حيث قام بتركيب الجهاز الذي كنت قد اشتريته فيه .

كان ذلك الجهاز عبارة عن كيس في حجم الكفين معا من البلاستيك الشفاف القوي به مقياس بالسنتيمتر، لتلقي كمية السائل النخاعي التي ستخرج من ظهري، وتنساب في ذلك الكيس عن طريق خرطوم طويل رفيع يربط بين الكيس البلاستيكي، وبين الطرف الذي تم تثبيته في «قلاووظ» الإبرة المثبتة في عمودي الفقري .

وبدأ السائل النخاعي في التدفق ببطء على مدار ثلاثة أيام في ذلك الكيس الذي تم تعليقه على حامل إلى جوار السرير، وظللت أراقب وأسجل مستوى آلام الصداع .

* * *

وظل الطبيب يتردد عليّ مرتين يوميا لمراقبة نتيجة التجربة. وكانت تجربة فاشلة. امتلأ الكيس بنحو ثلاثة أكواب من السائل النخاعي، وازدادت آلام الصداع عن معدلاتها.

وعدت إلى بيتي أجرجر أذيال فشلي وفشل الطب والأطباء.

الطبيب الصينى الذى قهره «الجنى»

ومرت سنتان. وما زال الجنى الذى فى رأسى «يتشقلب» و«يتعفرت» و«يتنطط». وظللت أبلبع أحدث أنواع المسكنات من كل صنف ولون. ولم أتوقف عن التردد على الأطباء. حتى قادتنى قدماى إليه، إلى أحد الأطباء الصينيين وحاولت أن أجرب ذلك الصينى فربما يكون «أجدع» من زملائه المصريين والأمريكان والإنجليز.

* * *

كان أحد الأطباء الذين كنت أتردد عليهم كلما ضاقت بى الدنيا من آلام الصداع، يمت بصلة قرابة إلى إحدى صديقاتى. وكان قد جرب معى بعض أدوية العلاج النفسى التى قد يكون لها بعض الأثر على تحسين حالتى النفسية، مما يساعد على خفض إحساسى بالألم، وسألنى فى إحدى المرات عما إذا كنت قد جربت الإبر الصينية، وأجبته أننى قد سبق لى استخدامها فى مصر منذ سنوات بعيدة، وفى إنجلترا أيضا من سنتين. وتحمس طبيبى إلى تجربة الإبر الصينية على يد ذلك الطبيب الصينى الذى يزاول ذلك العلاج فى أحد مراكز علاج الألم بالزمالك.

وكعادتى «ما كدبتش خبر». وتوجهت إلى العيادة، وبدأت جلسات العلاج اليومية، وأكد لى الطبيب الصينى أن شفائى من الصداع أمر حتمى لا شك فيه، وصدقته. فقد كنت فى حالة تجعلنى أصدق أى شىء، وأتعلق بأى شىء حتى ولو كان خيطا من خيوط العنكبوت.

* * *

كنت فى تلك الأيام أمر بمرحلة من الصداع الدائم المؤلم، الذى لا تجدى فيه المسكنات، وكان علىّ أن أتحمل تلك المرحلة حتى يتخلص جسمى من آثار المسكنات، لأبدأ مرة أخرى بعد شهر أو أكثر فى استخدامها. وكنت فى حالة لا تسمح لى بقيادة

السيارة، أو حتى بالانتقال من مصر الجديدة إلى الزمالك والعكس بسيارات الأجرة. وأشفقت إحدى شقيقاتى على حالتى؛ فأعارتنى سيارتها وسائقها للذهاب بى يوميا إلى جلسة العلاج والعودة بعد الانتهاء منها.

وكأنما «عز» على الطبيب الصينى أن يفشل معى، فكان يثبت ما يقرب من مائة إبرة فى الجلسة الواحدة فى بعض المناطق الخاصة بالشبكة العصبية فى جسدى، بعضها فى شعرى، والبعض الآخر فى أذنى وفى جبهتى، وعلى شفتى، وفى رقبتى، وفى ذراعى وفى سيقانى، وأقدامى، بل حتى وأصابعى. وكانت هذه الإبر جميعا متصلة بطريقة ما بجهاز، يرسل نوعا من الذبذبات فى هذه الإبر لتنبيه الأعصاب التى تلمسها الإبر المثبتة.

ومضى الشهر دون أن يطرأ أى تحسن على الإطلاق. واستاء الطبيب الصينى عندما قررت التوقف عن مواصلة العلاج.

كان يريد تجربة جميع المناطق الخاصة بشبكة الأعصاب التى تبلغ عدة آلاف منطقة وكان المبلغ الذى زاد عن ٣٥٠٠ جنيه الذى دفعته له خلال ذلك الشهر قد «وجعنى» بالفعل، حيث لم أخرج من ورائه بأى نتيجة إطلاقا.

وعز علىّ أن «أتوجع» مرة أخرى إذا استمر العلاج لمدة شهر آخر دون جدوى.

* * *

واكتشفت أن «مافيش عمار» بينى وبين الأطباء، مصريين أو إنجليز أو أمريكان أو حتى صينيين. وعدت أبلع الحبوب المسكنة من كل صنف ومن كل لون. وظل «الجنى» الذى يسكن رأسى يعربد فيها، فقد انتصر الجنى على الطبيب الصينى.

دخلت عند الطبيب الإنجليزى
عاقلة وخرجت مجنونة!

كنت قد كفرت بالطب والأطباء وتوقفت عن التردد على أعتابهم لما يزيد على السنتين اكتفاء بالمسكنات.

إلى أن كان يوم عندما اتصلت بى إحدى صديقاتى المقربات، والتى تعرف مبلغ ما أعانى منه من آلام وأننى أقف فى مفترق الطريق بين أن أقدم على إجراء العملية مرة أخرى، أو أن أستسلم للمقدور وأواصل الحياة بمساعدة المسكنات.

أخبرتنى صديقتى وكأنها تزف لى أسعد الأخبار التى تجود بها الدنيا علينا أحيانا، أن هناك رجلا مباركا يقوم بإجراء العمليات الجراحية بكل أنواعها عن طريق **روح السيد المسيح عليه السلام**.

وكأن صديقتى تعلم بمكنون صدرى **وأننى «ضعيفة» أمام اسم سيدنا عيسى عليه السلام. وكدت آخذ «ديلى فى أسنانى» فى ذلك اليوم، وأذهب إلى ذلك الرجل «المبروك» مبعوث العناية الإلهية**، لولا أننى علمت منها أن الوصول إلى ذلك الرجل سيكون بمثابة المعجزة التى قد لا تتحقق؛ نظرا للجموع الحاشدة التى تقصده من كل بقاع ومن كل المدن والقرى فى مصر والعالم العربى.

وحرك ذلك الإقبال عليه فى داخلى مشاعر الرغبة فى «المقاوحة» والوصول إليه بأى ثمن، أى ثمن.

فقد كنت فى حالة من التمرد على الدنيا ومن فيها ومن عليها. كان الكيل قد طفح. وكانت آلامى أقوى من أن أتحملها. ولكن حدث أن...

* * *

كنت في تلك الأيام أستعد للسفر لحضور أحد المؤتمرات في مدينة «أدنبرة» بأسكتلندا.

وكنت كالعهد بي أتشبث بالحياة ولا أهرب منها، أو أستسلم لغدر الدنيا وعذابها.

فقد كنت أتخفى وراء قناع المرأة الفولاذية الذى كان يجعلني أنال نصيبا من إعجاب الناس وانبهارهم بي، خاصة في المؤتمرات والدورات أو المنح خارج مصر.

وحدث في تلك الفترة أن حضر إلى مصر الطبيب صديق زوج ابنتي وزوجته الإنجليزية حيث ظل يغريني بزيارتهم في «نيوكاسل» لعرض حالتي على أحد المراكز الخاصة بعلاج الألم هناك، عندما علم أنني سوف أسافر بعد أسابيع إلى أسكتلندا من أجل ذلك المؤتمر.

وراقت لي الفكـــرة. وأخذت أردد في نفسي «والله جاتلك على الطبطاب» **يا نادية.** وانتابتني حالة من النشوة وأنا أتخيل نفسي على الطائرة وأنا في طريق العودة إلى القاهرة، وقد حملت على عنقي رأسا أخرى جديدة مثل تلك الرأس التى حملتها لمدة خمسة أشهر بعد العملية. **رأس تخلو من الألم. رأسي مثل رءوس «البنى آدمين»**.

وذهبت إلى نيوكاسل. وأخذني الطبيب المصرى وزوجته الإنجليزية إلى ذلك المركز الذى يعالج الآلام في إحدى المستشفيات هناك. **ودخلت عند الطبيب وأنا عاقلة «أربعة وعشرين قيراطا» وخرجت من عنده وأنا عندي «شعرة»! نعم «شـعـرة»! «يعني واحدة مجنونة»**.

كيف...؟

إليكم القصة...

* * *

قام الطبيب الذى تخصص في علاج الألم باستعراض تاريخي المرضي من ألفه إلى يائه. ولم يجد تفسيرا طبيا معقولا لذلك الصداع. وطلب مني أن أكون **«أنصح»** من الألم وأقوى منه، فلا أظهر له أنني **«حاسة بيــه» أو أنسى أعمل له أى حساب، يعني «أطنشه»**.

وظل يقص عليّ كيف أن المرضى الذين يترددون عليه ممن بترت أطرافهم، يستمرون في الشعور بأن لهم أطرافا وأنها لم تبتر على الإطلاق، وكيف أن أحد مرضاه ممن قد تعرض لبتر أحد أطرافه يؤكد له أنه يشعر بالألم في الإصبع الصغير لقدمه المبتورة أصلا، أو أنه يريد أن «يهرش» في بطن رجله المبتورة التى لا وجود لها.

واستمر الطبيب يقنعني بأن أنسب طريقة لمحاربة الألم هي عدم الاستسلام له وعدم الإقرار بوجوده .

ويبدو أنني «صعبت» علي الدكتور حيث كتب لي اسم جهاز معين للاستخدام المنزلي اسمه «تنس» ، وهو جهاز يرسل نوعا من الشحنات الكهربائية في منطقة الألم مما يؤدي إلى تخفيف الشعور به ، كما أخبرني أن ذلك الجهاز يساعد إلى حد كبير النساء الحوامل في فترة المخاض .

وقامت مضيفتي الإنجليزية على الفور بعد عودتنا للمنزل ، بالاتصال تليفونيا بالشركة المختصة بصنع ذلك الجهاز ، حيث أملت عليهم رقم الكارت المالي الذي يخصها ، والذي تستطيع عن طريقه شراء كل ما تحتاجه دون أن تدفع نقدا ، وهو ما يسمى بـ «الكريديت كارد» على أن ترسل لي الشركة هذا الجهاز على عنواني في «أدنبرة» حيث يعقد المؤتمر .

وفي تلك الليلة جاءنا على العشاء اثنان من الأطباء المصريين الذين يعملون في مستشفى نيوكاسل ، حيث أعددت لهم وجبة عشاء مصرية ١٠٠٪ .

وتطرق بنا الحديث حول مائدة الطعام عن زيارتي الصباحية لمركز علاج الألم ، حيث كان يجلس على يميني أحد الأخصائيين في الأمراض النفسية والعصبية ، والذي حاول أن يقنعني بما ذهب إليه الطبيب في الصباح من حيث ضرورة عدم الاستسلام لوجود الألم ، ومحاولة رفضه أو نفي وجوده ، خاصة بعد أن سردت على مسامعه أسماء عشرات من أدوية العلاج النفسي التي استخدمتها في القاهرة على مدار عشر سنوات كاملة دون أن يكون لها أدنى تأثير ، والتي كان بعضها من الأدوية الأمريكية التي لم تزل في مرحلة التجربة ، والتي ما زال استخدامها محظورا في إنجلترا لعدم معرفة آثارها الجانبية حتى الآن .

وانثنى إليّ الطبيب يسألني عما إذا كنت قد جربت العلاج عن طريق أدوية الصرع ، حيث أخبرني أن الاتجاه الحديث في بعض علاج حالات الصداع ينزع نحو استخدام هذه الأدوية ، والتي تحتاج إلى قدر كبير من العناية والمتابعة الطبية ، وحيث أخبرني أن شقيقه أخصائي الأمراض النفسية والعصبية الذي كان يقيم معه في إنجلترا قد عاد إلى القاهرة حديثا ، حيث افتتح عيادة للعلاج عن طريق التحليل النفسي ، وحيث اكتشفت أن عيادته على بعد شارعين فقط من مسكني في مصر الجديدة .

* * *

بدأت منذ صباح اليوم التالى وأنا ما زلت فى «نيوكاسل» ، وكذلك طوال فترة انعقاد المؤتمر فى «أدنبرة» بأسكتلندا ، وأيضا خلال ذلك الأسبوع الذى أمضيته فى لندن قبل عودتى للقاهرة أردد جملة معينة وأكررها كالببغاء ، كلما خلوت إلى نفسى فى غرفتى ، أو فى أثناء سيرى فى أى شارع من الشوارع ، وكنت اكتشف فى بعض الأحيان عندما كنت أستغرق فى ترديدها أننى قد أصبحت «فرجة» كعادتى، وأنا أهز رأسى لأومن على ما أقول ، عندما كنت أرى بعض المارة وهم ينظرون إلىّ فى استغراب .

لعل البعض منكم يتذكر فيلم إسماعيل ياسين عندما كان فى مستشفى للمجانين ، وكان أحد المرضى قصار القامة يردد جملته الشهيرة «أنا مش قصير قزعة، أنا طويل وأهبل» .

لست أدرى كيف استحضرت ذاكرتى تلك العبارة التى وردت فى فيلم إسماعيل ياسين وكيف أننى أصبحت أرددها طوال الوقت وأضيف إليها قائلة :

ـ أنا مش قصير قزعة، أنا طويل وأهبل، أنا ما عنديش صداع أنا رأسى فايقة، أنا مش قصير قزعة، أنا طويل وأهبل، أنا ما عنديش صداع، أنا رأسى فايقة ورايقة... أنا...

وهكذا أصبحت «كفقى الكتاب» أينما ذهبت، وأينما حللت، رغم أننى كنت كلما أفقت إلى نفسى «أستخسخ على روحى» من الضحك، وأنا أقول فى نفسى «والنبى باين علىّ اتجننت».

وهكذا أصابنى الطب والأطباء أو كادوا بالجنون.

حتى الصداع حسدونى عليه!

وعدت إلى القاهرة، وحملت جهاز علاج الألم معى. وملأت حقيبة من أنابيب «الجل» الذى يستخدم مع الجهاز. ولم «ينوبنى» إلا خلع كتفى من ثقل «الشيلة». وركنت الجهاز جانبا بعد أن أثبت فشله.

وتوقفت عن ترديد عبارة «أنا مش قصير.... إلخ». فقد أثبت الصداع أنه أقوى منى وأقوى من إسماعيل ياسين.

وتذكرت ذلك الرجل المبروك الذى يستعين بروح سيدنا عيسى عليه السلام بإجراء العمليات للمرضى. وقررت أن أؤجل ذلك الرجل المبروك بعد أن أنتهى من اللعب بالورقة الأخيرة.

وقررت أن أجرب أدوية الصرع.

وذهبت إليه فى عيادته. ذهبت إلى طبيب الأمراض النفسية العائد من إنجلترا.

* * *

ذكرتنى عيادة الطبيب بإحدى عيادات الأمراض النفسية التى سبق لى التردد عليها فى أمريكا، من حيث النظافة والديكور والجو الهادئ المريح الذى يكون له أكبر الأثر على نفسية المريض.

وخصص لى الطبيب ما يقرب من الساعة فى لقائنا الأول، وانتهى إلى أننى لا أعانى من أى مرض نفسى يستدعى العلاج بالأدوية المضادة للاكتئاب أو القلق.

وشرح لى كيف أن المدرسة الحديثة فى الطب النفسى قد توصلت إلى أن هناك بعض الأعراض المرضية التى يحتار فيها الأطباء لا يكون لها أساس نفسى. «وإنما ترجع لأسباب مجهولة»، بينما كانت المدرسة القديمة ترجع جميع الأعراض المرضية التى يعجز الطب عن علاجها إلى كونها مجرد أعراض مرضية لأسباب نفسية.

ووجدت أن الدكتور «هاني» يتفق مع شقيقه في تجربة الأدوية التي تعالج الصرع.

واستسلمت. وبدأت العلاج.

وبدأت بجرعة قليلة جدا أخذت تزداد حتى وصلت إلى أقصاها.

* * *

وصادف وصولي بجرعة دواء الصرع إلى أقصاها استدعائي للسفر إلى عمان بالأردن؛ لتسجيل بعض الحلقات التليفزيونية لقناة A.R.T التي كانت تعدها شركة «سجي» للإنتاج الإعلامي، والتي كانت تقوم بإعداد بعض البرامج الحوارية الجادة، التي كانت تجمع بين العديد من أساتذة الجامعات والمتخصصين في مختلف بلدان العالم العربي.

وكنت في كل مرة أذهب فيها إلى عمان لهذا الغرض **أحمل معي قناعي**، الذي أرتديه صباحا بعد أن استكمل زينتي وأصفف شعري وألبس أجمل ثيابي وإكسسواراتي.

كنت أرتدي ذلك القناع للمرأة الفولاذية الذي أخفي وراءه ألمي وضعفي، منذ لحظة خروجي من حجرتي في الفندق وطوال فترة تواجدي بين المشاركين في البرنامج من الزملاء المصريين أو العرب، سواء في أثناء تناولنا وجباتنا في مطعم الفندق، أو في أثناء توجهنا للأستوديو لتسجيل الحلقات، أو في خلال الرحلات التي كانت تنظمها لنا شركة «سجي».

ولم أكن أنزع هذا القناع مطلقا إلا عندما أدخل غرفتي للنوم ظهرا أو بعد الانتهاء من وجبة العشاء مباشرة، حيث لم أكن في حالة صحية تمكنني من مشاركتي سهراتهم رغم رغبتي الملحة في ذلك.

وظللت أحتفظ بسري الخاص بالصداع وبتلك المعاناة التي كنت أخجل من الإفصاح عنها حتى ذلك اليوم الذي اجتمعنا فيه في بهو الفندق استعدادا للانطلاق إلى الأستديو، عندما رأيت آيات الدهشة وقد ارتسمت على وجوه الموجودين حينما ذكرت في معرض حديثي أن لدي ثلاثة أحفاد، حيث انبرى الجميع في التعجب لتلك المعلومة التي لا يدل عليها مظهري، من حيث حقيقة عمري واهتمامي بمظهري وأناقتي ونجاحي في حياتي العلمية والاجتماعية... و... و... و...

ووجدتني فجأة وقد تحفز كل جزء مني. وكتمت داخلي تلك الصرخة التي كادت تنطلق مني لأقول للجميع: يا ناس، يا هوه، أنا كتلة متحركة من الألم.

فقد كنت أعانى فى خلال زيارتى تلك لعمان من آلام الصداع وآلام قرحة المعدة وآلام الفقرات، إضافة إلى تأثير الدواء الخاص بالصرع الذى كنت أقوم بتجربته لتغيير كهرباء المخ؛ أملا فى أن يساعد على تخفيف آلام الصداع، والذى كنت أعانى إلى حد كبير من آثاره الجانبية من عدم الاتزان وصعوبة التركيز.

وجاءنى صوت زميلى «مروان الصواف» مقدم البرامج السورى الشهير بعد أن أعلنت لهم أننى فى الرابعة والخمسين من عمرى، حيث كانوا يعتقدون أن عمرى أقل من ذلك بعشر سنوات على الأقل، وهو يقول إننى أستحق وساما لذلك المظهر الذى استطعت المحافظة عليه، وإنه يغبطنى على ما وهبنى الله إياه من نجاح وتوفيق فى كل جوانب حياتى اجتماعيا وصحيا وعلميا.

وشعرت أنه والباقين «بينقوا» وأن هذا «النق» ليس فى موضعه، ووجدتنى أبتسم فى أسى، وأنا أقول لهم إن ذلك الوسام الذى أستحقه، هو وسام «المقاوحة» من الدرجة الأولى، أو على الأصح فإننى أستحق تمثال جائزة الأوسكار لتلك الموهبة الإلهية فى التمثيل، وإخفاء الجانب المظلم من حياتى.

وقصصت عليهم فى إيجاز مدى معاناتى من آلام الصداع، وكيف أن ذلك الصداع قد أفسد علىّ حياتى، لولا مقاومتى المستميتة وعدم استسلامى، وإصرارى على قهر المرض.

وما أن انتهيت من حديثى حتى انبرى الدكتور «أحمد القبيسى» وهو أحد أساتذة القانون والشريعة العراقيين، والذى يعد علما من أعلام علماء المسلمين، الذى يتميز بالقدرة الفائقة على الجمع بين الاتجاه العلمانى والاتجاه الإسلامى، يهنئنى ويغبطنى على ما رزقنى به الله من نعمة الصداع، حيث قام بترديد أحد الأحاديث النبوية التى تعنى أن آلام الصداع التى أعانى منها ستكون شفيعا لى فى الآخرة من أن يمس جسدى بالنار.

وانسحبت من الجلسة بينما استمر الجميع فى التعليق على تلك النعمة التى حبانى بها الله.

وما أن أوليتهم ظهرى حتى أخذت أقول فى نفسى:

يا ساتر حتى المرض «بينقوا» عليه هوه كمان.

* * *

ومع أننى عدت من الأردن وأنا سعيدة بما بشرنى به الدكتور «أحمد القبيسى».

ورغم أننى شعرت بأن الله قد ميزنى عن غيرى بذلك الألم.

إلا أنى سرعان ما تناسيت ذلك عندما بدأ الألم يغلبنى ويتحكم فى حياتى ويحيلها إلى أقرب ما تكون من الجحيم.

ولذلك قررت أن أتوقف تدريجيا عن الدواء الذى يعالج الصرع.

وقررت أن أخاصم الطب البشرى والأطباء.. وأن أحرمهم من «طلعتى البهية» ومن نقودى السخية.. وأن ألجأ إليه.. إلى المهندس «ر».

ذلك الرجل صاحب الكرامات الذى تقوم روح سيدنا المسيح عيسى بن مريم بإجراء العمليات الجراحية لمرضاه.

وكان ذلك فى ربيع ١٩٩٨.

العمليات الجراحية التى تجريها روح السيد المسيح

كان زوجى الذى عاد نهائيا إلى القاهرة بعد أن أنهى فترة عمله بإحدى الجامعات السعودية يتولى قيادة السيارة، ونحن فى طريقنا إلى المهندس «المبروك» بعد أن عرفت من صديقتى أنه يقوم بعلاج الحالات التى تتردد عليه فى شقته بإحدى ضواحى مدينة حلوان.

وكنت فى تلك الفترة أمر بمرحلة يائسة من المراحل التى تصبح فيها المسكنات لا جدوى منها.

وحاولت أن أرتمى برأسى على مسند المقعد، وقد استنزف الألم قواى الجسدية والذهنية أن أمنى نفسى بفرج الله القريب **على يد ذلك الرجل «المبروك»**.

وكانت صديقتى قد طلبت منى ألا أذهب إليه إلا إذا قام بتحديد موعد لى عن طريق أحد **«الواصلين»** فى المنطقة، حيث إن طوابير المرضى الطويلة قد تستغرقنى عدة أسابيع حتى أستطيع مقابلته.

ولجأت لأحد أفراد الأسرة «الواصلين» رغم أنه لا يؤمن بما سقته إليه من أنباء ذلك الرجل، وكيف أنه أجرى عملية جراحية لأحد كبار الشخصيات والذى تربطه بصديقتى علاقة قرابة، والذى كان يعانى من انسداد فى الشريان التاجى، وأن ذلك القريب لم يعد فى حاجة إلى إجراء العملية الجراحية التى أجمع عليها الأطباء فى مصر وفى الخارج.

وظللت **«ألح»** وأطارد عضو أسرتنا **«الواصل»** حتى أخبرنى أنه قد قام بالاتصالات اللازمة، التى ستيسر لى مقابلته ذلك المهندس فور وصولى.

والتقطنا ذلك الوسيط من أمام منزله حيث أخذ يوجه زوجى إلى الطريق الذى علينا أن نسلكه للوصول إلى منزل المهندس «المبروك».

وأخذ الرجل الذى كان معنا فى السيارة يعدد كرامات ذلك المهندس والحالات التى نجح فى علاجها.

وتعجبت عندما طلب ذلك الوسيط من زوجي أن يتوقف أمام العمارات المنخفضة المتواضعة جدا في ذلك الشارع الترابي الهادئ، وعندما أخبرنا أن ذلك المهندس يسكن فيها، حيث أخذت أتلفت حولي فإذا به شارع سكني عادي ليس به طوابير أو حشود، وليس هناك من يقف على باب المهندس في انتظار دوره. ولم أفصح عما بداخلي للرجل الذي كان يرافقنا، وإنما تبادلت مع زوجي نظرات الدهشة والتعجب.

وتقدمنا الرجل على السلم ونحن في طريقنا إلى الشقة التي نقصدها. وقبل أن ننتهي من السلم بعدة درجات، سألت مرافقنا - الذي أخبرنا أنه سينصرف فور أن يقدمنا لصاحب الشقة - عن المبلغ الذي عليّ أن أدفعه له، حيث رد قائلا: بأن ذلك المهندس سيقوم بنفسه بتحديد المبلغ وفقا للحالة التي تتطلب العلاج.

وفتح لنا الباب بعد أن ضغط مرافقنا زر الجرس رجل في الأربعينيات من عمره، طويل القامة، متين البنية، ذو شعر أسود خفيف قد غزاه الشيب قليل، وذو بشرة سمراء ملوحة، وملامح قوية غليظة، وعينين واسعتين حادتي النظرات، وشارب عريض غزير، وقد ارتدى بنطلونا وقميصا مشجرا مفتوحا عن صدر أسمر ذي شعر غزير، وقد طوق رقبته بسلسلة سميكة من الذهب التي تدلى منها صليب من الذهب في حجم نصف الكف.

واخترقنا الصالة التي كانت معدة كحجرة للمعيشة، والتي جلس بها شاب وفتاة من أبناء المهندس يشاهدون التليفزيون، متوجهين إلى حجرة الضيوف، والتي كان بابها في مواجهة الداخل من باب الشقة.

وجلس المهندس يستمع إلى شكواي بعد أن أحضر الشاي، والذي أخذ يتحدث في ثقة عن قدرته **الخارقة بفضل الروح القدس لسيدنا يسوع المسيح الذي تقدس اسمه في الأرض والسماء.**

وأن أي عملية مهما كان حجمها ونوعها لا تستغرق سوى دقائق قليلة، حيث تقوم الروح بشق الجلد وإجراء العملية دون أن يشعر المريض بأي ألم، حيث يلتئم الجرح لفوره تلقائيا بعد انتهاء العملية، ولا يتبقى من آثارها سوى بعض قطرات من الدم.

ولم يترك لي الرجل «المبروك» فرصة التساؤل عن طوابير الناس من المترددين عليه، حيث أسرع يقول إنه متوقف حاليا عن العلاج بأمر السلطات، حيث قام سكان الشارع بشكواه إلى الجهات المعنية بسبب الجموع الغفيرة، التي كانت تفترش الشارع طولا وعرضا

في انتظار الدخول إليه ، وأنه لم يقابلني لمجرد أنني من طرف أحد الأشخاص «الواصلين» ، وإنما لأنه قد تعاطف مع حالتي ويود أن يساعدني ولكن في وقت لاحق .

وأخذ المهندس «المبروك» يعدد الحالات والشخصيات التي قام بعلاجها ، وأنه قد وهب نفسه وحياته لتقديم خدماته المجانية التي لا يبغي منها سوى وجه الله وحده . وأنه لا يتقاضى مليما واحدا من المترددين عليه ، بل إنه ينفق من جيبه في سبيل خدمة من يقصدونه من المرضى ، وأن روح يسوع الذي تقدس اسمه في الأعالي لا يمكن استخدامها كوسيلة للرزق أو التربح ، وإلا حرمه الله من تلك النعمة التي أسبغها عليه .

وظل ذلك المهندس «المبروك» يتحدث عن كراماته وقدراته وهو يضرب الأمثلة للحالات التي قام بعلاجها ، وفي نفس الوقت يتحدث عن ذلك القرار غير العادل وغير المنصف الذي قضى بأن يتوقف عن علاج المترددين .

وحاولت أن أختصر الطريق وأن أعرف منه السبب في عدم علاجي ، وما هو دخل قرار الحظر المفروض على علاجه الروحي ، وقد أصبحت بالفعل داخل بيته وبين يديه ؟

وكأنما أراد المهندس «المبروك» أن يمد لي في حبل الأمل ، حيث أخبرني أنه لا يستطيع علاجي دون أن يعالج الناس الآخرين فنحن كبشر نتساوى أمام الروح المقدسة ، ولا يشفع لي كوني قريبة أحد الأشخاص «الواصلين» ، وأنه إذا ما بدأ العلاج فإن ذلك يجب أن يكون للجميع على حد سواء .

وعندما وجد الرجل «المبروك» أنني أهم بالانصراف يأسا أسرع يقول وهو يحاول أن يبدي تعاطفه معي وشعوره بالأسى لأجلي ، حيث قال إنه سيحاول الصلاة للروح المقدسة في الوقت المناسب حتى يحصل منها على إذن استثنائي لعلاجي دون الناس الآخرين ، وأنه على ثقة من أن الروح المقدسة سوف تمنحه ذلك الإذن بالعلاج .

وانصرفت من منزل المهندس «المبروك» الذي استنتجت من خلال حديثي معه أنه خريج أحد المعاهد المتوسطة وأنه موظف بإحدى الهيئات الحكومية ، حيث اتفقنا على أن أتصل به تليفونيا في نهاية الأسبوع ؛ لتحديد موعد العملية بعد أن يكون قد حصل على موافقة الروح المقدسة .

وأخذت أنا وزوجي ونحن في طريق العودة إلى مصر الجديدة في تحليل ذلك الرجل وما جاء على لسانه ، وكذلك ما قاله لنا الوسيط من حيث قيام ذلك المهندس بتحديد المبلغ الذي سيتقاضاه وفقا لنوع العلاج ، والذي يتناقض مع ما ذكره هو نفسه من عدم تقاضي

أى مبالغ تحت أى ظرف من الظروف . كما أخذنا نتحدث حول طريقته الإيحائية التى تتراوح بين الرغبة الأكيدة فى إجراء العملية وبين الامتناع بسبب قرار الحظر المفروض عليه . واتفقت مع زوجى الذى كان كثير الاعتراض على مثل هذه الجولات على أن نجارى ذلك الرجل وأن ننتظر ما سوف تسفر عنه الأيام .

واتصلت بالمهندس «المبروك» آخر الأسبوع كما طلب منى ، حيث أخبرنى أنه كان مشغولا طوال الأسبوع ، مما لم يمكنه من التفرغ للصلاة للحصول على الإذن من الروح المقدسة بالعلاج . وعاودت الاتصال ولم أتمكن من الوصول إليه. واتصلت مرات ومرات دون جدوى. وشعرت أنه يتعمد التهرب منى.

إلى أن جاء ذلك اليوم بعد نحو شهر تقريبا. حيث طلب منى أن أذهب إليه لأنه فى حاجة إلى أن يتحدث معى. وذهبت إليه دون أن أصطحب معى زوجى هذه المرة. اصطحبت معى أحد أفراد الأسرة الشباب. وكان ذلك الشاب ضابط شرطة.

* * *

كان ذلك الشاب رغم عدم إيمانه بمثل هذه الغيبيات يداوم على الاتصال بى ؛ لمعرفة ما آل إليه أمرى مع ذلك المهندس .

إلى أن كان ذلك اليوم الذى طلب فيه المهندس رؤيتى ، حيث اتصلت بقريبى الشاب وحيث أقنعته أن يأخذنى إليه ، حتى يجنبنى مشقة قيادة السيارة من جانب وحتى يقوم بحسه «البوليسى» بتقييم ذلك الرجل من جانب آخر .

وفتحت لنا الباب فى ذلك اليوم ابنته الفتاة الصغيرة ، حيث قادتنا إلى حجرة الضيوف ، وحيث انصرفت عنا بعد أن قدمت لنا الشاى .

وأمضينا ما يقرب من الساعة ونحن نتلهى بالحديث ، ونتجول بأعيننا فى تلك الحجرة الضيقة التى امتلأت جدرانها عن آخرها بصور السيدة مريم العذراء وابنها المسيح عيسى ، إلى أن أقبل علينا أخيرا وهو يعتذر بشدة عن تأخره عن موعدنا .

وظل قريبى الشاب صامتا دون أن تصدر منه كلمة واحدة طوال الجلسة ، عدا تلك الجملة القصيرة التى قال فيها إنه يعمل محاسبا فى إحدى الشركات ، عندما سأله المهندس عن عمله .

ويبدو أن المهندس «المبروك» كان قد اعتزم على أن «يجيب من الآخر» حيث أعلن

صراحة إن الروح المقدسة لن تقوم بإجراء العملية لى إلا إذا حصل من الجهات المختصة على الإذن بالعودة لممارسة العلاج. وأن علىّ أن أسعى لدى المسئولين لرفع الحظر عنه.

وارتسمت الدهشة على ملامح المهندس «المبروك» عندما أخبرته أن تجاربى وخبراتى فى مجال العلاج الطبى والروحانى أثبتت أننى إنسانة غير قابلة للإيحاء، أو الاستهواء، وأن الشفاء إذا تحقق على يديه ويدى روحه المقدسة إذا أراد الله لى الشفاء سيكون شفاء حقيقيا، وليس نوعا من الوهم أو التخيل أو الظن وأننى حينذاك سوف أسعى بكل ما أوتيت من قوة للضغط على قريبى، وعلى كل من أعرفهم من ذوى المكانات السلطوية فى الحصول له على الإذن الذى ييسر له العودة لعلاج المرضى.

ولم أقف عند هذا الحد حيث كنت صادقة فيما أقول حيث أخبرته أننى إذا شفيت على يديه بأمر الله، سوف أترك عملى وأوقف ما بقى لى من سنوات عمرى فى خدمته وخدمة المترددين عليه، وأننى سوف أهب كل وقتى وكل ما أملك للمساهمة فى تخفيف آلام المرضى والمعذبين.

وكنت فعلا أعنى ما أقول وأنا أتذكر الحاجة «صفصف» وشقيقتها، وكذلك «مسز ديفنى» وكل الآخرين الذين اقتنعوا أن الله قد اختارهم ليحققوا مشيئته على الأرض.

وانتابنى نوبة من الكرم النفسى والسماحة والرغبة فى العطاء، وقررت بالفعل أن أتخلى عن جاه الدنيا وغرورها وأن أقضى ما بقى لى من سنوات طالت أم قصرت راهبة فى معبد كل مريض وكل محتاج وكل متألم.

وانصرفت مع قريبى الشاب متوجهين إلى القاهرة، حيث أخذنا نتبادل وجهات النظر حول ذلك الرجل وحول مساعيه، حيث أدركت أن قريبى يتفق معى من حيث عدم شعورى بالراحة تجاهه، وأنه يستغل ذلك الضعف الذى يتميز به كل من يقهره المرض والألم، ويسعى إلى التعلق حتى ولو بقشة، كما يستغل أيضا ذلك التكالب والزحام الذى كان يشهده شارع بيته قبل إيقافه عن ممارسة العلاج للإيحاء والاستهواء، ويكون صيدا سهلا لشبكة أى صياد.

كذلك فقد كان تأخره المتعمد عن موعده معنا فى منزله من بين الأساليب النفسية للترغيب والاستسلام المطلق واستلاب الإرادة.

ووجدت أن قريبى الشاب استطاع بحسه البوليسى أن يكتشف أن المرتب الذى يتقاضاه من عمله ذلك المهندس «المبروك» لا يمكن أن يوفر لصاحبه تلك السلسلة الذهبية السميكة

والأقرب إلى كونها جنزيرا منها إلى سلسلة، أو ذلك الصليب الضخم الذى يصل ثمنه إلى عدة آلاف من الجنيهات، بالإضافة إلى مظاهر البذخ الأخرى المتمثلة فى الأجهزة الكهربائية الحديثة، والأثاث الفاخر الذى لا يتناسب مع الشقة المتواضعة، وكذلك جهاز التليفون الذى كان من أحدث الأنواع وأغلاها، والذى كان ثمنه بمفرده يفوق دخل ذلك الرجل من عمله طوال سنة كاملة.

كذلك فقد شعر كلانا أنه يستخدم معاناتى وآلامى ورغبتى الملحة فى الشفاء كورقة للضغط بهما علىّ وتحريكى وفق هواه، عندما أدرك أننى بعلاقاتى ويقريبى الرجل «الواصل» قادرة على الدفاع عن قضيته وإقناع أولى الأمر برفع الحظر عنه.

* * *

ولم أتصل به. كنت أنتظر منه أن «يجرى» هو ورائى.

ووجدت صديقتى تتصل بى لتنقل لى رسالة قريبها «**الشخصية الكبيرة**» عندما علم أننى قد لجأت إلى ذلك المهندس، والذى يحذرنى فيها من التعامل معه، حيث كان قد أخفى عن الجميع تورطه فى دفع ٥٠ ألف جنيه مقابل تلك العملية التى أوهمه أنه قد أجراها، وأن التحسن الذى طرأ عليه لم يستمر أكثر من عدة أسابيع، عاد يعانى بعدها من نفس ما كان يعانى منه، حيث إن ذلك التحسن الذى كان قد طرأ، إنما كان نتيجة تحسن حالة جهازه المناعى الذى ارتبط بتحسن حالته النفسية. عندما أوهمه ذلك المهندس، بأنه قد أجرى له تلك العملية خاصة بعد أن رأى قطرات الدماء التى تخلفت بطريقة ما عن العملية المزعومة.

وهكذا «**شرب**» قريب صديقتى «**الشخصية الكبيرة**» ذلك «**المقلب**»، حيث لم يكن لديه أى دليل يدين ذلك المهندس بالإضافة إلى أن الإبلاغ عنه، كان من الأشياء التى تضر بسمعته وهو صاحب ذلك المركز الرفيع.

كذلك فقد علمت من بعض المصادر أن هناك الكثير من البلاغات التى تدينه بالدجل والنصب والاحتيال، إلا أن الذكاء الخارق الذى كان يتمتع به جعله لا يقع تحت طائلة القانون.

* * *

ومضى أسبوعان. ووجدته يتصل بى. وأخبرته أننى لن أتراجع عن موقفى، ولن

أتحدث لكائن من كان في أمره إلا إذا تأكدت أنه قادر وهو وروحه المقدسة على علاجي، وأن روحه المقدسة إذا كانت بالفعل حريصة على مصالح مئات الناس من المرضى والمتألمين، فإن عليها أن تبدأ بي لأفتح الباب أمام كل الناس البائسين.

ولم يعد للاتصال بي مرة أخرى، فقد «رمى طوبتي». وكنت على ثقة تامة بأنه لن يتصل بي. وكما «رمى طوبتي» فقد «رميت طوبته» هو الآخر، «وطوبة» كل الروحانيين وطاردي الجن والعفاريت.

***

أراكم تتساءلون: لا بد وأنني قد «تبت» وإلى الأبد؟

أتريدون إجابتي بأمانة؟

نعم «تبت».

ولكن، ولكن ربما يكون ذلك إلى حين.

خاتمة: نداء على شبكة «الإنترنت»

نعم لقد «تبت» وربما إلى حين.

وأعدكم أنني سوف «أتوب» «توبة نصوحة»، عندما يرحل «الجني» الذي يسكن رأسي، وعندما يكف ذلك الجني عن «العفرتة» و«التنطيط» و«الشقلبة»، وعندما أتوقف عن تناول الحبوب من كل صنف ولون، أو عندما أجد ردا على رسالتي في الإنترنت.

* * *

ظللت على مدار السنة الماضية لا شاغل لي سوى مراسلة كبار الأطباء في جميع بقاع الأرض حيث كنت أرسل لهم عن طريق البريد كافة تقاريري الطبية ، وكان سؤالي المحدد هو : هل أقوم بإجراء العملية مرة ثانية أم لا؟

«طنشني» خمسة من اليابان والصين وروسيا والهند وإنجلترا فلم يردوا على رسائلي . وأجابني ثلاثة من الولايات المتحدة، وآخر فرنسي : «نعم» . وأجابني أربعة أمريكان وواحد سويسري، وآخر ألماني : «لا» . وأجابني ستة مصريين : «لا» . وأجابني اثنين مصريين : «نعم» .

وما زلت في انتظار رد مؤسسة «ستوكهولم كير» في السويد فربما يقولون: نعم، وربما يقولون: لا .

نعم! لا! نعم! لا! نعم! لا!

نعم: والله احترت «واحتار دليلي»!

* * *

Help me please

هذا هو عنوان الرسالة التي وضعتها لأطباء العالم منذ أيام على شبكة «الإنترنت».

وحتى يتفق الأطباء فيما بينهم على رأي واحد.

ويقولوا لي «لأه»، أو يقولوا «آه».

اعذروني إذا أخذت «ديلي في سناني».

وذهبت إلى.......................................

تمـــت

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٣٩٦٣/ ٢٠٠٠
I.S.B.N 977- 09- 0616-6

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

رحلتى إلى عالــم الجــن والعلاج الروحانى

عندما تكتحل الدنيا في عين الإنسان بمراود الظلمة، ويدلهم الليل ويستطيل وكأنه الدهر دون أن ينبلج الفجر ويأتي الصباح...

وعندما تفترس الأنفس والأجساد أنيابُ الألم الوحشية، في الوقت الذى يعجز فيه العلم والطب عن وقف نزيف الألم الأخرس...

ننزع إلى خلق حيلنا الدفاعية لاختراق المجهول، ونرتمي في أحضان الغيبيات والكائنات الإعجازية...

وسطور كتابي هذا، تحكي قصة رحلتي مع آلام الصداع، الذى لم ينقطع ليلا أو نهارا، حيث هاجمني فجأة، وأسلمني إلى طرقات وسراديب ودهاليز عالم الخرافة والغيبيات. عندما يئست من الطب، ويئس الطب مني. وعندما وقف العلم عاجزا عن انتشالي من طوفان الألم الهادر...

وما يضمه هذا الكتاب تجربة ذاتية خالصة هي دنيا جديدة اقتحمتها، وعالم جديد تفتحت عيني على مرآته.. هي حياة جديدة تنبع من كوني صاحبة التجربة.

لاضير من اكتشاف هذا العالم المجهول اللامرئي، إلا أن الخطورة تأتي من التعثر أو السقوط خلال اكتشافه أو اقتحامه.. ولهذا أقول: إياكم وهذا الطريق.



د. نادية رضوان

◆ حاصلة على درجة الدكتوراه من قسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٨١م.

◆ لها عدة مؤلفات وبحوث في مجال حقوق المرأة، وكذلك في مجال التنمية البشرية، والمشكلات السكانية.

◆ من أبرز مؤلفاتها كتاب «الشباب المصرى المعاصر وأزمة القيم» والذى فاز بجائزة وزارة الثقافة لأفضل كتاب في مجال البحوث الاجتماعية لعام ١٩٩٨م.

◆ تعمل حالياً أستاذًا لعلم الاجتماع بكلية التربية ببورسعيد جامعة قناة السويس.



القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: [illegible] هاتف: [illegible] - فاكس: [illegible]